د. أمل درويش

أســـــــماء

رواية

صدرت الطبعة الأولى فى أكتوبر 2019

بطاقة الكتاب

عنوان المؤلف	أسماء
المؤلف	د. أمل درويش
التصنيف	رواية
رقم الإيداع	19919 - 2019
الترقيم الدولي	978-977-6726-95-6
رقم الإصدارالداخلى	513 الطبعة الاولى أكتوبر 2019
عدد الصفحات	358 صفحة
تصميم الغلاف	ياسر الزين

إهداء

أهدي هذه الرواية إلى كل من دعمني وساندني في رحلة البحث عن الذات واستلهام الأفكار من روضة الحروف..

وأخص بالذكر زوجي العزيز الذي ساندني ودعمني في كل اختياراتي وأبنائي وعائلتي.

كما أهديها لكل من قرؤوا حروفي وطالبوني بضمها بين دفتي كتاب، وشجعوني على المُضي؛ فزادوني قوة لأستمر..

شكراً لكم جميعا.

وأخص بالشكر السيد: عدنان الشرهان من دولة الكويت على الدعم بالأفكار والمعلومات الخاصة بدولة الكويت الحبيبة..

كما أهدي باقات شكري وامتناني للفنان: ياسر الزين على إبداعه الراقي المتمثل في صورة الغلاف له جزيل الشكر.

د. أمل درويش

تمهيد

يجنح الكثير منّا للتحليق في ما وراء الخيال، فنتعلق بأمور لم نرها وربما تجاوزنا ذلك بأن نستشعر وجودها بالفعل وتأثيرها علينا..

وكم كان للأسماء حظٌّ كبيرٌ في هذا المجال، فالكثيرون منا عاشوا أسرىٰ هالة أسمائهم، وتخيلوا طاقة الحروف ومدى تأثيرها على حياتهم دون أن يشعروا، والبعض آثروا الملاحظة عن بعد..

مـقدمــة

كان مترددًا، يقترب من القلم ليطلب ودّه فتستعصي عليه الحروف، وحين يهجر الأقلام والأوراق ينهمر على عقله سيل الحروف وينساب ليسرقه ممن حوله..

في هذا الجهاد لسنوات، ولكنه لم يجرؤ الإقتراب أكثر حتى حانت اللحظة الفارقة التي قلبت أحوال قلبه وعقله رأسًا على عقب..

وما أغرب هذه الحياة!

فكم من مفارقات صادف، وكم من عوائق غيرت مساراته دون ترتيبٍ مسبق!

"أنَــس" هذا الفتى الهادئ ذو البشرة الصافية كصفاء قلبه وسريرته التي إختلطت فيها حُمرة الشمس مع طمي النيل الأسواني، وارتسمت قسماته على صورة ملكٍ فرعوني أحاط بعطفٍ أجداده، هو نفسه الذي خاض معارك لم يكن ليتخيلها لو ظلّ في مكانه، في عالمه الصغير، ولكن من منا توقّع تقلبات الزمن؟

الجزء الأول

خارج الحدود

البدايات

اللحظةُ التي تُهدينا ورقةً خاويةً تنتظر مَن ينثر في فضائها حروفه متوالية.. نتغاضىٰ عنها ونهدرها لشكٍّ في الصدور يجول؛ فماذا لو كان ذلك مجرد اختبار؟

ننسحب من المواجهة مع أنفسنا، وننأى بها عن حيرة الإختيار، وحين تمنحنا الأيامُ حرّيةً لا نملك سوىٰ الإستسلام للخنوع والخوف؛ فماذا لو كان ذاك مجرد فخ؟

تنساقُ وراءَ خيالاتك، تنعدمُ الرؤية وتُعدم البصيرة.. سافرتَ عبر سنوات عمرك الطويلة في بحارٍ بلا شطآن، فإذا ما صادفتَ شاطئًا كذّبتك عيناك وأنكرته وعلّقَتْهُ فيٍ لوحة السراب مجرد عنوان..

لم تعتد روحك على اقتحام الميدان، وإذا صادفتَ في رحلتك بستانًا لم ترَ عيناك سوىٰ الأشواك..

تتذكّرُ ذات حُلم!

حين صرختْ في وجهك الساعات وانقبضتْ الدقاتُ لتوقظك: "انهض من هذا السبات."

وماذا بعد؟

لا أدري من أين أبدأ، ولم تشغلني يومًا فكرة توثيق الماضي أو الحاضر، فأنا أؤمن دومًا بأن نهر الذكريات لا يعوقه سدٌّ، وأننا نعيش في فضاء الذكريات مهما حاولنا الغوص في أعماق واقعنا..

كان يومًا عصيبًا منذ فجره كما اعتاد والدي منذ سنواتٍ لا أحصيها عددًا أن يصطحبني إلى المسجد لصلاة الفجر، فنستفتح يومنا برضا الله والسير في حماه..

لأول مرة تُسابق خطواتي خطوات والدي، تلتهم الطريق من تحت قدميه، وما أن شعرتُ بذلك حتى استحيتُ وتظاهرت بتعثري لأعود لمكاني بعده بخطوةٍ.

في المسجد الكل ينادون والدي بالحاج حامد.

فيرد عليهم بتلقائيته وبشاشته المعهودة:

- الله يسمع منكم.

كانت أحلامه بسيطة، جُلّها زيارة بيت الله الحرام، وأداء فريضة الحج..

وكان يواسي نفسه بأن المساجد بيوت الله فأيما استطاع منها زاره..

لم يكن هناك ثمّة فرقٍ بين هذا اليوم وسنواتٍ سبقته، كان والدي حريصًا على السجود بعد كل صلاةٍ سجدة شكرٍ لله على نعمه..

ولكن طالت السجدة في هذا اليوم..

تذكرتُ يوم اصطحبني للمرة الأولى إلى المسجد وأنا طفلٌ صغير ووالدتي تحذره:

- **يا حامد ابنك أنس كثيرُ الحركة سوف يشغلك عن الصلاة، وربما خرج من المسجد بينما تُطيل في سجودك كعادتك..**

وما كان منه إلا أنه يبتسم ويقول لها:

- **لا تشغلي بالك يا نجية، كل الشارع يعرفه لن يتوه، نحن في رحاب الله.**

لم ينحصر اصطحابه لي فقط على المساجد، بل كان حريصًا على مشاركتي له في معظم تحركاته..

فقد كنتُ شريكه الدائم على طاولته المفضلة في هذا المقهى القابع على ناصية شارعنا في دوران شبرا..

كان مقهى الصحافة أو كما يطلقون عليه "قهوة الصحافة" ملتقى للمثقفين والصحفيين يتناولون فيه مستجدات الأخبار وما يحدث حولنا من أحداث وكنت أجلس فاغرًا فاهي حين أجدني لا أفهم شيئًا مما يقولونه وأحيانًا أشعر بالفخر والنشوة وكأنني محللٌ سياسي مشهور ممن يُطلون علينا عبر شاشات التلفاز لمجرد إدراكي لبعض الكلمات أو التعبيرات المطروحة أمامي للنقاش، وأعود لأعيد على والدتي وأختي رقية ما سمعتهم يقولونه.

مازلتُ أتذكر تجمع رواد المقهى كلما دخل أحد الصحفيين هناك فربما يمتلك الجديد من الأخبار في الأوقات الساخنة خاصة عندما إجتاح جيش صدام المُعتدي دولة الكويت، وزاد الوضع قلقًا على المصريين العاملين بالعراق وقتها، فكانت كل الأسر تتساءل متى يعودوا من هناك بعدما إنقطعت كل أخبارهم.

أدركتُ فجأة أن والدي قد طال سجوده هذه المرة فهممتُ إليه أربتُ على كتفه بخفة، فلم يعرني انتباهًا..

تذكرتُ ذلك اليوم الذي رأيته للمرة الأولى يطيل السجود فانكببت على ظهره وأنا طفلٌ صغير فانتظرَ لثوانٍ ثم انسحب بهدوءٍ كي لا يُسقطني أرضًا..

- ماذا دهاني؟ ماهذه القبضة التي تُحكِمُ سيطرتها على قلبي تكاد من فرط قوتها تخلعه من موطنه؟

أبي!

صرختُ فانتبه باقي المصلين الذي لم يغادروا وتجمعوا حولنا..

- ما بك يا أنس؟

كانت صيحاتهم تعلو في المسجد...

بلا أمل حاولنا أن نصرفه عن سجوده، نخرجه من حالة التوحد مع الكون لحمد الله على جزيل عطاياه ونعمه، ولكن دون جدوىٰ..

تدافع سكان الشارع على أصوات استغاثة المصلين، وجاء الدكتور مصطفى جارنا ففتح عينيه ووضع إبهامه وسبابته بخفّةٍ على أوداجه فلم يستجبوا له وآثروا السكينة والهدوء..

- إنا لله وإنا إليه راجعون..

تعالت أصوات المصلين وأنا مازلتُ أسير الصدمة.

المعتقل

عبثًا تحاول استجداء القلم، أن يخُطَّ ما عجزتْ عن ترتيبه الروح في زحام الدوائر من حولك، واضطراب أمواج الحروف.. عالمٌ مفتوحٌ ألقىٰ شباكه من حولك، ولا أمل لك في مفر.. ترشقك سهامٌ لا تدري من أين؟ ولاتعرف منها كيف تحتمي؟

أنتَ لم تختَر سوىٰ خطوتك الأولىٰ، البابُ الذي شرّعته، ولم تدرك حينها هول ما خلفه..

سباقاتٌ محمومة، أحاديث مذمومة، صورٌ لوجوهٍ موشومة اختارت الغش لها موطنًا.. أقنعةٌ ملونة، وأخرى باهتة، ليس لها لون، تحتار فيها إذا حاولت الوصف، وما جدوىٰ الكلمات إن عجزت روحك عن احتواء الأمر؟

خيوطٌ متشابكة، وقلوبٌ متهالكة إختارت الخيال، وتوشّحت الظلال خلفها تختبئ.. ما همّك إذا كانت بأفواج الصادقين تلتحق؟ ماذا وجدتَ في صفوفهم ومن عرفت؟

كان بداخلي هاجسٌ يساورني دائمًا حين أسمع اسم أحدهم: لكل واحد من اسمه نصيب، فكنت أتعجب أين نصيبي من اسمي وقد مررتُ بكل هذا الشقاء وطالت رحلة الألم، أليست هناك نهاية لها؟

سألتُ والدي ذات مرة ونحن نجلس في المقهى وكنتُ وقتها صغيرًا:

- أبي، ما معنى اسم أنس الوجود؟ ولماذا اخترته لي؟

فابتسم والدي وقال:

- لأنس الوجود قصةٌ طويلة وملحمةٌ أسطورية حتى أنهم ذكروها في كتاب ألف ليلةٍ وليلة.

لم أفهم كثيرًا كلمات والدي حينها، ولكنه ما إن ذكرَ قصص ألف ليلة وليلة حتى شعرتُ بالفخر فاسمي على اسم أحد أبطاله وظننتُ نفسي سندباد، ولكن ماذا لو كان يشبه لص بغداد؟ ستكون هذه ورطة..

ولكن بعدما كبرت قرأت قصة أنس الوجود وشعرتُ بسعادة أكبر وقلقٍ أكبر..

في السجن كل سجين يعرف تهمته، فهناك القاتل وهناك اللص والمحتال وهناك البريء أيضًا لكن بقاءه مسألة وقت حتى خروجه على يد محامٍ بارع يعرف دهاليز الأحكام وزواياها المكتظة بالتفاصيل، وإنْ لم تنصفه عدالة الأرض فعدالة السماء أقدر..

ولكن في هذا المعتقل نُساق إلى أقدارنا بلا تُهم، ولا أمل في البراءة أو الإفراج.. مجموعة أنفاس عالقة بين كفوف الأيام، مرةً تُلقي بها دون حذر فتصفعها أكوام الهموم المكدسة في الطرقات ومرةً تترفق بها فتنحيها جانبًا حتى يحين دورها..

بدأت الرحلة من مطار الكويت، حين هبطت بنا الطائرة في أجواء عاصفة رملية كادت تحجب الرؤية لولا مهارة القائد وخبرته في التعامل مع هذه الأجواء، حتى صفق له الركاب عندما لامست عجلات الطائرة أرض المطار..

وكان قلبي يصفق بطريقته فها هي دقاته المتسارعة تكاد تحطم ضلوعي، فهذه أولى تجاربي مع الطيران في الجو ولكنها تجربة لا تُنسى..

وما إن فُتح باب الطائرة وعندما لامست أقدامي أولى درجات السلم رفعتُ يدي أمام عينيّ لتحجب القليل من أشعة الشمس المتوغلة في أعماقي وكأنني عصفورٌ تحطمت قشور بيضته عنوة من الخارج وخرج منها قبل أوانه.

بين الجموع سرت حتى وصلنا لصالة المطار الداخلية فوجدت رجلًا قد تجاوز الأربعين عامًا، بدين الجسم، قصير القامة، لا يبشر عبوس قسماته بالخير أبدًا يحمل لافتةً مكتوب عليها اسمي ومجموعة أسماءٍ أخرى، فوقفت أمامه وأخبرته بإسمي، وهكذا تجمعنا.

- أنا اسمي الريس سامي، رئيسكم والمسؤول المباشر عنكم في العمل.

هكذا بدأ الريس سامي حديثه معنا ونحن نستسلم للجام الصمت الذي كبّل أفواهنا.

أنهى الريس سامي إجراءات المطار ونحن نسير خلفه دون كلام.

كنا مجموعة عمالٍ وكنتُ أصغرهم، منذ الوهلة الأولى وأنا أشعرأنني لا أنتمي لهذا المكان ولا بادرة أمل في علاقةٍ قد تنشأ بيني وبين هؤلاء..

سرنا خلف الريس سامي كقطيع من خراف تنتظر دورها لتستسلم بين يدي قصّابٍ لا يعرف الرحمة، يتجنب النظر في عينيك كي لا تسقط من عينيك دمعة فتعكس شعاع الضوء في عينيه ويلسعها بحرارة اللوم..

بعدها كدّسنا الريس سامي في سيارة قديمة وانطلقنا إلى رحلةٍ أخرى، تنسرب السيارة على طرقات ملتوية ممهدة تحيط بها الأشجار من الجانبين فتخفف أثر الغبار الذي امتلأت به الصدور ثم بدأت الطرقات تضيق شيئًا فشيئًا وتزداد العثرات والحفر لتنتفض بنا السيارة فتكاد رؤسنا تصطدم بسقفها وكأنها تريد أن تلفظنا هي الأخرى كما لفظتنا الحياة من قبل.

مبنى متهالك وصلنا إليه بعد أن شققنا طريقنا بين ركامٍ من الصفيح يساند بعضه بعضًا كي لا يسقط في الزحام وتضيع ملامحه تحت الأقدام..

غرفة صغيرة تنتظرنا من نفس الصفيح بحرارة فرنٍ جهزه فرّان ليستقبل أرغفته البائسة فيخبزها لتسد رمق عشرات الأفواه الفارغة، ويا لحظها إذا نالت منه بضع لقيمات!

ثم ضغط على زناد علبةٍ يتيمةٍ على الجدار مصلوبة فصرخ بصوتٍ أجش يئن من شدة الطرق وكأنه بين فكيّ سندان يستقبل مطارق بلا آذان..

جهازٌ عتيق عفا عليه الزمن ومازال ينتظر اليوم الذي يُرحم فيه من هذا الأنين ويُحالُ إلى التقاعد أتى منه بعضُ الهواء الساخن دفعةً واحدةً مع رشةٍ خفيفةٍ من رذاذ الرمال فامتلأت أعيننا وصار كلٌّ منا يفرك عينيه ربما من بعض الرذاذ وربما ليتأكد أنه مازال على قيد الحياة وأنه لم يكن بالقبر كما هُيئ له.

لست متأكدًا بعد من وظيفة هذا المُكيف هل هي تبريد الهواء أم أن الأمر أصبح يفوق قدرته وانتصرت عليه حرارة الجو فهزمت شموخه؟

عشراتُ الأسئلة تحومُ في صدرك، ولن تجد لها إجابةً شافية..

غريبٌ هو هذا الإحساس.. الآن فقط أدركتُ خوف جدتي وهلعها حين عاد خالي راضي من العراق، وكم كانت تود لو حفظته في داخل جوفها لتحميه من مصيرٍ مرعب إذا تحققت تهديدات حسين أخو زوجته..

تذكرتُ حديثها لخالي حين قالت له بهلعٍ وخوف:

- طلِقها يا بني.. الله يحميك منهم ويكفيك شر أذاهم.

اللهم شتت شملهم، اللهم اجعل كيدهم في نحورهم.

كانت هذه دعوات جدتي لخالي مرةً تواسيه ومرةً تشد من أزره وتطمئنه..

هل كانت أبواب السماء مفتوحةً حينها؟

ربما..

وربما لأن الجنة تحت أقدامها تكون أبواب السماء مشرعةً دائمًا لأجلها..

حينَ تُحلّق بين السحاب وحولك أسراب الطيور لا تُعجزها المسافات ولا تسلبها الأمل تبدو كأنك واحدٌ منهم، ثم تغوص في جوف الأرض فتُهلكك كُتل الجمر والحمم الحارقة..

لا مجالَ للوسط؛ فالحياة هنا تختلف.. إما بناياتٌ فخمة مجهزة بأحدث وسائل الراحة والرفاهية، أو أكوامٌ من الصفيح الصدئ.. تكتظ بلا رفقٍ بعشرات العمال..

ما إن تفتح عينيك على هذه الأرض تجد البريق من حولك في كل اتجاه، ويعكسُ النورُ أشعته التي غمرت واجهات الأبراج الشاهقة ليرتد على وجهك فلا تنال منه سوى حرارته، وأما ضياؤه فليس لك..

وتنتهي رحلتك عبر الشوارع المتأنقة لتضيق بك الشوارع فجأة ثم تتلوى وتضيق أكثر فأكثر وتختفي معالم الأناقة والتحضّر حتى تصل إلى هذا المعتقل فتتكوم على نفسك لتجد لكَ مكانًا بين ركام

ذكريات العشرات من البشر من نسجوها في كل الأركان ثم تركوها شاهد عيان وفروا بعد انقضاء العمر.

لم نكن نعرف أين نحن، وهل مازلنا بالكويت أم أن هذه البقعة جاءت من عالمٍ آخر لتسقط هنا، ولكن عرفنا من سكان هذا البيت أننا في خيطان، وعليك أن تحترس وأنت تقولها، هذه المنطقة التي تضج بالعمال من كل بقاع الأرض تكدسوا فيها بشكل عشوائي في بيوت قديمة من طابق واحد أو طابقين، كانت هذه البيوت بيوت أهل البلد قديمًا قبل عشرات السنوات، ثم هجرها أصحابها بعدما بنوا بيوتًا جديدة في مناطق أكثر تحضّرًا وتركوا هذه البيوت فاستأجرتها بعض الشركات وقسمتها إلى غرف صغيرة بالإضافة إلى المزيد من الغرف التي أضافوها.

عالمٌ آخر لا تدري كيف وصلت إليه، ولا كيف تنجو منه؟

رحلة المتاعب تبدأ بخطوة

وحدك..

تتآكل تجاويف الفرحة بداخل عمرك،

وتستبدلها بفراغ الوحدة، موحشةٌ دروبه في صدرك..

كم أخلفتَ من يأسٍ خلفك؟

وصدىٰ الآه المكبوتة في جوفك!

صمتٌ ألفتَهُ وألِفك..

خيباتٌ تجري بين الخطوة والخطوة سربًا..

وحدك!

خلف غيمة حزنٍ بقلبك وبروحك تفتِك..

فهل قبلتَ الوهم ظلّك؟

ترسم ابتسامةً بلا ملامح، مبتورة الشفاه والمبسم..

ترجو الليل أن يعتق حزنك..

وتبقى في الوهم وحدك..

هيهات!!

لا الليل يمضي، ولا الصباح زار قلبك..

يُقال أن أصعب ما في الرحلة أولى خطواتها، وكانت أولى خطواتنا على هذه الأرض بدايةً من هذه الغرفة الصغيرة، تكدست أحلامنا أما أجسادنا فكانت بالكاد تتسع لها..

سريران فقط لخمسة جثث تركت أرواحها رهينةً بعيدًا هناك حتى تعود إليها يومًا، لا ندري متى ولكن ستأتي هذه النهاية حتمًا..

تكومتُ على أحلامي في أحد الأركان، ومعي حقيبتي الصغيرة التي ضمت بين طيّاتها ذكرياتي التي لم أقوَ على فراقها والقليل من الملابس..

كما نصحني مستر أمين:

- يا أنس الطقس في دول الخليج حار ورطب معظم شهور العام ولن تحتاج لملابس ثقيلة فشتاؤهم قصير جدًا وليس كشتائنا يسترخي على أرضنا لعدة شهور.

الجميع استلقوا من عناء الرحلة فلم يكد يطرح أحدهم جسده حتى غرق في سُباتٍ عميقٍ وبدأ في عزف سيمفونيات تضاهي في طول نغماتها سيمفونيات بيتهوفن وموزارت..

حاولتُ الإسترخاء وتعلقتْ عيناي بالسقف فلم أرَ سوى الفراغ، فلم تعد عيناي ترى سقفًا لأي مكانٍ تسكنه منذ رحيل والدي في ذلك الصباح..

ولكن بعد معاناةٍ أطبق جفناي عنوةً واستسلمت للنوم غصبًا..

لم تطل فترة الإسترخاء والراحة، فبدأنا رحلةً أخرى، ففي اليوم التالي جاءنا الريس سامي الذي لم ينل من اسمه سوى الثلاثة أحرفٍ الأولى..

كان هو حلقة الوصل بيننا وبين العالم الخارجي، فهو المسؤول عنا أمام أصحاب العمل، كان في نهاية كل شهر يأتينا وبيده كشف فيه أسماؤنا وأمام كل فرد رقم يعبر عن حفنة من الدولارات (فالشركة المسؤولة عن الحفر والعمل شركة أمريكية _هكذا أخبرنا_)

وكانت هذه الدولارات البسيطة بالنسبة لنا كنزًا متواضعًا يتناسب مع أحلامنا البسيطة في سد رمق أفواهٍ مفتوحة تنتظرها، وأجساد نحيلة تنتظر كساؤها..

وبالطبع لم نكن نملك رفاهية الحلم بأن تلمس أناملنا هذه الأوراق النقدية أو حتى تراها أعيننا، بل كانت مجرد أرقام تتردد على مسامعنا، ثم يأخذ منا الريس سامي عناوين الأهل ويتكفل بتحويل المبالغ وإرسالها، ثم يشتري لنا بالباقي ما يسد رمقنا لبقية اليوم ويعيننا على مواصلة العمل في هذا الطقس العنيد، فقد كانت هناك وجبة تُقدم لنا في موقع العمل في فترة الراحة..

- ممنوع الخروج بمفردكم خارج السكن؛ فليس معكم أوراق ثبوتية والشرطة إن قابلت أحدكم ستلقي القبض عليه.. فترة مؤقتة حتى ننتهي من تجهيز أوراقكم بشكل رسمي وبعدها تستطيعون الخروج.

هكذا كان يؤكد علينا الريس سامي، ولا أحد منا يمكنه مجادلته فنحن جميعًا نشترك في أمرٍ واحد وهو حرصنا على عدم إثارة أي إزعاج أو إبداء أي شكوى.

- فترة وتنقضي بمُرّها وشرها.

هكذا قال أحدهم بصوتٍ مسموع وعقّب الباقون بتنهيدةٍ جاءت من جوف بركانٍ يبدو خامدًا.

ليالٍ طويلة قضيتها وحيدًا برغم الصُحبة الباهتة من حولي، يعكف كلٌّ منا على همه، يتقوقع فيخفي جانبه اللين خشية أن تسحقه عجلات الزمن ولا تترك منه شيئًا، يعود بعد عناء اليوم ليلتهم وجبته البائسة بلا طعم ثم ينام كقتيلٍ سُلبت روحه للتو..

وحده حُلمي هو الذي لم يهجرني ولم يُغادرني ليلة، ذلك الحُلم الذي يرافقني منذ الصغر.

لا أدري لماذا تذكرتُ الآن هذه العرّافة "ضاربة الودع" كما يطلقون عليها، تحتضن بين كفيّها مجموعة أصدافٍ جمعتها بعناية

وتُهمهم بكلماتٍ غير مفهومة وكأنها توشوشها، ثم تلقي بها على صفحة الرمال وتحكي الأسرار التي أخبرتها بها.

قابلتها حين كنا ذات مرة في زيارةٍ للأهرامات، ذهبنا إليها أنا وبسمة ابنة خالتي وأختي رقية، خافت بسمة ورقية من أن تكشف أسرارهما أمامي، ولكنني بعدما تركناها وذهبنا عُدتُ إليها بمفردي أسألها عن نفسي فأخبرتني عن حُلمي وكنتُ مذهولًا حينها..

- كيف عرفت؟ لا أدري يا أمي.. لم أخبرها بشيئ..

فكان رد والدتي السريع دون تفكير:

- يا أنس، هؤلاء المنجمون كاذبون وإن صدقوا، ما فعلته حرام يا بني استغفر الله، ولا تفعل ذلك ثانية. هكذا نصحتني والدتي ولكنني مازلتُ أتذكر كلمات هذه العرّافة حتى الآن.

ومازال وجه بسمة يتدلى من سقف الغرفة كَثُريا تبعث الدفء والنور لليالِيّ المظلمة، وبسمتها التي لم تأفل يومًا تبدد عتمة روحي وتزرع فيها أملًا..

البيت الكبير

ما بين الضوء والحرف مسافةُ عشقٍ، وصحارى شوقٍ لم ترتوِ بلقاءٍ بعد..

تعود الذاكرة أميالًا للوراء، لعلّها من نهل اللقاءات الأولي تعُبّ..

لم تكن يومًا تنتوي أن تسلك دروب النازحين من قيظ الغُلْب..

مُفارِقةً أحلامها هنا..

بعدما استودعتها في قبو الحاضر المُرّ..

وماذا بعد القهر؟

أن تترك عالمك دون عُذر؟

سوى أنك لها هُنا لا تنتمي..

فلأيّ أرضٍ خُلقتَ هل تدري، أم أنّك لقيطُ الوحدة والسُهد؟

عابري سُبُل صرنا للطرقات نحتوي، نلتهم المسافات ولا نشبع، نركض في أنحائها ولا نحُطّ، طيور الهجرة تشتّتت، وضاقت بها الأحلام وما عاد يُبقيها أمل!

كما اعتدتُ في طفولتي أن أقتنص الفرصة لأقترب من صومعة خالي سامح لأملأ عينيّ بسحر الألوان وبساتين الجمال في لوحاته، وربما اختلستُ نظرةً على بعض كتاباته، كانت هناك غريمةً لي تجلس أمام خالي في الحديقة ليرسمها إنها بسمة ابنة خالتي نجوى التي كانت تنافسني في صحبة خالي سامح ولكنني في الوقت ذاته كنتُ مستمتعًا بالغوص في عينيها خلف شعاع الغروب وهو يداعب أهدابها فيختلس خيطٌ رقيقٌ منه مساحاتٍ يرخي بها ظله..

وهذا النسيم الغرير في أواخر آذار يغوي خصلاتها لتمرح معه وينطلقون في نزهة..

لم نكن سوى طفلين ببراءةٍ يرسمان أحلامًا على أطراف السحاب..

كان أجمل أيامنا يوم الجمعة يوم اللقاء في بيت جدي، هذه الڤيلا القابعة في حي حلمية الزيتون، والتي مازالت تحمل لمحاتٍ من آثار جمالٍ كان يزين المدينة بأكملها، ولكن لوثة الإنفتاح والتجديد جرفت في طريقها لوحات الجمال وأشجار الزيتون التي سيّجت المكان فأبادتها لتزرع مكانها كتلًا إسمنتية باهتة لا روح لها ترخي بظلالها الكئيبة على الشوارع، فتنتزع منها كل ملامح الحياة..

وهكذا أحاطت هذه الكتل حديقة جدي فأرخت بظلالها على جوانبها..

في عصرٍ كانت فيه القاهرة من أجمل وأرقى المدن تنافس في جمالها وأناقتها باريس ولندن، كانت هذه المنطقة التي بنيت في عهد الخديوي عباس حلمي ولهذا سميت باسمه، فتزينت بقصور الأمراء

من أسرة محمد علي وجاورهم بعض الوُجهاء وكبار الشخصيات الذين آثروا السكن في هذا المنطقة لما تتمتع به من الهدوء ووجود أشجارالزيتون تحفّها من كل صوب..

ولكن مع الوقت وبعد الثورة زحفت الأحياء الشعبية على تخوم هذه المنطقة فانتقل أصحاب الفلل والقصور إلى حي مصر الجديدة المجاور والأكثر حداثة وهدوء، وهجرها أهلها ثم باعوها بعد ذلك لمُحدثي النعمة الذين ظهروا في الفترات التالية.

كان جدي يمتلك قطعة أرضٍ ورثها عن أسرته في إحدى قرى الريف المصري فباعها واشترى قطعة أرض في هذه المنطقة بالقاهرة وبنى عليها بيته ولم يتركه بعد هذه التغييرات التي طرأت على المجتمع المصري؛ فكيف يتركه وقد شهد أجمل أيامه وفيه ولد أبناءه وأحفاده؟ فظل صامدًا يقف في وجه الزحف المحيط به من كل جانب ويقاوم كل الإغراءات التي أغدق عليه بها رجال الأعمال الجدد ليشتروا منه هذه الأرض.

تخرّج جدي من كلية الحقوق بجامعة الملك فؤاد في منتصف الأربعينات من القرن الماضي وعمل وكيلًا للنائب العام وتدرج في المناصب حتى وصل لمنصبه الأخير قاضيًا. لم يكن وقتها مسموحٌ لأي أحد بالدراسة فى هذه الكليات المرموقة فهم سيشغلون مناصب حساسةٍ بعد تخرجهم لذلك يجب أن يكونوا أبناء أسرٍ مشهودٌ لها بالسمعة الطيبة والأصالة والعراقة.

وبالرغم من أنه طوال فترة عمله بالقضاء لم يكن يبدِ أي نشاطٍ حزبيٍ إلا أنه كان يميل إلى حزب الوفد ويراه أكثر الأحزاب مصداقيةً ورغبةً في حماية الوطن والإهتمام بحقوق الشعب..

كان جدي عبدالرحمن بك الشرقاوي كاتبًا ذا قلمٍ مستنير يُشرّح المجتمع من حوله ويستخرج بواطن الجمال وما استجد عليه من علل لم تكن موجودة قبل الثورة ثم هذا المنعطف الجديد والطفرة التي حدثت بعد نصر أكتوبر٧٣.

كانت غرفة خالي سامح بالطابق الأرضي وكان ذلك الخيار الأمثل ليُسهل عليه الحركة والخروج إلى الحديقة والإستمتاع بوقته فيها..

أصيب خالي سامح في طفولته بمرض شلل الأطفال حيث كان منتشرًا في ذاك الوقت قبل انتشار اللقاحات المعروفة الآن والتي استطاعت إبادته حتى صار مجرد ذكرى لعهدٍ بائد..

تسببت هذه العدوى بإعاقةٍ خفيفة في ساقه ولكنها كانت كبيرة في عيون المحيطين، هكذا نحن البشر نتوهّم أن نظرات الشفقة والعض على الشفاه تعبّر عن تعاطفنا مع المريض ولكنها في الحقيقة سكاكين باردة تمزق روحه وتنتزع منها كل بادرة أملٍ بالشفاء..

أفيق من سكوني الظاهر وغرقي في الذكريات على صرخة أحدهم، لم أنتبه أنني في الأيام الماضية لم أهتم بمعرفة أسماء شركائي في هذه الزنزانة.. "ماذا؟"

لدغة عقرب

زائرُ الليل، والهمسُ يكوي جفنيّك، يبحث بين غافيات النجوم عن مخرج، عن دربٍ يسلكه بعيدًا عن وديان الذكريات..

أنتَ الذي راهنتَ بطول صبرك، وعاندتَ الأيام طولًا وعرضًا..

تُحيلُ ما تبقّىٰ من أحلامك الماضية إلى التقاعد، وتنسف كلّ دفاتر الذكرىٰ واهمًا أنك عنها مُفارِقٌ ومباعِد..

عقربٌ شارد ضلّ طريقه لجُحره في الظلام، وتوسّم في حرارة خمسة قلوبٍ تضخ دماءها ممتزجة بالعذاب والآلام، توسّم فيها وجبةً شهيّةً تكفيه لعدة أيام، ولم يدر بخلده أنها وجبته الأخيرة..

لم أفكر، ولا أدري كيف قفزتُ من ركني وصرخت فيهم:

ثلج أريد ثلج.. -

وبالفعل أحضروا من ثلاجةٍ قديمةٍ متهالكة تئن ليل نهار لتمنحنا آخر كل يوم بضعة مكعبات من الثلج، وتختزن الفتات المتبقية من طعام ليس له طعم في غياب من نُحب..

وضعت الثلج مكان اللدغة وطمأنتُ... !!

إنتبهتُ أنني لا أعرف إسمه فقال لي بصوتٍ خفيض:

- **نادر.**

فهدّأت من روعه وقلت له:

- **ارتح يا نادر، لا تتحرك كثيرًا حتى لا ينتشر السم.. يمكننا تخفيف الأثر وتأخير انتشاره حتى يحضروا المضاد اللازم للسم.**

جاء الريس سامي ومعه زجاجة صغيرة سحب منها بضعة سنتيميترات بواسطة إبرة ثم غرسها في ساق نادر، ثم دسّ في يدهِ شريطًا من الدواء، وقال لنادر:

- **خذ حبتين ثلاث مرات يوميًا وارتاح غدًا من العمل.**

ثم تركنا وذهب وكأن هذا أمرًا روتينيًا يحدث كل يوم..

كان الدواء عبارة عن مضاد للسموم هذا الذي حقنه لنادر بالإضافة إلى مسكن للآلام، يستخدمه معظم الناس هنا كعلاجٍ سحري لكل الأوجاع عدا أوجاع الروح التي تستعصي على أيٍ علاج، فدواؤها الوحيد لقاء الأحباب..

قضيت الليلة مع نادر في ركنه، نتبادل أطراف الكلام ويسرد كلّ منّا تفاصيل تُهمته التي أودت به إلى هذا المعتقل..

كان نادر الإبن البكر لوالديه، زوجين سعيدين بأول فرحتهما، كما هو حال كل العائلات الشرقية تزهو وتفتخر بقدوم الذكر مولودهم الأول..

ومرت سنتان وبدأت الأسرة تتحضر لمشروع أخ أو أخت لنادر، ولكن طال الإنتظار.

جرت العادة أن يكون انتظار الوليد الأول محل القلق والتوتر إذا تأخر، وأما المرأة الولود فلا خوف عليها ولا قلق من تكرار الحمل..

ذهب الزوجان لأقرب طبيبة متخصصة لاستكشاف العائق الذي يمنعهما من الوصول للحلم المنشود، فطلبت إجراء بعض الفحوصات الطبية، ولمح عبدالله والد نادر في عيني الطبيبة نظرة قلق فانتهز فرصة غياب زوجته لترتيب ملابسها بعد الفحص ليستفسر من الطبيبة فقالت له:

- خير إن شاء الله.

- وأيّ خيرٍ بعد هذه النظرة وهذا الرد يا دكتورة؟ أستغفر الله العظيم، كل قضاء الله خير..

هكذا تمتم في سرّه.

وبالفعل تمت الفحوصات وحدث مالم يكن بالحسبان، كان هناك وحشٌ رابض يستشري ويعيث فسادًا في جسد إيناس والدة نادر بدأ من الرحم ولم يكتفِ به فانتشر حوله، دون أن تشعر به أو يثير أي شبهات..

كعادة البسطاء وقبل تفشي وانتشار هذا المرض كان دائمًا يشار إليه في الأحاديث بالمرض اللعين أو المرض الخبيث، كانت كلمة سرطان وحدها تُشكل إعصارًا كإعصار كاترينا نادرًا ما ترك خلفه أثرًا للحياة..

بقلبٍ يدّعي الرضا والخضوع لإرادة الله تمالك الزوجان مشاعرهما كلٌّ أمام الآخر، وحين ينفرد كلّ بنفسه ينهار سد التظاهر وتفيض أنهار الدمع..

كانت رحلة العلاج موجعة، ومنهكة لقوى والديه عبدالله وإيناس ماديًّا ومعنويًا، وكان من الصعب إصطحاب طفلٍ لم يبلغ عامه الثالث في هذه الرحلة الشاقة، فكانا يتركانه مع زوجة عمه ترعاه مع بناتها..

وأكمل نادر حديثه:

- عمي محسن، كان طيب القلب، وزوجته وداد أيضًا، كان حلمهما البسيط ذكر، وكل مرة تحمل فيها وداد وتقاوم بكل ما أوتيت من قوة متاعب الحمل لعلّها تفوز بالجائزة هذه المرة فيمنحها الله وسام الأمومة ويكافئها بالمولود الذكر..
- وكأنها لم تنل حتى الآن صك الأمومة ممهورًا بختم خمس فتيات!

هكذا كان يحكي نادر، وكنتُ أسمعه وقلبي من الألم يعتصر، حين تذكرتُ والدي وما حدث لنا من بعده..

عجبًا لبني الإنسان، لا أحد يرضى بقدره..

وبدأ مفعول المسكن يحتل تجاويف عقل نادر فيُسدل أستارها واحدةً تلو الأخرى والجفنين آخر ستار أعلن نهاية اليوم.

نجيّـــة

وحدها جلستْ تُلملم الشوق وتبعثره وكأنها تبحث فيه عن صورة في القلب لا تجد لها شبهًا..

تنثر حروفًا في الفضاء وتناديها كي تعود.. تنفث حنينًا واشتياقًا جذوته لا تهدأ أو تموت.

على دقات القلب تحصي من فارق ولم يعُد، وعلى رفّة الجفن تمحو ما تبقىٰ من وعود..

حبي الأول، معشوقتي، وأول يدٍ تلمسها شفتاي، وأول وجنةٍ أُلقي عليها محبتي..

باسقةٌ كنخلةٍ في عنان السماء شامخةٌ ترفع رأسها.. لم تعرف يومًا ذلّ الحاجة أو الخضوع لبشر..

عيناها الواسعتان تمتلآن بالكثير من الود المشوب بالخجل، حتى وفاة والدي لم أرها يومًا قابلته حين عودته من عمله دون هاتين الجوريتين تُشرقان على وجنتيها، ولمعةٌ بالعيون تفضح بشائر الشوق..

- آه يا أمي، لم أتخيّل يومًا أن أفتح عينيّ على أحدٍ سواكِ، أو أن أفتقد صوتك يشدو في أذني كلّ الصباح.

كانت أمي جميلة الجميلات كما أطلقن عليها نساء العائلة، فقد ورثت من والدتها الجمال الهادئ الناعم الذي يتسلل إلى عينيك ذائبًا في شعاع النهار، وتحت ضوء القمر في حديقة جدي كان لها سحرٌ آخر..

نجيّة أمي البنت الكُبرى المدللة، ولكن مع كل هذا الدلال الذي نالته كانت سيدة منزل ماهرة علمتها جدتي كل مهارات الطبخ والأشغال اليدوية وقبل كل ذلك علمتها كيف تكون سيدة قصرٍ لا تقل عن أميرات السنوات الماضية، ربما لم ترَهُن أمي، لكن جدتي ليلى حضرت هذه الفترة بكل تفاصيلها وتعلمت الكثير على يد والدتها ذات الأصول التركية.

كانت جدتي ليلى مثالًا للزوجة والأم المصرية الأصيلة التي تحفظ بيتها وأولادها وتُكِن كل الود والإحترام لزوجها، تعلمتْ القراءة والكتابة كمعظم فتيات جيلها ودرست فقط حتى المرحلة الإبتدائية بالإضافة لدروس البيانو واللغة الفرنسية على يد معلمةٍ كانت تأتيها بالمنزل ككل بنات الأسر الراقية..

فسهّل عليها ذلك متابعة الأبناء في دراستهم وأيضًا قراءة مقالات وكتب جدي..

لكن هواية جدتي الأولى والأهم كانت أشغال الإبرة وفنون التطريز ويظهر ذلك منذ دخولك لمنزل جدي، فتجد كل ركنٍ قد تزيّن بقطعةٍ من مشغولاتها..

وكانت كل بنات العائلة يزُرنها باستمرار لتلقنهن هذه الفنون.

وكان لنجيّة ابنتها الكبرى النصيب الأكبر منها، أما نجوى ابنتها الصغرى فلم تكن تستهويها هذه الفنون، كانت تمسك بعصا صغيرة وتُنظم فتيات العائلة الصغار في صف وتعلمهن الحروف والأرقام فكان الكل يتنبأ لها بأن تصبح مُدرسةً ماهرة..

أتمت والدتي نجيّة دراستها الجامعية وتخرجت من كليّة الآداب، كانت محبّة للقراءة، تقضي الساعات بصحبة كتاب أو رواية..

وكانت تستهويها أشعار جبران وكتابات ميّ زيادة، وعباس العقاد بالإضافة لشكسبير وموليير..

كانت تشبه والدتها في كثيرٍ من العادات، فيما عدا شغفها بالقراءة بجانب نافذة غرفتها بينما تستمتع بمنظر الزهور بحديقتها وتستمع لتغاريد الكروان، على عكس والدتها التي كانت تعشق صوت عبدالوهاب وتقضي أوقاتها بجانب الجرامافون وأسطوانات عبدالوهاب ترزح في دوراتها تلتهم الدقائق والساعات ويداها تعكفان على قطع القماش فتحيلها للوحات من الجمال والفن.

كان لنجيّة الكثير من الحظ في اسمها، حين حاول القدر مشاغبتها، ولكنها كانت الناجية..

في الحــرب

خلف الزوايا البعيدة في صدرك تختبئ بعض الأمنيات حائرة بلا ملاذ..

حين تحاول أن ترفع عنها الستار فتهجرك، وتشرد بعيدًا عن ناظريك..

أخمدتُ أنينها لسنواتٍ طوال، أُخبرها أنه مُحال، ولكنها ترجو الأمل أن يُطِلّ هنا ولو لثوان..

ومازلنا ننتظر عبورًا آمنًا، أو بقاءً بسلام..

وكلاهما أبعد من الأحلام..

راضي الشرقاوي..

خالي الثاني، وُلد قبل الثورة بعدة سنوات، وأقصد هنا ثورة ١٩٥٢، فلنصف قرنٍ من الزمان لم نكن نعرف سوى هذه الثورة، بعد ثورة سعد زغلول ضد الإنجليز سنة ١٩١٩.

كان خالي راضي على عكس أخيه فكان يعشق الرياضيات، والكيمياء معًا، متفوقًا في دراسته وبالفعل إلتحق بكلية الهندسة..

وتخصص في قسم البترول، حيث اكتُشف البترول في العديد من الدول العربية وأصبح هذا التخصص من التخصصات المطلوبة في سوق العمل..

تخرج خالي راضي عام ١٩٦٨، كانت مصر كلها في هذا الوقت تتشح بالسواد بعد هزيمة ٦٧ التي تجرّع سُمّها كل الشعب المصري، حتى لاحقت لفحة الهزيمة هؤلاء الشباب الذين آثروا الفرار خارج الوطن وهاجروا إلى أنحاء متفرقة من الكرة الأرضية..

وما إن عمّت الفرحة المشوبة بالترقب لنجاح خالي حتى فرضت مساحات القلق هيمنتها على الأحداث ووصل خطاب التكليف بالخدمة العسكرية..

طواعيةً سلم خالي راضي نفسه لقسم الشرطة، فكيف يتأخر عن خدمة أمه الكبرى؟

ولكن لم تكن الخدمة في هذه الفترة العصيبة مجرد تكليف مؤقت، بل كانت حربًا مفتوحة وساحة استنزاف لقوى العدو..

كانت زيارات خالي راضي الخاطفة لعائلته تزيد لهيب المسافات وتشعل نيران الهلع والقلق في نفوسهم.

مجرد ساعات يقضيها بينهم تجدد الآلام وتذر الملح الأجاج على الجراح المفتوحة عن بكرة أبيها..

فها هو خالي سامح يقبع على مقعده، محاطًا بسياج العيون التي أصبح يشمئز من نظرات الشفقة فيها، ويتلوى قلب والدتهما حسرةً، كيف يكون حالها إذا ما غادرها راضي ذات مرة، ولم يعد بعدها؟

استمرت هذه الفترة لسنوات حتى حانت ساعة الصفر، وبدأت الحرب المُعلنة..

والتصقت كل الآذان بأجهزة المذياع وتربصت العيون لشاشات التلفاز..

الجميع مشدوهون لا يصدقون ما يحدث، تخاف الأرواح أن تصدق أو تفرح خوفًا من هزيمة مبطنة تتلوها، كما حدث من قبل في عام ٦٧.

ولكن هذه المرة أخلفت كل الظنون وتحققت الآمال.

تلاحقت الهزائم بالجيش الإسرائيلي بعدما اتحد العرب للمرة الأولى ضد عدوهم..

حين قامت سورية بضرب الجيش الإسرائيلي في الجولان في نفس الوقت الذي هاجمت فيه القوات المصرية جيش إسرائيل في سيناء.

كما قادت السعودية بقية الدول المنتجة للبترول بحظر تصدير النفط العربي الى أمريكا وهولندا وكل الدول الداعمة لاسرائيل.

الكويت، ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، العراق، والإمارات كلٌّ ساهم بطريقته.

هناك على أرض سيناء تعارفا والدي وخالي راضي:

- **راضي الشرقاوي..**
- **وأنا حامد الأسواني..**

ضحك الإثنان وهللا بصوتٍ واحد: أهلًا يا دفعة.

من الدار للنار

خطوطٌ حائرة، وحروبٌ رحاها دائرة في صدرك، نبضك المحترق خلف آخر سطر، هل هذا ما كانت تشتهيه الأمنيات في قلب حرفك؟

تثورُ وتنتفضُ النظرةُ في عينيك ويتّسعُ وريدُ صبرك لِيسعَ العالم وما ضاق به ذَرعه..

وماذا بعد؟

خالي الوفاض يرتدُّ صمتك ليتوالد عنه شلال صمت، وتضيق السطور في عينيك حتى تحصرك في زاويةٍ بلا حاشيةٍ أو طرف..

تختفي بين ذرات أفكارك، وتتلاشى أنفاس الأمل في خيالاتك..

دمعةٌ باقية على آخر سطر، توجز رحلتك في نصف حرفٍ أو أقل..

تعود لِظلك لتسأله: كيف لي أن أقرأه؟ دون نقاطٍ دون إسم يحمله..

فيهمس إليك مُشفقاً: لا تبحث خلف السطور، فماضيها مؤلمٌ لن يسرّك كشفه..

هكذا كان حال والدي..

كان والدي حامد الإبن الأصغر لأسرةٍ مكونةٍ من سبعةِ إخوة ذكور، في جنوب مصر جميعهم رابضون..

في أسوان محفوفًا بالكثير من التراث الأثري الذي خلفه الأجداد القدامى من معابد فيلة ومعبد أبو سمبل..

هكذا أخبرني عن طفولته الأولى..

توفي والده صغيرًا حتى أنه لا يذكره "كان وقتها في السادسة من عمره " وقبل وفاة والده أوصى إخوته أن يتركوه ينال من التعليم ما يشاء، حيث كانت الظروف في أوقات صغرهم قاسية والذهاب إلى أقرب مدرسةٍ يُشكّل رحلة شاقة، وعوضًا عن ذلك كانوا يتعلمون القراءة والكتابة بالإضافة لحفظ القرآن في الكتاتيب المنتشرة في الريف في ذلك الوقت..

وكانوا كغيرهم من الشباب في هذه المناطق يُجيدون التعامل مع السياح بالإضافة لاستزراع أراضيهم الخصبة التي يمنحها النيل مياهه النقية فتجود عليهم بأجود الثمار..

تعلّم والدي حتى وصل لمرحلة دخول الجامعة فمنحه أخاه الأكبر الشيخ صالح مبلغًا من المال يكفيه طوال سنوات دراسته، فلم يكن السفر من القاهرة إلى بلاد النوبة بهذه البساطة واليسر الذي نعيشه اليوم..

وبعدها ودعه الشيخ صالح قائلًا:

- يا حامد سوف تنتقل إلى بلادٍ بعيدة لا ندري عنها الكثير، انتبه لنفسك ولا تنسَ واجبك نحو ربك، ثم واجبك نحو وطنك.. كُن رجلًا ولا تنتظر من أحد أن يرد لك معروفًا صنعته، فما تصنعه اليوم سوف يأتيك غدًا.. وإن لم ترَه بعينيك فسوف تراه في أهلك..

- لا تقلق إن شاء الله سوف أكون على قدر المسؤولية..

كان هذا رد والدي بينما يقبّل يد أخيه ويودعه.

لم يفهم والدي كل كلام أخيه حينها وهوالذي كان بمثابة الوالد له، ولكنه كان دائمًا يتذكر هذه الكلمات حتى آخر عمره.

انتقل والدي إلى القاهرة ودرس بكلية التجارة حتى نال شهادة البكالوريوس في المحاسبة وفور تخرجه التحق بالخدمة العسكرية وكان حظه على أرض سيناء بصحبة خالي راضي..

وبعد الحرب تم تعيين المحاربين في وظائف مناسبة لهم فعمل والدي في إحدى مستشفيات وزارة الصحة محاسبًا واستقر في القاهرة خاصةً بعدما عرف بوفاة والدته والشيخ صالح، وانقطاع أخبار باقي إخوته.

أما خالي راضي فقد كان هناك عرضٌ آخر ينتظره:

- قطعةُ أرض في العريش وبيتٌ صغير هناك، يمكنك الحصول عليهم بشروط بسيطة ومُيسرة بداية مشروعات تعمير سيناء..

هكذا أخبره الموظف..

- كيف؟

كيف أكون مهندس بترول ويصبح مصيري هكذا؟

مجرد مزارع يحارب أشباح الذكريات المؤلمة ويزيل آثار الدماء المراقة على الرمال؟

غضب خالي راضي ولم يرضَ هذه المرة بما قسمته له الأقدار، أو بمعنى أدق ما جادت به يد الأسياد..

- لا تغضب، فمن منّا عمِل في تخصصه!

كان ذلك رد الجميع من حوله..

كانت آبار البترول العراقية آنذاك تضج برصيدها المعتّق وتبحث عن جراحٍ بيد جواهرجي يُقدّر قيمة المُنتج ويُدّر محصوله..

سافر خالي في منتصف السبعينات..

بعدما تمت خطبة والدتي لوالدي على يديه وبمباركته ومدح ووصف مواقف والدي التي تابعها عن كثبٍ في الحرب.. فهناك مكانان يُعرف

فيهما الرجال من أشباه الرجال؛ وقت الحرب وعند الصحبة في السفر وقد تحقق بينهما الإثنان..

بالإضافة إلى إعجاب جدي بشخصية والدي وإصراره على تغيير حياته عن بقية أقرانه، فلولا إصراره على دخوله الجامعة لكان حتى الآن مجرد نوبي بسيط لم تتجاوز خطواته خارج حدود محافظته..

هذا بالإضافة لولع كلاهما بحزب الوفد ومواقفه..

الصلاةُ خيرٌ من النوم

سفر.. غربة.. رحلة حياة..

بدايتها شهقة ونهايتها شهقة، وما بينهما غمضة جفن مؤرَّق، تحرَّق بدموعٍ ذرفتها عيناه..

ماذا كان مُبتغاك؟

فرحة؟

ياله من ثمنٍ باهظٍ تبذله لتجني ابتسامة بين قِفار الصحارى وسط الأشواك!!

تدمى يداك حين تقطفها من بين ثنايا الصبّار، والصبر مازال درعاً ولا تدري لمتىٰ سيحتمل؟

كان صوت الشيخ مصطفى هو المشكاة التي تنقشع أمامها ظُلمة الذكريات، وتتبدد غيوم الماضي وهمومه، فنفتتح يومًا جديدًا على كلمات الآذان بصوته الرقيق.

ويبدو لك من بعيد أن همّه الأكبر هو لحيته الرقيقة وكيف تصبح كثيفة لينال مباركة شيخه الجليل، ولكن عن قُرب تكتشف الأكثر والأكثر.

لم تكن أيامنا كلها بائسة فقد أذابت شمس الصحراء الحارقة بعض الفواصل، واختلطت بعض الذكريات بيننا على حذر..

كان الشيخ مصطفى أقلُّنا حديثًا، وربما كان أقلّنا محاربة لأشباح الذكريات، فذاكرته معلقةٌ بالقرآن يردده في كل حين، ومع كل آية ينهمر سيل الدموع على وجنة أحدنا..

شابٌ في نهاية العشرينات، لا يتميز في الهيئة سوى برقّة في صوته كانت دائمًا مصدر إزعاجٍ له..

- مجرد اضطراب في بعض الهرمونات في فترة المراهقة كان السبب في رقة الصوت وعدم كثافة الشعر.

هكذا كان حديثه الذي وجهه لي في أحد الأيام حين علِم بدراستي السابقة، ثم أكمل حديثه:

- لو شرحت لهم فلن يفهموا شيئًا من حديثي، أما أنتَ يا أنس فربما درستَ هذه الحالة أو قرأت عنها من قبل.

فحاولتُ أن أخفف من حرجه وقلت له:

- لا عليك كل هذه أمور ظاهرية بسيطة ممكن علاجها، المهم أن الأمر اقتصر على ذلك.

فاحمرت وجنتاه خجلًا ورد قائلًا:

- آه طبعًا طبعًا.

بعد أن انتهى الشيخ مصطفى من دراسته بجامعة الأزهر، وخرج للحياة وجد نفسه بين سندان عنفوانه وطموحاته كشابٍ ومطرقة الظروف من حوله، فما كان منه سوى الهروب، وإيجاد مخرج..

- ماذا ستفعل حفنة جنيهات مقابل وظيفة إمام مسجد لشابٍ في مقتبل العمر؟

هل ستدفع مصاريف شبكةٍ ومهر؟ هل ستؤثث بيتًا؟

هكذا قال مصطفى بحسرةٍ وألم، ثم أكمل:

للأسف حين دخلنا لندرس في الأزهر كنا ننشد نيل الأجر والثواب من نشر دعوة الإسلام ودراسة العلوم الشرعية ولكن نحن لسنا أنبياء، نحن بشر نحتاج أن نجد ما يُقيم صلبنا ويعيننا على المعيشة الكريمة.

- ولكن هناك من ظهروا واشتهروا في وسائل الإعلام يا شيخ مصطفى..

- هؤلاء هم الصفوة يا أنس من استطاعوا الوصول إلى الشهرة، أصحاب الآراء المرنة المطاطة بحجة الوصول لعقول الشباب والتأثير عليهم، هؤلاء الذين يدسوا السم بالعسل ويتهاونوا في بعض الأوامر الدينية ويدّعون أنه تطور للخطاب الديني يقتضيه تغيّر الوقت.

وأما الآخرون الذين اختاروا الطريق الأسهل، وساروا على مبدأ كن مختلفًا تظهر؛ فاختاروا الفتاوى التي صدرت لمناسبة محددة واندثرت

من بعدها فأخرجوها من الصناديق المغلقة ليثيروا الفتنة بين الناس فيُعرفوا وتأتي بهم القنوات الفضائية لإثارة الجدل والحصول على مشاهدات أعلى.

مجرد عشرة أو حتى عشرات من آلاف وربما عشرات الآلاف ممن درسوا واجتهدوا ثم صُدموا بعد تخرجهم بوظائف بأجورٍ تافهة لا تفي باحتاجات فرد.

تفقدتُ نادر في كل الأركان فلم أجده، وبعد الصلاة خرجتُ ألتمس شعاعًا تسرب من بين الغيوم حاول أن يسبق هجوم الشمس على صفحة الرمال، كان نادر يقف هناك في هذه الساحة الترابية المواجهة لمسكننا، يحاول أن يُبارز هذا الشعاع فيرى من منهما سينتصر، حين وصلتُ إليه وجدتُ دمعةً هاربة من بين جفنيه..

- ليس الآن.

يكفيني ما أنا فيه..

هكذا كان همسي لنفسي، ثم بادرته بالسؤال:

- ماذا حدث يا نادر؟ هل هناك أخبار؟

- لا شيئ.

رد بلسانه دون أن يرفع عينيه.

لم تترك كلماته أي صدى لها في نفسي، ولسان حالي يقول: كلا..

همسًا حادثته:

هيّا بنا الشمس ستحرقنا لو انتظرنا قليلًا هنا.-

لم ينتبه لما قلته..

مازال مُعلِقًا بصره بالرمال..

وبدأ يحكي في مثل هذا اليوم كان والداه في طريقهما لعمل جلسة العلاج الخاصة بوالدته، ولكن أبىٰ سائق سيارة نقلٍ ثقيل أن يتركهما ليصلا، فما كان منه سوى أنه انحرف بسيارته، فانقلبت السيارة التي كانت تُقلهما، وفقدهما دفعةً واحدة.

ثم صرخ باكيًا:

- **ليتني كنتُ معهم.**
- **إهدأ يا نادر هذا قضاء الله وقدره.**

قلتها وأنا أخفي دمعي حين ذكرتني كلماته بوالدي، وكانت هذه نفس أمنيتي حين فقدته لو مِتُ معه!

في هذه الأثناء نادىٰ منير بصوته الأجش:

- **الإفطار يا بشر لا وقت لدينا، نصف ساعة وتصل الحافلة لتنقلنا لموقع العمل..**

منير هذا الرجل اليافع في منتصف الثلاثينات، يبدو لمن ينظر إلى هذه الغرفة من الخارج كأنه والدنا جميعًا..

برغم نحول جسده، ووجه الذي لا يترك في ذاكرتك إنطباعًا مميزًا سوى حنان القلب وعطفه، ومثله الكثير من المصريين..

يهتم لأمر الكل، ولا يتحدث عن نفسه إلا قليلًا، منذ أول يومٍ لنا هنا يتكوم على أحد السريرين لا ندري عنه سوى القليل.

وانطلق بنا سائق الحافلة لوجهةٍ جديدة ومهمةٍ جديدة..

مهمةٌ جديدة

القطرات الهاربة من قدرها، تبحثُ عن وطن، تتسابق في الفرار من شاطئٍ لآخر..

تُعانق أجنحة خيالاتها.. ولأذيال الأمل المهزوم في أرواحها تتنكّر..

تبحثُ في كل غيمةٍ عابرة عن مكان.. عن صورةٍ مرسومةٍ لشاطئ أمان إليه تفر..

وتهجر بساطها الممدود على مرأىٰ البصر.. طوفان ذكرياتٍ جاهدًا يجذبها آلاف المرات.

عبثًا يحاول فيرتطم رأسه بالفشل ودون نظرة وداعٍ تضمد بها جراحه تتركه في يأسه يحتضر..

شق بنا سائق الحافلة الصغيرة ممرًا ملتويًا في عمق جبين الصحراء، وكأنه يرسم تجاعيد الزمن على جلدِ عجوزٍ تنتظر نهاية الأجل..

موقعٌ جديد ننضم فيه لمجموعاتٍ أخرى، نقوم بأعمال اللحام حيث نصل أسطواناتٍ ضخمة لنقيم بها صُلبَ أنبوبٍ عملاق يمتد في شرايين الأرض ليسحب منها هذا السائل الأسود النفط، أو كما يطلقون عليه الذهب الأسود..

وها أنا أُحقق جزءًا من حلمك يا أبي، ولكن مع فارقٍ بسيط، فالبشر والأرض يتشابهان في الأعماق، سائلٌ ساخنٌ يتدفق في الشرايين، يصل جميع الأجزاء، نُريقه كثيرًا ولا ندري السبب.

وها أنا أستبدل معطفي الأبيض بهذه السترة الزرقاء، لا يهم فقد عرفتُ أن الأزرق يبعث على الراحة والإطمئنان..

- آه يا أنس، كم أتمنى في كل شهر وأنا أُعد كشوف رواتب الأطباء أن أرى إسمك وإسم رقية، أدعو الله أن يمد بعمري حتى هذه اللحظة.

تدمع عيناي بينما صوتُ والدي مازال يهمس في أذنيّ، فينبهني نادر ويوكزني:

- ماذا بك؟

- لا شيئ يا نادر، يبدو أن الضوء الشديد أجهد عينيّ، أو أن بعض الشرر المتطاير أصابهما

غيرُ مسموحٍ بالحديث أثناء العمل، ننجز مهمتنا وعند سماع صوت الجرس يخترق ضجيج الآلات يترك كلٌّ منا ما يمسكه، ويرحل..

في رحلة الرجوع إستعمرتُ المقعد المجاور للسائق حين انتبهتُ لملامحه العربية، وانتهكتُ خلوة الصمت بهدير الهواء فبادرته بسؤال:

هل يوجد هنا كابينة تليفون، أو أي مكان يتيح الإتصال الدولي؟-

- ماكو..

قالها باقتضاب ثم سكت.

صحارى شاسعة، وعُربان مبعثرةٌ خطواتهم، رُحّل يبحثون في جوف الوديان عن أمل، واحةٌ إختزنت بقايا سيلٍ كان هنا ينهمر، ورحل..

هكذا كانت فكرتي عن هذه البلدان، وهالني منظر الأبنية التي تُزاحم السحاب في ساحات السماء، يبدو أنني جئتُ من عالمٍ آخر.

ويأتي الليل وما أطوله عليك وأنت وحدك دون أحبّتك أو أهلك، كل ما يواسيك أنفاسك التي احتضنت أنفاسهم يومًا، وأحلامك اليتيمة..

أحلامي ليست كثيرة هي فقط حُلم وحيد يلازمني منذ عرفت معنى إسمي..

لماذا يا أبي اخترتَ لي هذا الإسم؟

سعـــــــد

على أطراف حُلمك الممتد، مُحاصرٌ أنت من كل الجوانب، ومكبّل بصمتك الطويل..

تهمس في أحضان الغيوم: مازلتُ أحلم بوطن، فتزجرك الريح: وهل ترضى بغيري بديلا؟

أعشق الأمل.. وأحلامي القليلة حفنةٌ من صبرٍ، وكثيرٌ من جنون، دون أن أجد لها سبيلا..

صفحةٌ باهتة دون ألوان..

وأنامل الروح بريشتها تنثر الحنان بين الثنايا بساطًا يمتد دون عنوان..

لو كانت الأحزان إنسانًا لنفيناه إلى أبعد مكان..

مع مرور الأيام اعتدتُ حرارة المقعد الأمامي بجانب السائق في حافلته المتواضعة التي تُقلنا من وإلى موقع العمل..

كان سعد قليل الحديث، كانت لهجته البدوية عصيّة الفهم بمفرداتها المحلية التي لم أعتدها، مما كان يستدعي منه تكرار الكلمات وأحيانًا إعادة صياغتها بعدة طرق لتقريب المعنى.

كان سعد من أسرة ذات أصول عراقية رُحّل، ممن امتهنوا عمل الدليل، أو المرشد، فقديمًا لم تكن هناك طرقًا ممهدة ولا خرائط ترشدك في طرقات الصحراء المتشابهة..

ولكن أهل البادية اعتادوا الإستدلال على الطرقات بمواضع النجوم في السماء..

لم يعرف هؤلاء البدو حياة الحضر، ولم يستسيغوا تعقيداتها فيما بعد، فظلت كل عقودهم تعتمد على وعود الرجال التي كانت بألف عقد مكتوب وموثق..

حتى في الزواج والمواليد لا يوجد توثيق، فلمَ وكلّها أرض الله عليها نسعىٰ؟!

بعد تعبيد الطرقات واستخدام الأجهزة الحديثة لم يعد هناك حاجة للدليل لشق طريقٍ في قلب الصحراء، ولهذا اتجه معظمهم للعمل بمهن أخرى مثل قيادة الشاحنات لنقل البضائع عبر الحدود، أو يُقل بعض العمال في الحافلات حتى مواقع العمل في التنقيب والبناء..

سعد شاب بسيط، تجاوز عمره عمري بعدة سنوات، ولكنه يخفي تحت وشاحه همومًا تجثم على صدره ليس لها حد..

(الصحراء مصنع الرجال)

هكذا كان يقول دائمًا، خصوصًا بعدما سألته في إحدى المرات:

كيف تكون سعدًا ولم تنل من إسمك شيئًا؟-

فرد ردًّا أعجزني لعدة أيام:

- لماذا نبحث عن السعادة ونترك ما بأيدينا لننال شيئًا لم نرَهُ من قبل؟

فربما ما نحن عليه الآن لم ينله غيرنا سوى بالأحلام..

- الحمد لله تزيل كل مافي الروحِ من عطب، وتُحيل الألم إلى أمل

- الحمد لله، فكل قضائه خير

تمامًا كما كانت تقول والدتي.

الـــــغزو

الرقصة الأخيرة على أوجاع الماضي البعيد، ومِن بعدها تذوب كل الوعود.

يتلاشى النبض المهدور، في ضباب الوهم الممتد لا تعوقه حدود..

وتبدو من بعيد فرحة ضئيلة تقترب وتكبر.

افتح لها أبواب القلب.. ولا تنتظر..

السنوات التي تزاحمت في صفوف العرض على الأحزان..

جاءها الدور لتنشقّ، وتمضي في دروب السعادة بأمان..

كانت بعض كلمات سعد مازالت تتردد في أروقة الذاكرة، لا أتذكر متى سمعتها، لكنني تأكدت من أنها مرت بسراديب الذاكرة من قبل..

في إحدى الليالي وقد زاد زئير المكيف حتى التقط خيط النوم من عينيّ وألقاه في بئر، تذكرتُ متى سمعت هذه الكلمات وتحديدًا كلمة (ماكو)..

لم يكن سفر خالي راضي للعراق حُلمًا سعى إليه، ولكنه كان هروبًا من واقعٍ مُستبد، فبعد معاناة لأكثر من ست سنوات قضاها في حرب

الإستنزاف ثم حرب أكتوبر، وبعد عودته لحياته المدنية لم يجد أحدًا من أقرانه، جميعهم سبقوه بدرجات، بينما هو مازال على أولى خطوات سلم الحياة العملية، بل لم تطؤه قدماه بعد..

كان هروبًا من كل شيئ يذكّره بهذه الحقبة من الدماء والأشلاء المبعثرة..

قرأتُ فيما بعد أن المحاربين وخصوصًا من قضوا أوقاتًا طويلة في الحروب بعيدًا عن أهلهم يحتاجون لبرامج تأهيلية وجلسات نفسية تُعيد توازنهم النفسي وقدرتهم على التواصل مع البشر ومواصلة حياتهم بعد ما تعرضوا له من ضغطٍ نفسي وإزالة ما ترسب في ذاكرتهم من صور الجثث والأشلاء وأنهار الدماء.

ربما كان ذلك ما يحتاجه الجنود العراقيون عند عودتهم لديارهم بعد حربهم مع إيران..

لا أتذكر زيارات خالى راضي التي تخللت فترة سفره إلى العراق، فقد كنتُ صغيرًا وكانت زياراته المتفرقة قصيرة لا تطبع في الذاكرة أثرا.

وفي إحدى الزيارات حضر لينال مباركة والديه والعائلة على زواجه من فتاةٍ عراقية كانت أختًا لأحد أصدقائه، ثم انقطعت زياراته لفترة.

في صباح يومٍ حار من أيام آب/ أغسطس استيقظ الجميع على خبرٍ مفزع، دخول القوات العراقية دولة الكويت وإعلانها محافظةً عراقية!!!

كيف ذلك؟

بالأمس القريب كانت جميع الدول العربية تساند العراق في حربها ضد إيران، حتى انتهت الحرب في عام ١٩٨٨، ولكن أن تعتدي على دولةٍ عربيةٍ شقيقة لها؛ فهذا لا يُحتمل..

غضب خالي كثيرًا وأخبر زوجته بقراره النهائي باصطحابها وابنتهما للعودة لمصر، فهو لا يطيقُ البقاء على هذه الأرض، ولا يمكنه أن يستوعب ما حدث من غدر وخيانة لكل حقوق الجيرة والأخوة وهدم لكل المواثيق والعهود.

وفي المساء زاره صديقه المقرب المهندس عمر، وأخبره أن حسين أخو زوجته عزم إبلاغ حزب البعث بما قاله راضي، وإذا ما حدث ذلك بالفعل فسوف يختفي راضي من على وجه الأرض ويكون واحدًا من نزلاء الكهوف تحت الأرض ولن يُرى له أثر بعد اليوم وسوف يكون زملاؤه في العمل شهودًا عليه لأنه عبّر عن رأيه أمامهم وهاجم حزب البعث.

صاح خالي راضي:

- **والحل؟**

فطمأنه صديقه عمر قائلًا:

- **سوف آخذك الآن لأحد الأصدقاء يُقلّك في سيارته حتى حدود الأردن ومنها تعود إلى مصر..**

ففزع خالي مقاطعًا حديث صديقه:

- **وزوجتي وابنتي يا عمر كيف أتركهم هنا وحدهم؟**

- **لا تخف يا راضي ما إن تهدأ الأوضاع سوف يتبعونك، ومن المؤكد أن حسين سوف يكون حريصًا على حماية أخته وابنتها أكثر من أي أحد.**

كان خالي راضي في حالة ذعر وهلع ليس خوفًا على نفسه بل على زوجته وإبنته، فقد سمع كثيرًا عن بطش حزب البعث ومعاملتهم الوحشية لمن تُسوّل له نفسه الإعتراض على أفعالهم.

وماضيهم الأسود معروف وأقربه ما حدث في حلبجة قبل عامين.

حلبجة هذه المدينة الكردية على الحدود الشمالية الشرقية للعراق والتي اتهمها صدام بمؤازرة الجيش الإيراني، وفي نهاية حربه مع إيران وتحديدًا في مارس من عام 1988 قام جنود صدام بقصف المدينة بالغازات السامة، فقتلوا أكثر من خمسة آلاف معظمهم من النساء والأطفال الأكراد وإصابة أكثر من عشرة آلاف توفي معظمهم في العام التالي بسبب مضاعفات القصف.

كل ذلك قام به بدمٍ بارد دون أدنى إحساسٍ بالذنب. هكذا اعتاد صدام أن يتعامل مع خصومه كلما شعر بالهزيمةً، فيأبي أن ينسحب خاسرًا مهزومًا، تمامًا مثلما فعل في دولة الكويت بعدما تكاتفت الجيوش

العربية مع الجيش الأمريكي واستطاعت هزيمة جيشه وطرده من دولة الكويت؛ فأبى أن يتركها دون أن يعيث فيها فسادًا فأشعل حقول النفط كي لا يتركها لأهلها ليستفيدوا منها، وظنّ أنهم لن يتمكنوا من إخمادها أبدًا، ولكن خابت ظنونه، كما خابت كل مخططاته.

وهكذا عاد خالي راضي، وحيدًا بلا زوجة ولا أولاد، حتى مدخراته لم يستطع أخذها معه..

ومرت الشهور ولا أحد يرد على إتصالاته، حتى جاءه محامٍ ذات يوم وأجبره على توقيع أوراق الطلاق، وإلا رجال الحزب سوفً يعتقلون زوجته، ويقتلون ابنته!

كنتُ صغيرًا وقت الغزو، بالكاد أتابع أحاديث جدي ووالدي وخالي سامح..

الجميع كانوا مصدومين، ولكن خالي راضي آثر العزلة لفترةٍ بعد عودته وكان يتجنب الحديث في هذا الموضوع.

الطرقات المرسومة سلفًا ، والخطوات التي نحسبها محسومة .. كلّها قابلةٌ للتعديل ..

إذا أخطأتَ التقدير يومًا، فالغد مازال يخبرك أنه ممكن وليس مستحيلا..

أن تعود للنقطة الأولى وتبدأ مسارًا جديدًا فأحلامك ملكك وحدك لا ترضَ بغيرها بديلا..

في مهب الذكريـــات

حين تقف وحيدًا يأكلك جوعك بين أطيافٍ ماعادت تُدهش خيالاتك..

تُحصي خيباتك، وتُعدِد إخفاقاتك وانكساراتك بعد كل اجتياحٍ لهم..

مرّت أيامك بسلامٍ أو هكذا توهمت، لا ظل يحميك اليوم من لفحة غيابهم وظمئك لحروفهم.

اليوم الذي يمر دون أن تُقدّم لذكراهم روحك قربانًا حتمًا هو يومٌ مفقود..

كان لكل ركنٍ في هذه الغرفة المُعتقة الأشجان مذاقٌ خاص، ونكهةٌ مميزة..

منير، هذا الشاب الذي غرق في منتصف الثلاثينات بحلمٍ مهترىء على صفحة الزمان بسطه ولم يجد له مكانًا يحتمي خلفه..

ترك منير زوجته أحلام وحيدة تصارع العيون بسلاحٍ واهٍ لا يدرأ عنها نظرات اللومِ والشك.. خمسُ سنواتٍ مرت منذ زواجهما، ونظرات العيون تلتهمها إلتهامًا كلما التقى بإحداهن، وعيناها تتجولان، تستبيحان حُرمة جسدها ربما لاحظت عليه أي بادرةِ تغيّر تلوح بقدوم ولي العهد..

رحلةٌ مضنية قضياها لهثًا خلف قوائم تعج بأسماء الأطباء، من عيادةٍ لمستشفى، لا سبب يُذكر.

كل الأطباء اتفقوا على رأي واحد:

- **لا يوجد أي سبب لتأخر الحمل**

سادت غيوم الشك والغضب أجواء عشهما الصغير، فنصحه أحد الأصدقاء المقربين بالذهاب لأحد الأطباء ذات يوم وبعد عدة فحوصات، تلك التي أصبحت مألوفة بالنسبة له ولأحلام، قرر الطبيب أن الحل الوحيد هو طفل الأنابيب..

في البداية ثارت أحلام ورفضت ذلك جملةً وتفصيلًا فقد كلّت وملّت من كل ما تعرضت له من فحوصات..

كل امرأة تتمنى أن يتوّج عشقها لزوجها بطفلٍ يكون ثمرة هذا الحب وترى فيه اختلاط ملامحهما معًا..

تنعقد على مُحيّاه ذكرىٰ لقاءٍ ذابت فيه الأرواح وحلّقت في ملكوتٍ آخر لا يصله معهما أحد..

فكيف يكون ذلك؟

طفل تلتئم ملامحه في أنبوب؟

ثم تُغرس فسيلته في رحمها وكأنها أرضٌ بور تُرقّع بالعشب!

كان أمرًا مفزعًا بالنسبة لها، أحلام الحالمة التي تسكن عالم الخيال معظم أوقاتها، تتهادى روحها على أفنان الشجر بين نفحات النسيم وحولها طيور الجنة تنتشر..

عادت زوجته أحلام من أحلامها الرومانسية على صفعة الواقع وما كانت تتعرض له من ضغوط خصوصًا في عملها، حيث كانت تعمل مُدرسة في مدرسة إبتدائية وكانت تداعب الأطفال وتهتم بهم، لتطفيء نيران شوقها لجنين يؤرق ركود أحشائها..

ولكن نظرات الأمهات كانت تحاصرها، تقتلع جذورها، تنفذ حتى آخر نقطة في داخلها لتبحث عن بذرة فلا تجد، فإما أن تصفعها بنظرة شفقة جارحة أو تغرس سهمًا مسمومًا في عنق أحلامها بكلماتٍ لا تصدر إلا من قلوبٍ قد أعمتها القسوة وسلبت لينها..

وافقت أحلام مضطرة هربًا من كل ذلك الألم، ولكن لم تكن موافقتها آخر العقبات، فقد كانت كُلفة هذه المغامرة أكثر من مائتي ألف جنيه!

- ماذا؟ كيف يا دكتور؟

أنا لو باعوني لن يصل ثمني مئتا ألف قرش.

فأجابه الطبيب مواسيًا:

- الأمر ليس بيدي، لو أنني احتجت لهذا الأمر سوف أدفع مثلك، هذه التكاليف موزعة على المستشفى والأجهزة

والأدوات المستخدمة والأطباء والتمريض، ليس لي في الأمر شيء.

فكر منير ثم عزم أمره وقدّم على إجازة من عمله بإحدى مدارس التعليم الفني، بعدما ساعده صديقه نفسه على الفوز بعقد عمل في الخليج دفع فيه آخر مبلغ ادخره لزوم متابعة الأطباء، حتى يستجمع التكاليف المطلوبة ويعود.

لم يكن لي أن أعرف كلّ هذه التفاصيل، لولا سؤال الأستاذ منير لي:

- هل أنتَ بالفعل طالب بكلية الطب؟

فأجبته:

- نعم، للأسف

أخبرني يا أنس هل درستَ شيئًا عن أطفال الأنابيب؟ وهل هذه العمليات تنجح دائمًا أم فيها نسبة فشل؟-

وفي حالة فشلها هل يعيدونها مرةً أخرى دون دفع مبالغ إضافية؟

كل شيء بيد الله يا أستاذ منير، مَن كتبَ له اللهُ الرزق سوف يناله ولو في سابع أرض.-

لا أدري كيف سرتْ هذه الكلمات على لساني، ومن أين جاءتني هذه الحكمة وأنا كنتُ حينها مُحملًا بالحِنق على هذا البئر الذي سقطتُ فيه حتى وصلت لسابع أرض..

كانت أيامًا صعبة على زوجته أحلام ولكن تحمّل الإثنان صعوبتها أملًا في سبيل تحقيق حلمهما قريبًا ليصبحا أبًا وأما، خاصةً بعدما طمأنها منير في إحدى مكالماته بعد حديثنا معًا:

اطمني يا أحلام، أنا سألت دكتور وأخبرني أن الموضوع سهل، ونجاحه مضمون إن شاء الله.-

وبعدها أخبرني أنه أراد أن يطمئنها، ولكن بالنسبة له هو لا يريد من الدنيا غيرها، حتى وإن لم يُنجبا سيظل بحبها مُعلقا..

إنتظارك للفجر لا يعني أن تستسلم للظلام ، مهما طال الحلم، لابد له من صباحٍ يسدل على تفاصيل الخيال الستار، لتبدأ أولى الخطوط في رسمه..

حان الآن وقت تحقيق الأحلام .

كانت زيارة سامي مطلع كل شهر تحمل لنا الكثير من النسائم المعطرة بعبق الذكريات ليس لفتات النقود التي تتبقى لنا، ولكن لذلك الهاتف المحمول الذي يعيد لنا الروح لدقائق معدودة بمكالمة الأهل.

أمي وحشتيني جدًا، كيف حالك وكيف حال أخواتي رقية ومنى؟-

إشتقتُ لكم جميعًا.

- لا تقلق علينا يا بني، نحن بخير..

اهتم بنفسك يا أنس، كلنا اشتقنا إليك.

ثم ينزوي منير في أحد الأركان ليحادث أحلام همسًا ثم ينهي حديثه:

- **حبيبتي كوني بخير، لا إله إلا الله..**

هذا الشوق الذي يستعمرك، يستهلك كل طاقاتك ويسلبك إرادتك، فتبدو كجذعٍ خاوٍ من الحياة..

شاهقٌ كبرجٍ من أسلاك، تغزوك الرياح من كل جانب.. تستبيح فراغك وتُخفق في إشغاله..

وحيدٌ أنت بلا أملٍ في النجاة.

بين أسراب اليأس

من رائحة الفراغ التي عبأت صدرك واخترقت كل حصون تجاويفك فأغرقتها، وأغلقت كل بوابات العبور في الطريق إلى نجاتك.. تستاءُ من يأسك الطيورُ وقد اجتازتْ كل اليابسة واخترقتْ سماءَ البحور، لتنعم بلقاءٍ دافئ، فأين بأسك من عزمها؟ وأين صبرك من عنادها؟

تتغافلُ عن أسرابِ النور أم على قلوبٍ أقفالها؟

اليأسُ والإنسحاب، ما أيسر دروبهما!

كانت المسافة بين اليأس والرجاء شاسعة، دروبها غير ممهدة، ولكنها غير مستحيلة العبور..

توطدت صداقتي بسعد، فبُحتُ له بأشواقي لأسرتي، وحال رفاقي، فما كان منه إلا أن فاجأنا ذات يومٍ بهاتفٍ محمول يحمل كل أشواقنا ويبثها إلى أحبتنا في مصر، كنا نقتصد في مصروفاتنا لنجمع ثمن كروت الشحن لنهاتف أسرنا ونطمئن عليهم دون مضايقات الريس سامي المزعجة وحصاره لنا.

وحين حكى سعد لوالدته عنّا كانت تجود علينا ببعض الوجبات الشهية وعلى رأسها البرياني المكون من الأرز المخلوط بالخضروات

وتعلوهم قطع الدجاج الشهية أو قطع اللحم، فتُنعش حاسة التذوق التي باتت مُعطلة بعد انقضاء الكثير من الوقت في تناول أطعمة لا نعرف لها إسمًا ولا وصفا عدى علب التونة التي كنا نتناولها في وجبة الظهيرة بموقع العمل..

وصارت أم سعد أمنا جميعًا نستشعر عطفها وحنوّها من عبق أطباقها التي ترسلها لنا.

ولكن لم يمهلنا القدر كثيرًا وذات صباح فوجئنا بسائقٍ آخر ينتظرنا، كانت ملامحه تعود لبلاد ما وراء النهر؛ كما قال الشيخ مصطفى أو ربما ظن.

ملامحٌ قاسية، بشرةٌ خبزتها الشمس وكادت أن تحرقها وصمتٌ أكل أطراف لسانه، لا ينبس ببنت شفه.

أذكر أنني فزعت حين رأيته أول مرة، فقد تذكرتُ جيوش التتار حين اكتسحت الجبال والوديان ومحت معالم بغداد في طريقها فتركت دجلة والفرات بالدم يفيضان، أما أوقف قطز فوران بركانهم ومحىٰ آثارهم؟

كيف عادوا ثانية؟

أم أنه رسول يأچوچ ومأچوچ ينذر بقدومهم؟

هكذا كانت أحلامي في الليلة الأولى بعد لقائنا بالسائق الجديد، بل كوابيس استغرقت ثوانٍ في الحلم وتسربت منه لتخنق واقعي، بعدما أفزع هذا السائق حُلمي وحرمني منه هذه الليلة..

شعرتُ للتو أنه كان أفضل أنيس لي بدلًا من الوقوع فريسةً سهلةً لحلم مختلف كل ليلة..

هدّأ منير من روعي وأخبرني أن هؤلاء السائقين والعمال يأتون من بلدان شرق ووسط آسيا حيث أن بلادهم تعاني من الفقر المدقع وزيادة متفاقمة في أعداد سكانها..

واستغرق ثانيةً مع أحلامه، يستحضرها طيفًا في طيّات أحلامه يُمنيها بطفلهما قريبًا..

كانت آخر مكالمة مع أمي طمأنتني فيها على أحوالهم، وهذه رقيّة قد أنهت شهادة الثانوية ودخلت كليّة الطب كما تمنى والدي لنا..

أخبرتُها أن تستعين بمعطفي وأدواتي التي اشتريتها لكليّة الطب فلا حاجة للإحتفاظ بهما وإلى متى ستُنتهك حقوقهما في الحريّة ويظلوا حبيسي الأدراج؟

دمعةٌ غير بريئة تسللت، فأعدمتُها..

رقيّة صغيرتي ستحقق حلمي بعد أن أُجهض وعمره سنة..

حاولتُ النوم ثانيةً لعل حلمي الصغير يعاود قرع أبواب ذاكرتي مرةً أخرى واستسلمتُ له طواعيةً هذه الليلة، متذكّرًا ما أخبرتني به العرافة في ذلك اليوم البعيد بجانب الأهرامات. (وها أنا أجلس على حافة اليمّ، لا أرى من الشاطئ الآخر سوى أبراج قلعة شامخة تقف وسط جزيرةٍ بعيدة وكأنها تتحدى الزمن، ثم..)

أيقظني صوت الشيخ مصطفى ينادي لصلاة الفجر، فقطع حلمي قبل أن أكمله.

أما كان من الممكن أن تمهلني بضع ثوانٍ يا شيخ مصطفى؟

قرأتُ في أحد الكتب أن العلماء وجدوا أن مُدّة الحلم تبلغ ست ثوانٍ فقط..

انشطار الروح بين أروقة الذكريات اختيار..

انصهار القلب وإعادة إعماره بعد انهياره وتدميره اختيار..

ذاكرتك المُعاد تنسيقها وابتسامتك المُراد تكوينها اختيار..

أحلامك الممكنة والأخرى التي اعتبرتها مستحيلة.. اختيار..

والناجح في الحياة من أعاد ترتيب أحلامه وأحسن الإختيار..

أول رمضان في الغُربة

غريبٌ بين أغراب.. تسرق منك الأيام ابتساماتك.. أو تتخلى عنها بإرادتك..

لا فرق بين هذه وتلك..

أسراب الحكايا والقصص تلتف لِتحكمَ الوثاق حول عنق الأحلام..

وأنت في عِداد الراحلين.. لا صوت ولا يقين..

يهديك إلى دروب النور وينتشلك من ظلمات الأيام..

ضبابٌ يخلفه ضباب.. دون أن ينقشع عن شمس الأمل..

أو يهديك حبات أمان.. تمطرك لتغسلك من عناء الأحزان..

ترفع للسماء عُنق الدعوات..

فيكسرك صمتك ويسلبك نماء الخطوات..

وبينما تنسرب الأيام من حولنا وينفرط عقدها دون أن تنال منه أناملنا سوى الأشواك، يأتي شهر الصيام، وكأنه لم يأتِ إلى هذه البقعة من الأرض..

- لا شيء يتغير..

هكذا كانت تنبيهات الريس سامي لنا حينما سألناه عن أوقات العمل في رمضان.

- وكيف نصلي العشاء والتراويح وأين؟

هكذا رد الشيخ مصطفى..

فرد عليه الريس سامي غاضبًا:

- لا شأن لهم بذلك..

هذه شركة أجنبية ليس لهم علاقة بهذه الأمور؟

مرت الأيام الأولى من رمضان لم نلتمس منها سوى الصيام دون بهجة الشوارع التي تحتضن الناس بفرحتهم، دون فرحة الأطفال بفوانيسهم وهم يجوبون الشوارع ليلًا.. دون أوقات الخشوع وقت صلاة التراويح وارتواء أرواحنا من فيض القرآن..

- ماذا سنفعل يا شيخ مصطفى؟

- سوف نصلي العشاء والتراويح في وقت الإستراحة في موقع العمل.

وبالفعل بعد عدة أيام اهتدينا لهذه الفكرة ورضخ الريس سامي لما فعلناه ولم يستطع منعنا..

وكان الشيخ مصطفى يؤمنا نحن ومجموعات أخرى تجمعت معنا للصلاة..

- **الله يفتح عليك يا شيخنا.**

كانت كلمات يرددها المصلين بعد انتهائنا من الصلاة كل يوم فكان ذلك داعمًا لنفسية الشيخ مصطفى وأعانه على استعادة ثقته في نفسه بعدما تذكر أنه بالأصل إمام مسجد..

افتقدتُ كثيرًا ليالي رمضان في بلادي، الأنوار التي تحيل سماءها إلى نهار، اجتماعنا وكل الأهل والأحبة على موائد الإفطار، أصوات المؤذنين على المنابر في التراويح، وقبل الفجر إبتهالات نصر الدين طوبار..

مآذنكِ يا قاهرة تصدح بالقرآن ليصل إلى أطراف الكون، أما كان ممكنًا أن ترسلي لنا بعض الصدى؟

هكذا كان حديث نفسي لنفسي بينما تتذكر لياليه الجميلة..

وتعود بي الذاكرة رغمًا عني لأيامٍ ولّت، أتذكر اجتماعاتنا في منزل جدي وطاولة الطعام العامرة بألذ وأشهى الأطباق وصوت جدي وهو يقول دعاء الإفطار ونحن نردد وراءه:

- **ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله.**

وتعود بي الذاكرة أبعد حين كنتُ صغيرًا بعناءٍ أستكمل صوم يومي وأحارب في الساعات الأخيرة بضراوة.. فهذه الروائح التي تخترق تجاويف أنفي لتفتك بمراكز الشم برأسي ويفقد عقلي سيطرته حينها على يديّ ولساني، فتنتهز أناملي الرقيقة أي فرصةٍ لتتسلل وتتلمس قطعة حلوى تلقيها بسرعة في تجويف فمي، وبعد الاطمئنان لعبورها مضيق حلقي أصرخ لأمي:

- إلحقي يا ماما نسيت وأكلت قطعة كنافة صغيرة.

فتبتسم وتقول في هدوء:

- اطمئن يا حبيبي، الملائكة هي اللي أكلتك.

فترد جدتي معاتبة لها:

- حرام عليكي يا نوجا.. الولد مازال صغيرًا دعيه يفطر.

- يتعلم يا ماما على قدرما يتحمل..

وكنتُ لا أنسى نصيب بسمة ابنة خالتي وشريكتي في لهو الطفولة فكما تُلقي أناملي في فمي، تُلقي في فمها النصيب الأكبر، فهي مازالت صغيرة ولا تصوم ولكنني أحب أن أطعمها بيدي كما كنتُ كثيرًا أفعل..

- ادعوا ربنا يفرجها علينا ويعيننا على مصاعب الدنيا.

كانت هذه كلمات الأستاذ منير، في إحدى الليالي بعد الصلاة نابعة من القلب، وكنتُ بالفعل أدعو له وللجميع بقلبٍ خاشع مطمئن لفرج الله، كما كان والدي يخبرني:

- **إذا أردتَ استجابة الله لدعواتك؛ ادعُها بقلبٍ خاشعٍ ومطمئن للإجابة.**

- **يا الله ليكن نصيبي من إسمي هو الأُنس والأُلفة، ولا أجد من صاحبه سوى نهاية رحلته..**

سمع همسي الشيخ مصطفى فسألني عمّا أقول، فأخبرته بقصة صاحب الإسم ورحلته، وأخبرته عن حلمي الذي يرافقني منامي في كل ليلة؛ فصرخ وقال:

- **أعوذ بالله.. أعوذ بالله.. هذه لعنة الفراعنة التي يتحدثون عنها.. واستطرد قائلًا:**

- **حين سمعتُ أن اسمك أنس ظننته على اسم الإمام أنس بن مالك..**

- **لا حول ولا قوة إلا بالله..**

هائمٌ في فضاء ملكوتك، يبحث عن نورٍ يبدد ظُلمة الروح والقلب..

منارة للنفوس الضالة؛ تُذيب جبال الحيرة وتزيل عن القلوب العطب..

غارقٌ أنا يا الله في حيرتى؛ فاجعل لي من ضيقي مخرجًا.

زلــــزال

تُصارع يومك، تستهلك كلّ تفاصيله، تروض الوحش الكامن بداخلك وتُجبره على المُضيّ في طريقٍ لا تعرف آخره.. تبدو من بعيد في أعين الهاربين من الزمن فارًا مثلهم، لكنك في الحقيقة تصارع أشباح الظلام تبدّل خطواتك بين الزحام، للأمام خطوة، وللخلف خطوتان..

مرّت الأيام ثِقالاً، لا تحمل سوى المزيد من الآلام.

وهنتْ مقاومتي، مع اختلاف الفصول في نفس اليوم، طقسٌ صحراوي يستهلكك ويمتص من داخلك الروح فلا يتركك إلا بعد آخر نفس..

استيقظتُ من غفوتي ذات ليلةٍ على زلزلة تجاويف روحي المُسهدة، وحمى شديدة نتيجة إصابتي بالأنفلونزا.

لم تكن رجفةً عادية، لم تُصبني هذه الهزة سوى مرة واحدة حين كنتُ في عمر الثانية عشر، حين التهبت لوزاتي وتضخمت..

كان يومًا دراسيًا ولكنني استيقظت وكأن قِدرًا يغلي في رأسي، وأحشائي ملتهبة تكاد تنفث دخان احتراقها..

أبت والدتي أن أذهب لمدرستي بهذه الحالة، ولو أنها أصرّت الذهاب لما خطوتُ خطوةً واحدة.

امتلأ رأسي بالذكريات، زلزالٌ يفوق كل تدريجات مقياس ريختر، زوابع الذكريات تفور وتثور وتلقي بأشلائها في كل مكان..

فوضى من هنا وهناك..

بعد عودة خالي راضي والتحاقه بالمنفى الإختياري الذي يقطنه جدي بعدما حوصر وتجاهلت الصحف نشر مقالاته حين اقترب من ثورة يوليو ٥٢ وفكّر في رصد سلبياتها وما آلت إليه أحوال المحروسة.

حتى كتبه التي ألّفها في القانون التي كانت منتشرة بالمكتبات، وكانت بمثابة مرجعٍ لدارسي القانون؛ سُحبت واختفت دون إنذار..

وأما جدتي التي لم تنل من حركة هدى شعراوي سوى رفع البُرقع (البيشة) من على وجهها وغير ذلك كان في نظرها هراء..

وخالي سامح الذي استشعر الضيق بعدما حوصرت حديقته بالكتل الخرسانية فحجبت عنه الشمس ونسيم الهواء..

حتى هذا المنفى ضنّ عليهم بمساحات الأمان والإحتجاب، فها هي أوامر الإزالة تنهال عليهم تباعًا، والملصقات التي غطت سور الحديقة حتى محت ملامحه، ملصقات شركات مقاولات وعمال هدم وإنذارات من المحكمة بتهديد المباني المجاورة..

كان كلّ ذلك بترتيب مسبق من أحد رجال الأعمال وأصحاب النفوذ الجدد على مجتمعنا، طمعًا في هذه الأرض ليضمها إلى مشروعه الكبير فيغيّر ملامح المنطقة ويبني عليها مركزًا تجاريًا ضخمًا يعلوه مجمع سكني فاخر، وكان جدّي عثرته الوحيدة.

وافق جدي وجدتي أخيرًا على الرحيل، ودفن ذكرياتهما في كل ركن، واصطحاب ما خفّ منها معهما إلى شقةٍ فاخرةٍ في أحد الأبراج الشاهقة التي يمتلكها نفس رجل الأعمال كانت مقابل بيت جدي القديم وحديقته بالإضافة إلى وعدٍ بشقة أخرى في المجمع المزمع إنشاؤه لعلها تطفئ حنينهما للمكان وذكرياتهما فيه.

إلى أحد الأبراج بمنطقة مصر الجديدة كانت رحلة والدتي مرتين كل أسبوع تذهب لأسرتها لتتفقد أحوالهم، حيث تدهورت صحة جدتي بعد هذا النزوح المفاجئ، حتى أبت روحها الإنتظار لتعود إلى موطنها القديم، وآثرت الإنتقال إلى رحاب العناية الإلهية ففضاؤها أوسع.

وبقي جدي وخالي سامح ومعهما بالجسد فقط خالي راضي، أما روحه فبقيت محلقةً في عالمٍ آخر..

في يوم الإثنين تذهب والدتي لشراء احتياجات جدي وأخوالي ثم تذهب لإعداد وجبات طعام تكفيهم عدة أيام، وتنظم شقتهم وتعيد ترتيبها، ويوم الجمعة نلتقي نحن وأسرة خالتي نجوى هناك.

ولكن في صباح هذا الإثنين تعبتُ وأصابتني الرجفة والتهبت عندي اللوزتان للمرة الأولى في حياتي وأنا لم أشْكُ منهما أبدا..

اتصلت والدتي بخالتي نجوى وطلبت منها الذهاب عوضًا عنها في ذلك اليوم، حيث كانت خالتي مسؤولة عن يوم الجمعة مع والدتي بسبب عملها كمدرسة، ولكنها في هذه الفترة كانت في إجازة حيث رُزقت أخيرًا بأخٍ لبسمة بعد طول انتظار، فلم تعترض وذهبت فورًا..

عادت أختي رقية من مدرستها وكان والدي في طريق العودة حين شاهد حالة ذعر واستنفار عمّت كل الشوارع..

كانت الحرارة المرتفعة تخض جسدي النحيل خضًا وكأنها تريد فصل كريات دمي عن مصله..

ارتعبت والدتي حين أحسّت برجفتي قد عمّت أرجاء شقتنا حتى سقطت مزهريات الورد والأوسمة التي نلتها من مدرستي على الأرض وعمت الفوضى على سلالم البناية فأخذتنا أمي تحت جناحيّ رحمتها وانكفأت فوقنا حتى إذا ما انهار السقف تلقته عنّا..

ثوانٍ مرت كدهر..

واندهش الجميع حين وجدوا أنفسهم خلال دقائق في الشوارع بملابس النوم والراحة حيث كانت عقارب الساعة مالبثت أن فارقت الثالثة عصرًا بخمس دقائق..

لم يتوقع أحد أن تكون الهزة شاملة، فسكان كل بناية ظنوا أن بنايتهم قد ضاقت بهم وبظلمهم لبعضهم البعض فأرادت أن تلفظهم..

هرع والدي لمسكننا بعدما استوعب الكارثة وصعد لشقتنا بالرغم من تحذيرات الجيران له فربما لم تتحمل أعمدة البناية هذه الحركة المفاجئة، وربما أصابها العطب..

حين وصل والدي وجد كومة لحمه متجلدة تحتمي ببعض آياتٍ قرآنية تتمتم بها والدتي لتحفظنا..

خرّ والدي باكيًا يحمد الله ويشكره ويغدقنا بسيلٍ من القبلات الممتزجة بالدموع والبسمات..

وبعد أن أفقنا من هذه الصدمة وعاد كلٌّ منا لرشده بعد تحليقه في ذلك البرزخ، هرعت والدتي لتتفقد أحوال جدي وأخوالي، فلم يُجب أحدٌ على الهاتف..

أكيد كل الإتصالات تعطلت.- هكذا قال والدي، ثم أخبرها أنه سوف يذهب بنفسه ليطمئن عليهم.. كومة ركام، هكذا كانت البناية التي لم تستقبل أسرة والدتي سوى عام واحد، ثم ضجت بذكرياتهم التي اصطحبوها معهم، وربما ضاقت بهم لافتقادهم لجدتي، لا أحد يعلم..

كأن والدتي اختزلت نصيبها من اسمها كله لتقبضه دفعةً واحدة، وكانت هي الوحيدة الناجية منهم على الرغم من أنه كان دورها للذهاب إليهم في ذلك اليوم.وفقدت جدي وخالي راضي وخالي سامحٍ وخالتي نجوى دفعةً واحدةً، وبقيت وحدها تتجرع الألم بعدها نقطةً نقطة..

برزخٌ رقيق

ثقبٌ صغيرٌ في جدار الوقت كافٍ لِتسلُّل شعاع الذكريات.. يخطفكَ لِزمانٍ مضى، تُحلّق فيه كَعصفور.. بين الأغصان تختفي، وخلف الأوراق تُخفي همسك وشوشةً تُسرّ بها فيسري الهمس على أطرافها ليصل مسامعهم ويتلقفه خفق القلوب.

مازالت هنا آثار أقدامهم، اكتنزتها ذراتُ التراب محفورةً على الدروب.. مازال صدى أصواتهم عالقًا خلف الأغصان، أُفتّش عن براعم نمت هنا غرستها يومًا أناملهم وبعض الأغصان التئمت جراحها حين ضمّدتها أيديهم..

جرحٌ أخيرٌ ينتظر، تركوه ورحلوا دونهم سيبقى مفتوحًا لا يندمل..

هكذا كان حال قلوبنا بعد رحيل عائلة والدتي دفعةً واحدةً، وكأنهم تعاهدوا ألا يرحلوا إلا معًا..

كان أغرب ما في الفاجعة التي عمت البلاد أن البنايات التي تجاوز عمرها الأربعين عامًا صمدت رابضةً في عرينها أمام هذا الزلزال، بينما تهاوت البنايات الحديثة التي غزت أطراف السحاب، وطالما تسامقت واختالت في غنج ودلال..

- كيف حدث ذلك؟

كانت الإجابة أبسط من أن ترهق ذهنك في البحث عنها.

كانت جيوش السوس تنخر عظام الجسد وكيانه، تستشري في كل اتجاه، تتلاعب بقوت البشر فتارةً تحتكرها وتارةً ترفع الأسعار فتزيد الفقير فقرًا وتكنز في جيوب الغني المزيد من الفضة والذهب..

عودة لعصر الجاهلية وصُرّة العملات الذهبية يصمّ رنينها آذانك فيلهيك عن كذبةٍ عابرة، وبريقها يخطف بصرك فتُمرر الفوضى من بين أصابعك بكل أريحية.

كان رجل الأعمال الذي اشترى منزل جدي، وصاحب الأبراج الشاهقة التي سقطت وانهارت بين يديّ الزلزال كبش فداءٍ اتفقت جماهير أصحاب السطوة والنفوذ أن يضحّوا به على أن يقضي عدة سنواتٍ بالسجن، ليخرج بعدها ويستمتع بأمواله المكدسة في البنوك المشبوهة خارج حدود الوطن بعيدًا عن العيون..

وضاعت فيلا جدي وذكرياتنا فيها كما ضاعت حياته وحياة أسرته بعدما فارقوها، دون ثمن..

مثلما ضاعت الكثير من الأرواح ضحايا سقوط هذه البنايات الشاهقة.

العشوائية الزاحفة تنسرب لتصنع شباكها العنكبوتية داخل حُشاشة المجتمع.

والهوة الفجة التي طفرت بين البشر، خندقٌ مظلم يفصل بين نقيضين، ظلامٌ مفجع وجوع مدقع، ومشاعر تبلدت..

وفي الجانب الآخر أضواءٌ مبهرة تعمي البصر والبصيرة، وتساوىٰ الطرفان في موت الضمير، كلاهما يحتاج للآخر يستقوى به، يستعمل المضيء المظلم ليطفيء به أي نجمٍ سطع دونه، ويقتبس المظلم جذوةً من المضيء علّها تروي ظمأه..

برزخٌ رقيق على حافة البركان كان الملجأ للبقية المتعففة، بقايا الطبقة المتوسطة التي ظلت صامدة قبل الثورة، وبعدها انهارت وتهاوت ومنها أسرتي..

ومازلتُ عن ثورة ٥٢ أحكي، وأعتبرها كغيري نقطةً فاصلة.

كان عبده أو كما كانوا ينادونه عبده الضبع مثالًا صارخًا لزمنٍ فرض نفسه بقوة على واقعنا المؤلم، أحد سكان البقعة المظلمة، العشوائية المتجسدة في شكل بشر، آلاتٌ تزحف على الأرض دون قلوب، أو ربما قلوبها معطلة وأما العقول فتُحكم بأجهزة التحكم عن بُعد(ريموت كنترول) بيد الكائنات المضيئة البراقة التي تراها على شاشات التلفاز كل يوم تلوك الحروف وتسترجعها لتروي خدعةً تلجم تفكيرك بها:

- كل ما يهمنا المواطن الكادح، وإيجاد الحلول لمشاكله

أزمات تُفتعل وكوارث تضرب بركنٍ أو بآخر ثم تأتي اليد العليا لتمنحك إشارة بعصاها السحرية، وتهبك الحل في ثوانٍ..

فتهرع أيها البسيط لتقدم فروض الولاء والطاعة وتكون ذاتك قربانًا لقتلتك..

كنتُ أظن أنني أصغرهم، هؤلاء المعزولون في هذه الغرفة ولكن بالصدفة عرفت أن عبده يصغرني بعدة سنوات، لكن القسوة نزعت من وجهه البراءة، والظلمات كسته برداء اللامبالاة والحقد على كل من هو سواه.

مشروع طاغيةٍ مازال في طور النمو، يترك أثرًا في كل مكان تطؤه قدماه، وما أبشع هذه الآثار، فإذا صادف شجيرة صغيرة ناتئة في الطريق سحقتها قدماه بلا رحمة، وإذا صادف حيوانًا صغيرًا أصابه بحجر، وأما أحجاره الكبيرة فقد احتفظ بها ليقذفنا بها بعينيه، نظراتُ شظرٍ لسانُ حالها يحقد علينا وكأننا هبطنا عليه من كوكب آخر.

لم أجرؤ يومًا على التقاط أطراف حديثه، فقد كانت مفرداته عصيّة علي أن أضيفها لقاموس مفرداتي، وكم حذرتني أمي في المرحلة الإعدادية من الإختلاط بهذه الفئة من التلاميذ، فالبعد عنهم أسلم..

فبعضهم كان يأتي للمدرسة ويخفي بين دفاتره سكينًا صغيرًا لزوم الحماية أو فرض السيطرة والقوة.

أنس.. إياك والحديث مع هؤلاء الأولاد أو مجاراتهم..-

ولكنهم زملائي يا أمي ، كيف أتجاهلهم ولا أتحدث معهم؟-

- يا أنس هؤلاء الأولاد يتحدثون بكلمات لا يصح أن تتعلمها أبدًا ويتصرفون بطريقة ليس فيها أدبًا

- حاضر يا ماما، لن أتحدث معهم ولن تكون لي بهم أي صلة

هذه المحادثة وما فيها من إرشادات ونصائح لا تمل من تكرارها كل صباح، كما لم أملّ من جدالها في كل مرة.

كانت نظراتهم في المدرسة ترمقني بسخريةٍ وكأنني مازلتُ طفلًا ولكنني لم أنساق يومًا لدخول معركةٍ معهم فحتمًا أنا الخاسر، معروفة نهايتي لو فكرت في الإقتراب من دوائرهم.

يوميات أنس وبسمـــة

مُعلقٌ قلبك بالأماكن، مصلوبٌ على جدران الوقت.. رائحةُ الثواني وعَبقُ الدقات، مشفوعٌ بأنين الهمس المُترامية أشلاؤه في أروقة الذكريات، صرعىٰ الأسئلة التي دوّنـها الزمن بلا إجابات.

حيرتـگ لقلبك وحدك، لا يشفع لـگ عنادك أو مناطحة الأحزان.

تذكُر يومَ عاهدنا الألم أن نُعيد له الأمل فيهدأ باله؟ وتمضي الأيام ولا عهدَ لمن فقد أرضه وسماءه..

تغرسُ كفيگ باحثًا عن حفنة رمال، تحترز بها من عدوى النسيان، لتهديك للدرب حين تضل قدماك؛ فتعود أناملك جريحةً، صلدٌ فِناؤك جدبٌ إلا من قساوة الحجر، وسطوة الأشجان..

تعود بسمة لتطل عليّ بعينيها من سقف الذكريات، وقد أرخى الربيع ظلاله على مقلتيها فأزهرت أبهى الأزهار.

الخفقةُ الأولى لقلبٍ لم يعرف سوى الحب لكل ما حوله، لم يكن لطفلٍ في هذا العمر أن يميزها أو ينحيها جانبًا لتستتر من عيون المارة والأهل..

بسمة ابنة خالتي نجوى، الابتسامة الهادئة والزهرة الرقيقة والنسمة العابرة..

في حديقة جدي بين الأزهار كنا نلهو ونقضي أمتع أوقاتنا بصحبة رقية أختي أحيانًا وأحيانًا كانت تنضم رقية لجلسات النساء لرغبةٍ مبكرة منها أن تصبح مثلهن سيدة مجتمع تتعلم طريقة المشي كأميرة، وجلستها مضمومة الساقين لتبدو كملكة على العرش، الحركة بحساب والإلتفاتة محسوبة، الصوت لا يعلو والملابس أنيقة لكنها محتشمة.

بقايا عصر الأميرات مازالت تسكن أركان ڤيلا جدي تحتفظ بعبقها جدتي حيث كان والدها يعمل موظفًا في الديوان الملكي في عهد الملك فؤاد الأول وكانت كثيرًا ما تتوسل إليه أن يصطحبها إلى القصر وهي مازالت في السادسة من عمرها لترى الأميرات عن قرب، بالإضافة لحكايات والدتها التركية لها عن عادات الأميرات في هذا الزمن.

أما بسمة فكانت فراشةً رقيقةً لا تحبسها جدران، كنا نلهو حول خالي سامح وكنا أبطال رسومه، حتى أن جدي اقترح عليه عمل كتابٍ مصوّر للأطفال يجمع فيه رسومه التي رسمها لنا، وبالفعل جمّع خالي رسومه وعكف جدي على طباعتها وخروجها في أبهى حلّة..

(يوميات أنس وبسمة) هكذا جمع الكتاب إسمينا وربطهما برباطٍ كنتُ أظنه لن ينحل أبدًا وأهدانا خالي سامح نسختين ممهورتين بتوقيعه وإهدائه بالرغم من صغر أعمارنا وقتها.

لم أقوَ على فراق نسختي، فأحضرتها معي.. آخر ما تبقى لي من خالي وذكرياتي معه، وما تبقى لي من بسمة..

فحين بدأ الزغب المشاكس يغزو وجهي ويحتل حدود ثغري فيحيطه بسياجه الشائك وجذوره الضاربة حدود ذقني حتى احتجبت عني بسمة قسرًا، فتلك هي عادات العائلات المحافظة، حينما يصل الأولاد لمرحلة البلوغ يفصلون عن البنات.

كانت بسمة وقت الزلزال بصحبة والدها، كان المكلف بتوصيلها وإحضارها كل يومٍ من مدرستها، فنجت من مخالب هذا القناص الذي لا يرحم.

وبعد هذه الفاجعة لم يتحمل زوج خالتي البقاء في البلد، هذه الفاجعة التي سلبته أعز ما ملك، وبقيت بسمة آخر ما تبقى له في هذه الدنيا، وانطلقا معًا إلى فرنسا.

بعثةٌ من الإذاعة المصرية إلى إحدى الإذاعات الفرنسية كانت طوق النجاة من دوامة الذكريات المُهلكة لا محالة.

وكأن كلمات العرّافة تتحقق، لا أستطيع أن أدعوها نبوءة، فأنا لم أكن متأكدًا مما يحدث، ولم أفهم لماذا سارت الأمور على هذا النحو..

كنتُ أظن أن بسمة هي أميرة حلمي، ولكن كيف وهي معي؟

كيف ستبتعد؟ ويحرمني منها والدها وهو زوج خالتي ويحبني كثيرًا كإبنه، لأنه حتى ما قبل الزلزال بقليل لم يرزق بولد، وحتى بعد ميلاد نور أخو بسمة لم يقل حب زوج خالتي لي..

لم أُخبر العرافة باسمي، ولا بقصته فكيف عرفت كل هذه الحكايات؟

وها هي بسمة سافرت وابتعدت مع والدها..

متى سيحين اللقاء ثانيةً وعلى شاطئ أي بحر؟

وتعلق قلبي منذها بكل طائرةٍ تحلّق في سماء ذاكرتي..

قوائـــــم

بعد منتصف الليل تذوب الحدود وتفنى تفاصيلها العنيدة، تستلقي الأرواح على شواطئ بعيدة، ترخي أجنحتها، تهجر أعشاشها، وكل عاداتها البغيضة، تنسىٰ هزائمها السابقة، وتغرق في أحلامها السعيدة..

بعد منتصف الليل تنظر لمرآتك فلا تجدك، أرواحٌ كثيرةٌ التبستك، وغاصت في جُبّ سحيقة، بعثرتكَ، وعبثتْ بوقارٍ زائفٍ بَرَعتَ في إسداله لساعات.. تجزع من هول المفاجأة أم تفرح أنك مازلتَ دون قوائم الأموات؟ هذا الوحش الكاسر يخطف من نحبهم دون رحمة، دون أن يُقدّم أي أعذار.. يسلبك روحك بينما جسدك مازال يطرق الأرض، يهدم كل حلمٍ بالسعادة دونهم، ويتركك وحدك في انهيار..

ذبلت والدتي نجيّة وانهارت قواها وتبدلّت أحوالها بعدما فقدت دفء العائلة وحبهم دفعةً واحدة، برغم كل محاولات والدي في التخفيف عنها ورعايتها.

مرّت السنوات بعدها متشابهات، بلا طعمٍ للفرحة ولا لونٍ للأعياد..

وعلى استحياء تسرب شعاع النور لقلبها مرةً أخرى بنجاحي في الثانوية العامة وإدراج اسمي بقوائم كلية الطب.

حُلم والدي يلوح في الأفق، يكاد يقترب..

الخطوة الأولى على الدرب بادرة أمل.

ربما لم يكن ذلك هو نفس حلمي فقد كنتُ مشدوهًا دائمًا بهؤلاء المفكرين والصحفيين والمثقفين الذين يرتادون مقهى الصحافة وكنتُ أتابع أحاديثهم بشغف وأتمنى يومًا أن أشاركهم في نقاشاتهم..

ولكنني كنت أود من أعماقي أن أمنح أبي هذه اللحظة من الفرحة التي ينتظرها، فآثرتُ فرحته على فرحتي..

هذه القوائم التي تختصر حياتنا، قائمة مواليد، ووفيّات.. قائمة ناجحين وقائمة راسبين.. قائمة مسافرين، وقائمة مهاجرين للأبد.

ولم يكتمل العام حتى لحقَ والدي بقوائم الراحلين، وكأن الكون قد بخل على قلب والدتي بشعاع النور الذي أهداها إيّاه فسلبه منها وغاب..

ولم يمهل والدي أيامًا قليلة أخرى حتى يرى اسمي في قوائم الناجحين ويبتهج بخطوة أخرى في طريق الأحلام التي تبددت وتناثرت أشلاؤها كالرماد..

ليتني كنتُ في قوائم الراسبين، أو الهالكين وبقي اسمك يا أبي في قوائم الحالمين على وجه الأرض. مرت الأيام ثقيلةً، بلون السواد الذي كسى كل أرجاء الكون في أعيننا، بعدما تسرب من منزلنا ليعم وينتشر.

منىٰ أختي الصغيرة كانت مجرد روح صغيرة تموج وتمرح في داخل جسدٍ بالحزن مُحمّل حين فقدت والدتي أسرتها في الزلزال..

لم تكمل العاشرة بعد، وأصبحت يتيمة الأب، فقدت الجذع الذي تتكيء عليه كل فتاةٍ في طفولتها وصباها والظلّ الذي تحتمي به حتى آخر العمر..

أسرةٌ صغيرة فجأة فقدت ظلّها وطار سقف أحلامها وتبدد، وصار كلّ همها التشبث بالجدران كي لا تسقط..

وها هي أختي الصغيرة تتساءل ببراءة:

- لماذا يا أنس؟ لماذا كل زميلاتي في المدرسة لديهم أبًا، وأنا فقدتُ أبي؟

- اسمعي يا منى.. خلق الله كل البشر من أبٍ واحدٍ هو سيدنا آدم وأمٍ واحدةٍ هي أمنا حواء، وكل البشر على الأرض أبناؤهم، نزلوا معهم مؤقتًا في رحلة إلى الأرض، ثم يعود الصالحون لموطنهم الأصلي وهو الجنة لاحقًا.. وقد سبقنا أبانا ليجهز لنا بيتًا حتى إذا ما ذهبنا وتجمعنا هناك نعيش معًا أبد الدهر، حيث هناك لا موت..

- معقول يا أنس هناك حياةٌ فقط؟؟ وأين يذهب الموت؟

- يموت.. قلتها وابتسمت وحضنتها والدموع توشك أن تغرقني بعدما حبستها..

نـــــفس الدوائر

من نفس النقطة نبدأ، وعلى أطراف الدوائر تَبلىٰ أشواقنا.. نُفارق حنينًا يسبق خطواتنا، نُطلق سراحه بعدما اكتنز الشجنَ أعوامًا وأحاطها بدموعنا.

لو كنا نعلم! أننا في نفس التيه نسبح، دون شاطئٍ أو مرسىٰ، قشّةٌ تحملها أمواج الزمن، طال بنا أو بخل..

أننا في الهواء نتأرجح، نُحارب أشباح الخذلان والفشل، حتى نسينا مَن نكن؟

لو كنا نعلم! أنّ الأحلام لا تُثمِر دومًا سنابل أفراحٍ وأمل، وأنّ الحروف حين تسقط من عليائها تتعثر وتُلملم نقاطها فتُعيد نثرها على عجل.

حينها.. لا تلمها إذا اختارت لنفسها نصًّا آخر أو ضاعت في الزحام.. لسان حالك اليوم مشنوقٌ على أطرافه الكلام.. لا تذهل، فالدوائر واحدة، نحن فقط من نراها بالألوان.

تشابهت الأحوال بين اليوم والأمس، يُضيّق الريس سامي الخناق علينا، يتأخر الراتب عدة شهور، وربما مرّ الشهر دون زيارته

اللعينة المنتظرة ثم يعود فيخبرنا بأعذارٍ واهية، وذلك السائق رسول يأچوچ مازال يرشقنا بنظراته المسمومةً وقد ابتلع لسانه..

تمامًا كما كنا بالأمس، ذابت جموع الجيران من حولنا بعد الفاجعة، وخيّمت العناكب أعشاشها على بابنا، لا قادم ولا مغادر..

تأخر معاش والدي ومستحقاته، وبعد رحلة عناءٍ إستهلكنا فيها هواء الدواوين الحكوميةوالإدارات لإستكمال أوراقٍ باردة، حبرها باهت ينتزع من وجهك بقايا روحٍ ويريق آمالك في الحياة بكرامة.

وحين تذكّر أحدهم أن بابنا مازال يصدر ضجيجًا حين يُنتهك سكونه، جاء صريره خلف خطوات الحاج إحسان نذيرًا غير متوقع..

الحاج إحسان رجل الخير والبر صاحب البناية التي نقطنها منذ زمن، جاء ليقدم عرضه بالمساعدة، حين عرض على والدتي أن أساعده في متابعة ورشته في الإجازة، فهو لم يُرزق بأولاد ذكور، وبناته تزوجن وتركنه وحيدا..

ورشة لحام صغيرة يساعده فيها عاملٌ واحد اسمه رضا..

مجرد منفذ يتابع فيه حركة المارة بالشارع وينفث فيها مشاعر الوحدة بعدما تركته بناته وتزوجن ورحلت عنه زوجته منذ عدّة سنوات..

ترددت أمي في الرد ولكنني وافقتُ على الفور، لأكبر في عيني والدتي وتتأكد أن والدي لم يتركها وأخواتي دون سندٍ أو ظهر.

وأيّ ظهرٍ هذا الذي لا يملك سوى مصروفه الذي اعتاد أن يتلقاه من والده كل شهر؟

- هذه فرصتك يا أنس لتبدو أكبر، وتُثبت أنك موجود..

هكذا حدثتني نفسي وعقلي مازال يجهل ماذا سأفعل عندما تبدأ الدراسة؟

انقضت الإجازة وبدأت الدراسة ولم أعرف كيف أنظم وقتي، ففي كليّة عمليّة ككلية الطب تلتهم كل أوقاتك، لا تعرف كيف تفر؟

بدأتُ أهمل حضوري في الكلية، وقلبي يعصره الألم، ولكن لا مفر، الحاج إحسان يُلقي على كاهلي بكل العمل، بعدما طرد رضا من العمل واتهمه بالتقصير والإهمال لأبقى وحدي ولا أجرؤ على التملل أو الرفض، فكل جنيه أحصده أسرتي في أمَسّ الحاجة إليه..

لم يجد الحاج إحسان في هذا الضغط وسيلةً كافية للوصول لمراده، فقد إنكشفت لي نواياه منذ اللحظة الأولى التي هتك فيها صمت بابنا..

ولم يكن له أي نصيبٍ من اسمه سوى الشهرة الزائفة، وعاد مرةً أخرى لنفس الكرسي في مواجهة باب غرفة الصالون في شقتنا ينتظر عبور والدتي لهذا الباب فربما شفّت ملابسها تحت شعاع الضوء القادم من الصالة فاختلس من بدنها نظرة، ولكن هيهات له، فنجيّة كانت البتول في خِدْرها، والزهرة في غمدها تُحرّم نفسها على أي عينٍ فاغرة..

وبنظرة تاجرٍ يساوم على بضاعةٍ يطمع في شرائها بعد أن يبخسها حقها، راوغ وراوغ في الحديث وحين لم يجد سوى الصد من والدتي ألقى قنبلته وذهب:

- بما أن الأستاذ حامد قد توفي، فيجب تغيير عقد الشقة ليصبح عقدًا جديدًا بمدة محددة وإيجارٍ أكبر كما يحدث الآن في كل البنايات الأخرى.

نزلت الصاعقة على رأس والدتي ورأسي دون شفقة، فأردَتْ كل محاولات ترميم جدراننا المتهالكة قتلى..

- لا عليك يا أنس، فليفعل ما يريد، إن شاء الله صامدين، وربنا هينصرنا

لم تصل كلمات أمي سوى حدود أذني الخارجية، بينما تتلوى حروفه القاتمة في أروقة وتلافيف أذني الداخلية، وقد احتلتها دون رغبة في الرحيل..

مجموعة حُطـــام

بقايا أحلام على الزوايا تناثرت، وقلوبٌ من فرط الأسىٰ تناست كونها على حدّ الزمن انكسرت وأركانها تصدّعت..

تجمعت حكاياتنا وذابت في بؤسها وانصهرت، المِحن تذيب دائمًا الخلافات، اقتربت قدرتنا على الصبر في النفاذ، شهور مضت ومازلنا نعمل دون أجر، ولا أحد نشكو إليه، لا صوت يصل ولا أحد يرحم حالك بكلمة..

كل بادرة أمل تلوح في الرحلة يأكلها سراب الصحراء فتبدو كأنها لم تكن..

يظهر الريس سامي كل فترة ليمنحنا المزيد من الوعود:

مجرد إجراءات بسبب تغيير الشركة، وسوف يقوموا بتنظيم الأوراق ومنح كل ذي حقٍ حقه.-

توسلنا إليه مجرد مكالمة، اتصال بالأهل ليطمئنوا علينا ونطمئن على أحوالهم، ولكن كل توسلاتنا باءت بالفشل..

أعود لذكرياتي، هربًا من واقعٍ مزعج، وأحلّق في فضاءات طفولتي وكتاب خالي الذي لم يفارقني يومًا..

ذلك اليوم الذي صعقنا فيه الحاج إحسان، كأنه بالأمس، خرجتُ لأصلي صلاة المغرب لعل الله يمنحني المزيد من الصبر..

فقابلت مستر أمين ويعمل مدرسًا للغة الإنجليزية وكان من أقرب الأصدقاء لوالدي، فرآني وقد رافقتني هموم الدنيا واصطحبتني وأبت فراقي أبدا.

وسألني فحكيتُ له ما حدث، فسألني:

- **تقدر تسافر خارج مصر للعمل؟**

- **وهل في ذلك شك أستاذ أمين؟**

أي شيئ أستطيع به أن أعين أمي في رعاية أخواتي لن أتأخر.

فأخبرني أن صديقًا له جاء من إحدى الدول العربية يريد عمالًا في اللحام للعمل في أحد مواقع استخراج النفط.

يمكنك أن تطلب إجازة من كليتك ثم تعود لتكمل دراستك بعدها حين تتيسر أموركم.-

- ولكن هو يبيع عقود العمل هذه بمبلغ يُدفع له مقدمًا.

هكذا قال وألقى حجرًا ثقيلًا في بئر همومي المزدحم.

لم تكن لدي رفاهية الاختيار، أخبرتُ والدتي، فاعترضت في البداية وردت غاضبةً:

- كيف يا بني تترك كليتك؟

لن أقبل بهذا أبدًا.

فأقنعتها أنها فترةٌ مؤقتة وسوف أعود بعدها لاستكمال دراستي.

- ولكن المشكلة الآن في المبلغ..

- لا تقلق يا أنس سوف أتصرف..

- ماذا ستفعلين يا أمي؟

فأجابت مستسلمةً:

- لا تشغل بالك

سافر بالسلامة ولما ترجع نتحاسب.

عرفت بعدها أنها أخذت جزءً من مكافأة نهاية خدمة والدي التي تسلمناها بعد وفاته ودخلت جمعية مع جاراتها، أقاموها خصيصًا لمساعدتنا..

هذا حال الجيران وزملاء العمل حين يمر أحدهم بضائقة مالية، يجمعون من كل شخص مبلغًا كل شهر ويقبض المبلغ المجموع أحد المشتركين كل شهر حسب عددهم، وتكون الأسبقية في قبض المبلغ حسب حاجة كل منهم.

وبالفعل أتممت إجراءات السفر وجئتُ بكامل إرادتي إلى هذا المنفى.

لم يكن تواصلنا مع زملائنا في الموقع مستحيلًا، ولكننا انشغلنا كلٌّ منا بهمومه، فتجاهل وجود الآخر..

ساد الهمس بين المجموعات في وقت الغذاء، حتى اتفقنا..

في البداية لم يرحب نادر بهذا الإتفاق، كلّ ما يريده أن يرسل لعمه راتبه ليعينه على سداد أقساطٍ مستحقة عليه منذ زواج بناته الثلاث، ومن ثمّ الاستعداد لزواج البنتين الباقيتين..

تكاليف الزواج مرهقة جدًا، وخصوصًا في المناطق الريفية، حيث تتباهى الأسر بحجم التجهيزات وتكلفة محتويات عش الزوجية، حتى يصبح جناحًا بفندق ذي نجماتٍ سبعة..

- عليك أيضًا أن تستعد لزواج أخواتك يا أنس.

هكذا نبّهني نادر ثم أكمل حديثه:

- كان عمي يريد أن يراني مهندسًا مرموقًا، ولكنني آثرت الدراسة في كلية التجارة حتى أنتهي منها سريعًا وأعمل خلال الدراسة أيضًا فأردُّ دينًا يحيط بعنقي له ولزوجته التي لم تبخل عليّ بعطفٍ أو حنان.

وافق نادر على مضض، فلم يعد لدينا خيارٌ آخر..

إضراب، واضطراب

وتبقى حروفك معقودةً على طرف اللسان، أطرافها متشابكة تأبى الخضوع لسلاسل الكلمات، لا شيئ يمنحك الشعور بالأمان..

في اليوم التالي، انتقلنا إلى موقع العمل، بيدَ أن السكون حلّ، ولم تخدشه أصواتُ آلاتِ اللحام أو قرع دقات القلوب المُستهلكة على نهايات القضبان..

إضرابٌ شامل، وتوقف عن العمل..

افترشنا رمال الصحراء بساطًا لنا، علّه يكون أرحم من قلوبٍ عجّت آبارها بالأحجار فلم تترك للسيل الرقراق فيها مُتسعًا..

للتو اكتشفنا أن عبده الضبع كان ينقل كل أخبارنا وما يدور بيننا من أحاديث الى الريس سامي، ولهذا جاءنا فورَ تعليق العمل وكان مستعدًا برد فعلٍ لم يتوقعه أحد.

لم يكن هناك أحدًا منا يتوقع ما فعله عبده، كنتُ دائمًا أتساءل ماذا تراه نال من اسمه؟

حتى ظننته مجرد اسم ربما التصق باسمه صدفة، ولكنني الآن فهمت أنه أضعف من أن يؤذي أحدًا،ولا يمكنه مواجهتك في وجهك، هو ينتظر لحظة ضعفك ليهاجمك بعدما تسقط، كما تفعل الضباع في

البرية حين تنتظر الأسود بعدما تفرغ من فريستها وتكتفي ثم تأتي هي لتلتهم ما تبقى منها.

استدعى الريس سامي مديره وزُمرةً لم نلتقِ بهم من قبل، طلبوا منا العودة للعمل ثم التفاوض فيما بعد، ولكن لم يعد يجدي التفاوض، بعدما انفرطت من قلوبنا عقود الصبر..

أشار المدير للريس سامي بإشارة لم نفهمها ورحل، فبقي هو وظلّ يكيل لنا باللعن والسباب حتى ثارت أوداجانا وفارت بالغضب، وهاج بعض الرجال حين وصل السباب بالأهل، وتدخل موظفي الأمن فصارت معركةً، وهنا جاءت قوات الأمن وأحاطت بالمكان، وكأن الصحراء أرادت الخوض معنا في معركتنا أو ربما ضدنا، فثار الغبار ونشطت الريح من كل صوب، واستحالت الرؤية على بعد أمتار..

خطفتني يد أحدهم بعدما كدت أسقط تحت الأقدام وسمعتُ صوته يصرخ بي:

- إجري، إهرب

كان صوت عبده الضبع، بالكاد استطعتُ أن أميزه، فهو خبيرٌ بمثل هذه المعارك والمشاكسات.

لا أدري حتى الآن كيف أطلقتُ ساقاي للريح، بينما كنتُ دائمًا الأخير في سباقات الركض بالمدرسة.

لا أدري كم كانت المسافة التي ابتلعتها قدماي؟ وكمية الغبار التي التهمتها رئتاي خلال هذه الفترة؟ كل ما أذكره أنني كنت أركض ولا أرى أمامي سوى صُفرة تحيطني من كل جانب..

حتى انقطعت أنفاسي وتحشرجت، بعد أن دس الغبار ذراته في مجاريها وأغلقها، وخارت قواي فسقطتُ أرضًا.

كنتُ أعلم أن عصر العبيد انتهى، ولكنني رأيتُ نفسي وقتها عبدًا من عصر الجاهلية للتو فرّ من مالكه، وربما مملوكًا آثر الموتَ جوعًا في الصحراء على الموت قهرًا.

في غُربتك نزلةُ بردٍ عابرة تُهلكك، تمتص من روحك ريعانها وتتركك غصنًا يابسًا، فماذا لو كانت ريحًا صرصرا؟

في وادي القـــهر

عجيبٌ أمرك يا إنسان! تُطلق قدميك بسرعة الريح؛ فيُدهشك ثباتك في نفس المكان.

مزروعٌ أنتَ جذعٌ بلا أغصان..

لوحةٌ تفتقد دفء الألوان.. شتاؤها جافٌ إلا من مسحة شجن..

والبرد ينخر أركانك بلا استئذان.. مطرودٌ بلا وطن..

اعتادت خطواتِك الطرقاتُ، مسافرٌ جُرِّدتَ حتى من حقائب الذكريات..

ماذا لو كانت الأرض بلا ألوان؟

بلا حدود وتفاصيل.. تقضي صباحك على شاطئ نهرٍ تغتسل من كلّ همومك تزيح دَرَن الكذب والرياء، وحين يعمّ الظلام تلتمس دفء نجمةٍ في سابع سماء.. محفوفةٌ بأسراب آمال في مصفوفةِ لآلئ في عينيك تبدو عقد..

وتفيقُ من أوهامك على نفس الوَقْع، وليدُ اصطدام أيامك بهذيان العمر..

لا العُمر يفنى فترتاح من أسقامك، ولا الدهر صاحَبَك فانتشلك من وادي القهر..

حين شقّ شعاعُ الضوء عتمتي، وأزاح همومي هُنيهةً ليسري بداخلي فيعيدُ الروحَ لأوصالها، ويطمئن لوجودي..

أمازلتُ أحيا!-

أم على البرزخ خطواتي تستقبل مصيرها؟

وأنا في الطريق إليك يا أبي، فافتح لي أبوابك..

كانت عيناه تُحدقني، وترمم أشلائي المبعثرة على رمال الصحراء..

شيخٌ ربما كان في عمر أحد أعمامي لو كنتُ أعرفهم، ويعرفونني..

- لا تخف، حمدًا لله على سلامتك يا بُني

تلعثمتْ الحروف على لساني لا تعرف سبيلها للخروج فترد:

- من أنتَ، أم أين أنا؟ وماذا حدث؟

أسئلةٌ تكورت في ذهني وانزلقت على جبل الثلج الساكن بداخلي حتى صارت كتلًا لا طاقة لي لحلّ ألغازها..

لم أنطق، ولكنه أعانني على الجلوس، بعدما كنتُ طريحَ فراشٍ وثيرٍ لم أحظَ بمثله منذ حوالي سنة.

رويدًا رويدا بدأتْ بوصلتي تستعيد قدرتها على تحديد الإتجاهات وإدراك المكان والزمان، وبعدما تناولت وجبةً ساخنة ذكرتني بأم سعد وطعامها الشهي، بدأتُ أسرد له تفاصيل قصتي، وفصولها البائسة، منذ وفاة والدي وحتى رحلتي في وادي القهر.

رقصة الرحيـــــل

لحظةٌ بِالعمر كلّه، تتفقّدُ أروقة الذكرىٰ لتبحث لك عن مخرج..

مبعثرٌ أنت على الممرات..

أنفاسك مُشرّدةٌ في بهو المطارات..

ترحل هنا وهناك، ولا تدري ماذا تُخفي لك الرحلة القادمة؟

ومتى تفاجئك بنفاذ الوقت؟ وأين تُراها آخر وجهة؟

حائرٌ أنت بين التفاصيل، غارقٌ في حروف الاستفهام والعِلّة..

علىٰ وجه الزمان منقوشةٌ بعض الأحلام كَمصير لا تملك له التغيير، وبعضها في الفضاء تطير..

حلّق إليها بكل ما أوتيتَ من قوةٍ قبل انكسارك الأخير..

وماذا لو انتظرت؟ أتراها تأتيك بِفخر؟!

رحلةٌ تبدؤها من العدم وإليه تنتهي..

خدعوك حين قالوا نحن نبني للمستقبل البعيد، وما اللحظة القادمة سوى مستقبل عنيد!

قد يأتيك وقد تنتظر وتكتشف أنك في العدم قد صرت، حيث هناك لا وقت، لا بيت، لا وطن..

نرقص رقصة الرحيل.. جميعنا على حافة الزمن..

ما إن أفقتُ وأدركتُ ما حولي قصصتُ قصتي لذلك الشيخ الطيب ثم طلبتُ منه أن أهاتف والدتي وأخواتي، وبالفعل اتصل بهن بعدما أمليتُ عليه أرقام هاتف منزلنا وقد لملمتها بصعوبة من بقايا أشلاء ذاكرتي المنهارة بين ذرات الغبار التي أخفتْ كل ملامح أيامي الماضية..

كانت أصعب مكالمة منذ سفري وفراقنا، لم أنطق فيها بكلمة سوى أمي، وانهمر طوفان الدموع..

من قال أن الرجال لا يبكون؟

من حرّم البكاء على الشجعان أو ذي القوة؟

كانت دموعنا بدرجة الغليان، تكوي طرقاتها من القلب إلى العيون..

وبعدما عصتْ الحروف كلّ توسلاتي لها بالإنطلاق، أمسك الشيخ بالهاتف وطمأنهن على الجانب الآخر..

حتى ذلك الحين لم أعرف أين أنا أو من هو هذا الشيخ أو ماذا حدث هناك؟

وزملائي ومن كانوا معي!

عاصفةٌ جديدة هبّت برأسي فأعطاني الشيخ دواءً مسكنًا، اعتدتُ مظهره فقد كان وسيلتنا الوحيدة لتخفيف أي ألمٍ في معتقلنا..

أخذته واستلقيتُ بهدوءٍ ولم أشعر بعدها بشيء وكأن بنايةً سقطت فوق رأسي، فأخفت ذاكرتي ووعيي معًا.

في بلادي أي رجل تخطّى الستين نسميه شيخاً، وحتى ذلك الحين لم أكن أعرف لها معنى آخر..

بدايـــةٌ جديـــــدة

هاربٌ من صمتك إلى فيافي الحروف، تُفتّش عن نبضٍ طال غيابه، بين الزوايا اختفى..

حارت من سكونك الروح، جارت الأيام على طرفك فلم يعرف لمن المُشتكى؟

أتبعتَ حنينك بسيول الضوء لتغمرك.. تجرفك إلى حيث فضاءاتك وعوالمك..

لا الصمتُ يُجدي حينها، ولا أحزانك تنفعك..

غادِر سكونك وانطلق، فالشك ظلاله لن تعتقك حتى تهزمها براءتك..

بعد أيام استعدتُ ببطىء عافيتي وذاكرتي دون ذكرياتي، فقد أدركتُ عظيم ما فقدت (كتاب خالي) ليتني ما اصطحبته معي..

لم أهتم لفقدان أوراقي، وحاجياتي، كل ما همّني فقدان كتابي..

وضاعت مني ملامح بسمة فلم أعد أرى وجهها في السقف، وأفتّش عن صوتها فلا صدى له في دهاليز آذاني، وذاب وجهها من الحلم ، وأصبحتُ أراني على شاطئ البحيرة ومن أمامي على الشاطئ الآخر القلعة موصدة النوافذ ولم أعد أرى وجهها يطل من خلف الستار..

وها هم يستميتون في الوصول إليّ ربما ظفروا بوجبةٍ شهية..

الشيخ حمد..

رجلٌ تجاوز منتصف الستينات من عمره، ليس بالقصير ولا بالطويل.. لا يشي نحوله بضعفٍ بل يزيده شبابًا كظبيٍ انطلق للتو يبحث في البادية عن مرعى ليطعم صغاره ولا يكل.. يمرّ بجانبك كطيفٍ دون أن يُحرّك ساكنًا، ولكنه يبعث في الفضاء حوله طاقة أمان، وهالة هدوءٍ ممزوجةً بالكثير من الحكمة..

ذلك الرجل الطيب الذي آواني، بعد هدوء العاصفة وجدني أحد عُماله على بعد أمتار قليلة من مزرعته، عاملٌ من بني التتار ولكن يبدو أن أحفادهم تخلوا عن صفاتهم الهادمة وجاؤوا ليصلحوا ما أفسده أجدادهم ربما استطاعوا إخفاء أشلاء الجثث السابقة برياضٍ وبساتين..

حثّ الشيخ حمد سائقه ومساعده على التقاطي ومن حولي بحيرة الرمال تحوطني وكأنني جزيرة تائهة في وسط المحيط، وأخذني في شاحنته الصغيرة إلى داخل مزرعته..

وبعدها هبّا لإعادتي من ذلك البرزخ البعيد ومنحي نزولًا ثانيًا إلى الأرض..

كانت هذه المزرعة موطن ميلادٍ جديدٍ لي، قد يصلح لكتابته يوم ميلادي دون شك..

ومرت الأيام، تعلمت فيها الكثير من الأعمال سواء مباشرةً من الشيخ حمد أو من سهيل هذا العامل الذي أنقذني وصرنا بعدها أصدقاء..

صرتُ أتفقد أحوال الخيول وأطعمها بيديّ، وأجمع الكلأ وأقدمه للأبقار، وأتفقد أحوال الدجاج وما ينتجه من بيض نجمعه سريعًا خشية تحطيمه وفساده..

وأنا ابن المدينة الذي لم يعهد أبدًا شيئًا كذلك..

ومازلتُ أتعجب من نفسي وأنا أخطو بين الزرع الأخضر مولودٌ جديدٌ قلبه بلون الخضرة اتشح..

لا أدري ماذا حدث لي وقتها هل نسيت حُلمي أم هوالذي نسيني؟

في صُحبة الشيـــــخ

اللحظة التي تقف فيها وحيدًا، تُحارب أسراب الأفكار الغازية، وتأبىٰ روحك التغيير، تنتقل بين حدودگ التي رسمتها، تهديگ إلى طريقك الذي مهدتّه، وتحميگ من رياحِ التدمير..

مصفوفةٌ أفكارگ التي غرستها، معينك في عهود السطوة والإنحلال..

حروفك الباهتة في أعينهم، نورها يهديك للنور لا محال..

وكلّما مرّ بك أحدهم بادر بالسؤال؛ أمازلتَ تُعاند الزمن؟ ألم تستسلم لرياح التغيير؟

أشيحُ بوجهي وأمضي ساكنًا، فقد مللتُ التبرير..

حين تنسكب حروفك في ثقب الدهشة، ثم تُراقُ عليها بعض نقاط التجاهل وكثيرٌ من التقليل، تمضي وكأن شيئًا لم يكن، ماعاد يُجدي التفسير..

استطاع الشيخ حمد ببساطته وطيبته أن يمحو تجربتي السابقة وما انطبع في الروح عن قسوة أهل هذه المنطقة..

ومع الوقت بدأَ يُقرّبني منه ويحنو علي.

- لم يُرزق الشيخ حمد بذكور وهؤلاء أزواج بناته

هكذا كان حديث سُهيل مساعده وسائقه الذي التقطني من بحيرة الرمال..

كان هناك شابان يترددان على المزرعة، يتشابهان في المظهر وبعض الملامح لأنهما بالفعل أبناء عمومةٍ،

ولكنهما يختلفان تمامًا في القبول والمعشر..

- صقر زوج ابنته الكبرى مشاعل

مازال يحكي سهيل؛ فهو هنا من قبل حتى ميلادهما وكم حمل مشاعل وأقلّها وأخواتها إلى المدرسة ولكن مشاعل لم تنل الكثير من التعليم، فقد حاولت عدة مراتٍ تخطي إمتحان الثانوية العامة ولم تنجح، ولكنها لم تهتم فقد كانت لا تحب المذاكرة ولا حتى القراءة..

هكذا أنهى سهيل حديثه على عجل حين سمع صوت صقر عليه مُناديًا..

صقر هذا الشاب المندفع الذي يمثل الكثير من أبناء جيله الذين لم يختبروا رجولتهم في خشونة الصحراء أثناء الرعي في البادية أو التقاط اللؤلؤ في رحلات الغوص ولا حتى رحلات الصيد على ظهر

مركبٍ تخطفهم لأغوار البحر وربما عادوا وربما ضنّ البحر فراقهم واتخذهم أخلّاء..

يعلم صقر جيدًا أن عمه بلا أولاد ويحتاج إليه في كثيرٍ من الأمور، فإن لم يكن اليوم فإن غدًا لناظره ليس ببعيد..

على النقيض كان ناصر شابًا دمثَ الخُلق، يلتمس رضا عمّه في حُسن معشر ابنته نوف ويعاملها خير معاملة.

وكان الشيخ حمد إذا احتاج مساعدةً في أي أمرٍ طلبه منه..

نوف عرفت منذ الصغر قدر نفسها وأكملت تعليمها بعد زواجها وساعدها ناصر في ذلك كثيرًا، وهي تعمل الآن مُدرسة في مدرسةٍ مديرتها هي والدة ناصر وتجمع الإثنتين علاقةٌ طيّبة وتوافق وانسجام.

ولهذا فهو يقدّرها ويحترم رأيها إيمانًا منه بأهمية دور المرأة في الحياة وأهمية صقل شخصيتها لتدعيم دورها في تربية أبنائها..

كانت أولى جولات أنس في المزرعة بصحبة سهيل..

خرجا من سكن العُمال حيث كان يقطن أنس طوال الأيام الماضية إلى ممرٍ عبروه ليخرجوا منه إلى باحةٍ كبيرة تتوسطها نافورة تعلقت بها عينيّ أنس وارتخت كل أحزانه، فلصوت الماء قدرةٌ عجيبةٌ على تفتيت الألم وإزاحة الهموم بعيدا.

ضحك سهيل وسأل أنس:

- **لماذا وقفت هكذا أمام النافورة؟ هل خفت من تماثيل الحيوانات؟**

كانت هناك بضعة مجسماتٍ منثورة بعناية حول النافورة لحيواناتٍ وطيور بأحجامها الحقيقية، حتى أنها من بعيد تبدو كنافورةٍ وسط حديقة حيوان..

اكتفى أنس بابتسامة وأكمل خطواته..

عاد سهيل ممسكًا بأطراف الكلام:

- **هنا توجد الحظائر، هذه مخصصة للخيول، مقسمة بحواجز خشبية لكل فرس غرفته الخاصة وهذه الفتحة من الباب تسمح له بأن يمدّ رأسه للخارج فيتبادل الحديث مع أقرانه ويهلل بصهيله حين يسمع خطوات الشيخ حمد قادمًا.**

فكسر أنس صمته متسائلًا:

- **هل فعلًا يشعر الحيوان بصاحبه ؟**

- **أكيد يشعر**

همهم أنس في سرّه قائلًا:

- الحيوان الوحيد الذي تعاملت معه كانت قطة بسمة وكنت أكرهها لأنها منذ أهدتها لها جدتي وهي طوال الوقت تحتضنها وتلاعبها وتهمل اللعب معي..

فأكمل سهيل حديثه:

- حين يأتي الشيخ حمد إلى المزرعة تسمع الخيول صوته فيعلو صهيلها وكأنها ترحب به، كذلك ابنته لُجين فقد ورثت عنه حب الخيول وركوبها..

أما مشاعل فهي دائمًا على العكس، ترفضها الخيول وتكره أن تمطيها وتلفظها في دقائق معدودة..

لماذا؟-

- لا تستعجل يا أنس فسوف ترى وتعرف كل شيئ في وقته

ثم عادا للنافورة مرةً أخرى وعبرا باتجاه الجنوب فوجدا على الجانبين محميات مغطاة فسأله أنس عنها فقال:

تعال وشاهد بنفسك

وما إن فتح سهيل الباب حتى وقف أنس مندهشًا!

شجيرات صغيرة تقف على قدمٍ واحدة مصطفة، والأخضر من حولها يكسو الرمال فيحيلها إلى جنة..

- ما هذه الشجيرات وهذا الزرع الأخضر؟

فأجابه سهيل:

- هذه الشجيرات أحضرها الشيخ حمد من إحدى سفراته للبرازيل إنها أشجار الكاكاو

أتصدق أنني ولا مرة وأنا ألتهم ألواح الشوكولاته تخيلت من أين أتت؟- ضحك سهيل وأكمل شرحه:

- وهذا الزرع الأخضر بعض أنواع من القرعيات لا تنمو في هذه المنطقة وهناك شجيرات فراولة، وبعض أنواع الطماطم الكرزية وأخرى ملونة..

فقاطعه أنس متسائلًا:

- لماذا تضعونها في هذه المحمية ؟

- هذه الأنواع لا تنمو في المناطق الحارة لذلك نغطيها ونهيئ لها بيئة مناسبة لنموها تشبه بيئتها الأصلية

- سبحان الله، ليس الأطفال فقط من باتوا يخرجون من رحم الأنابيب، فالزرع أيضًا انطلت عليه حيل البشر.

هكذا تمتم أنس دون أن يخبر سهيل بتعليقه.. فجأة أصبحت هناك خريطةٌ أخرى في ذهن أنس تمتلئ ببقعٍ مضيئةٍ وأخرى مظلمة بعدما كانت كل اللوحة قاتمة..

دون قيـــود

البقعةُ المظلمةُ في آخر أعماق الروح، تلك التي تذهب إليها منفردًا دون أحد: أنت، وأنت فقط..

تقف أمام مرآةٍ كبيرةٍ تعكس لك كل تفاصيلك الدقيقة التي قد تعيش حياتك بكاملها ولم ترها أبدا.

ناقوسٌ عملاقٌ ينذرك آلاف المرات: انتبه؛ ما بين الروح والعقل مسافاتُ أميالٍ وأميال..

وأنتَ مازلتَ تختصر الطرقات، تفترض عدم وجود متاهات ولكنك تذوب بداخلها تبحث عن ذاتك ولا تصل..

عبر الحلقات المفقودة تجول عيناك وتنتشر، تفتش في كل المتاهات تبحث عن وجهك الآخر وتكتشفه الآن أمامك.. قد تفاجئك الصورة وربما كنت تعرفها ولكنك آثرت الهروب.

افتح كل الصفحات، كل صناديق الذكريات وانثرها في الفضاء، امنحها حريتها لتحيا حرًا دون قيود..

فاجأني الشيخ حمد في أحد الأيام بخبرٍ كنت أنتظره، لقد اتصل بشخصية مهمة يمكن أن تتدخل لحل مشكلتي..

فبعد انقضاء فترة نقاهتي، اقترح عليّ الشيخ حمد الإتصال بسفارة بلدي وأن أشرح لهم ما حدث لي، فيعيدوا لي أوراقي وراتبي الذي احتجزته الشركة لشهور، وبالفعل اتصلتُ بهم فما كان منهم سوى أنهم أخبروني أنني مطلوب للعدالة، فأنا وزملائي متهمون بالإضراب وإثارة الشغب وإتلاف ممتلكات الشركة وحفنة تهم مرتبة، لم أهتم بها حتى صعقتني آخر تهمة وهي أنني مخالف لقوانين البلد حيث أن تأشيرة دخولي وزيارتي انتهت ويجب ترحيلي فورًا!

- كيف ذلك؟ هذا كذب..

لقد أخذوا منّي مبلغًا كبيرًا قبل السفر للحصول على عقد العمل..

كانت صرخاتي تدوي في آذاني قبل آذان المتحدث على الجانب الآخر..

هذا ليس شأننا، سلم نفسك فأنت مطلوب من قِبل الشرطة وأمر ترحيلك قد صدر .-

أفقتُ من همي على كلمات الشيخ حمد حين قال:

- لا تقلق يا بني كل مشكلة ولها حل.

بالفعل كان تدخل هذه الشخصية هامًا وضروريًا، وبالفعل وبعد عدّة اتصالات بمسؤول كبير في هذه الشركة، تم عقد لقاءٍ بيني وبصحبتي الشيخ حمد وبين مبعوثٍ من الشركة، وقام هذا الشخص بمساومتنا على مبلغ مالي ضخم حتى يتم التنازل عن شكوى الشركة في حقي

ويرفعوا اسمي من هذه التهم ويقدموا عقد عمل لي لرفع اسمي من قوائم المُرحلين.

حتى أنهم عرضوا عليّ أن أدفع لهم مبلغًا كل عام لتجديد العقد دون شرط العمل لديهم، ولكنني رفضت وكذلك الشيخ حمد.

الآن فقط تذكرت سرّ ابتسامة الشيخ حمد المريرة حينما كنتُ أسرد له قصتي وأخبرته أنني كنتُ أعمل في شركةٍ أمريكية، فقد كانت خُدعةً كبيرةً وانطلت علينا جميعًا، لهذا السبب اختارونا لم يسبق لنا السفر من قبل حتى نكون لقمة سائغةً في أفواههم..

ودفع الشيخ حمد التعويض وتم إسقاط التهم عني وأعادوا لي أوراقي الثبوتية، وقام الشيخ حمد بتحويل إقامتي على مزرعته وصار هو "كفيلي."

عُدتُ مع الشيخ حمد لا أعرف من أين لي بهذا المبلغ لأردّه، فقلتُ له:

- لا أدري كيف يمكنني شكرك ورد جميلك يا شيخ حمد، ولا أعرف كيف سأرد هذا المبلغ الكبير الذي دفعته لي..

- يا أنس، أنا أحتاج لرجل أعتمد عليه في إدارة المزرعة ومراقبة العمال، فأنا لا آتي هنا إلا في نهاية كل أسبوع، وسهيل لم يعد قادرًا على متابعة كل شيئ وحده، وأنا أراك تصلح لهذه المهمة.

ثم أضاف أنه سوف يمنحني راتباً مجزياً سوف يقتطع نصفه لسداد ديني، والنصف المتبقي سأرسله لأهلي، وأما طعامي وسكني فمن خيرات وطني الجديد وفي حماه..

الآن فقط أستطيع الدخول والخروج من المزرعة والذهاب إلى أي مكانٍ أريده، فإقامتي الآن قانونية ولا توجد أي مخالفات.

في يوم إجازتي خرجت في نزهة لأستكشف هذا البلد الجديد الذي أسكن فيه منذ ما يقرب من عام ولم أشاهده إلا من خلف نافذةٍ معتمة.

كانت عيناي تحتضن كل ملمحٍ تراه، كل متر تخطوه خطواتي وتختزنه في دفاتر الذاكرة..

في البداية ركبتُ مع سائق هندي الجنسية كان بالكاد ينطق بكلمات بسيطة بالعربية وأما الباقي فيشبه كثيرًا كلمات سهيل سائق الشيخ حمد حين يتحدث مع عمال المزرعة من بني جلدته.

حاولتُ الحديث معه بالإنجليزية فلم يفهم وأخبرني أنه لا يعرفها.

بالكاد وصلنا لنقطة التقاء لتصل الشرق الأدنى بالشرق الأوسط عبر بضع كلمات مبعثرة أجمعها من حديثه بصعوبة.

كنتُ مندهشًا من هذه الطرق العريضة والممتدة في أعماق الصحراء وتنظيمها وهذه المنحنيات التي تأخذك لتدور بك لتنقلك إلى الإتجاه الآخر في سهولة ويسر دون عرقلة نظام السير، فأخبرني أن كل هذه الطرق حديثة تمّ تعبيدها بعد الغزو، وفق أحدث الآليات في مد الطرق

بعدما دمر الجيش العراقي كل البنية التحتية للكويت خلال أشهر الغزو المعدودة..

يا إلهي!

كل هذا الدمارفي عدة شهور قليلة قضوا فيها على بنيتها التحتية وأشعلوا حقول النفط وغيّروا ملامح بلدٍ كاملٍ، فماذا كانوا ليفعلوا لو ظلّوا لوقتٍ أطول؟

الكويت هذا البلد الصغير الذي يقع شمال شرق الجزيرة العربية، لم يكن له أعداءٌ أبدًا ومنذ نال استقلاله ورُفعت عنه الحماية البريطانية منذ عام 1961 وهو يعيش في سلامٍ وأمان، حتى جاء هذا اليوم الأسود الذي دخلت فيه قوات الطاغية ونفثت سمومها في فضائه.

هكذا فهمت من حديث السائق بصعوبة، فتذكرت حين كنتُ في العاشرة من عمري أتابع مع والدي وهو مذهول مما يرى، وأعمدة الدخان التي اخترقت سماء الكويت فشكلت غلافًا أسود يغشاها..

اكتفيتُ من حديث السائق وتابعتُ بعينيّ الطرق حتى وصلنا إلى الواجهة البحرية ونزلت عند الأبراج..

ثلاثة أبراج شاهقة تعانق السحاب في أناقة وتنشر ظلالها على صفحة الماء.. اندهشتُ كثيرًا عندما قرأتُ لمحةً عنها في المدخل وعرفتُ أنها خزانات مياه والبرج الأصغر لتوليد الكهرباء، فما أجمل أن يكون هناك اهتمام بالمنشآت فتستخدم لأكثرمن غرض!

وها هي الأبراج تستخدم كمزار للترفيه والتسلية وقضاء وقتٍ ممتع بالإضافة لدورها الرئيسي في إنتاج الكهرباء.

في البرج الرئيسي زرتُ الكرة الدوارة وشاهدتُ عبر المنظار المثبت مدينة الكويت بأكملها من خلاله، وياله من منظرٍ مدهش ذكرني بزياراتي لبرج القاهرة ورؤية القاهرة من أعلاه عبر منظارٍ مُشابه ونهر النيل يشق طريقه في وسطها.

ذكرني منظر الخليج العربي تحت قدماي وأنا داخل البرج بحلمي العجيب، هل هذا الشاطيء الذي أجلس عنده في الحلم هو شاطيء بحرٍ أم نهر؟

وأين يا تُرى هو يقع؟

لاحظتُ من خلال جولتي وزيارتي لبعض الأماكن الأخرى أنه لا يوجد احتكاك مباشر بينك وبين أهل البلد؛ فالمعتاد أنك حين تزور بلدًا سياحيًا مثلًا تتعامل مع سكانه الأصليين من خلا ل البيع والشراء أو التعاملات المباشرة من خلال الأماكن العامة، ولكن هنا الأمر مختلف ففي الغالب لن تجد سوى عمال وموظفين من جنسيات أخرى في مثل هذه الأماكن.

زالت الدهشة بعد ذلك واعتدتُ على هذه الحياة وهذا الخليط الفريد من البشر من كل بقاع الأرض يختلطون في تآلفٍ فريد. صدق الإمام الشافعي حين قال: ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فُرجت، وكنتُ أظنها لا تُفرج..

تقلبـــــات البشـــر

لكل قصّة بداية، وبدايتك بحرٌ مضطرب، وعلى أطراف موجه يفور الزَبَد، مرةً بلون القلب بياضه يخطف النظر، ومرةً يعميك بسواده كظلمة بعض قلوب البشر..

هناك بين الزوايا المظلمة تتحسس طريقك باللمس، وربما كوطواطٍ تُطلق بعض الهمس جسًّا لعمق الفراغ في صدرك، وليس العكس..

بعض القلوب المُسالمة تبحث لها عن ركنٍ هادئ تركن إليه لتقضيَ ما بقيَ لها من العمر، وبعضها أصابته لوثةُ الغرور فظنّ أنه في كل المعارك منتصر..

تلك الأُلفة التي سادت بيني وبين المكان، جدرانه وبساطه الأخضر والحيوانات الناتئة بين زواياه..

كان الشيخ حمد يستمتع بتجمع عائلته في المزرعة في العُطل والمناسبات كنوع من الترفيه وجمع شمل الأسرة والإستمتاع بلمّة الأحفاد.

وكانت هذه الزيارات تمثل بالنسبة للعمال أيام أعياد، فهذه الحركة الغير مألوفة وأصوات الأطفال والكبار تختلط فتخترق سكون الجو

وتملأه بجو العائلة الذي نفتقده جميعًا هنا في هذا المنفى، وإن كان منفاى هذه المرة أجمل بكثير من سابقه..

في منتصف المزرعة كانت تقبع فيلا أنيقة بُنيت بطراز لا يبدو مألوفًا لهذه البيئة التي اعتادت وتآلفت مع الخيمة المصنوعة من شعر الماعز وصوف الأغنام أو كما يطلقون عليها هنا: بيت شعر..

أذكر حين كنتُ أقرأ ذات مرة في جريدة أمام الشيخ حمد فنطقتها : بيت شِعر

فانفرجت أساريره وفغر فاه ضاحكًا..

- اسمه بيت شَعر يا أنس..

هذه خيام يا بني صنعت من شعر الماعز مخلوطًا مع صوف الغنم لتمنحه القدرة على مقاومة الأمطار وكذلك حرارة الشمس.

أما هذه الفيلا فكانت مقببةً كالبيوت الأوروبية العتيقة تعلوها هذه الأسقف المنكسرة الزوايا لتمنحها مظهرًا مميزًا يغزو قبة السماء..

كانت لُجين أصغر بنات الشيخ حمد تدرس في إحدى المدارس الأمريكية، وكانت تحب الخيول وتطلب الذهاب الى حظائرها وإطعامها بنفسها.

لُجين فتاةٌ رقيقةٌ هادئة أخذت من اسمها نصيبًا أكبر فكانت طلتها تُبهج النفس ويخطف بريق عيونها نظرتك ويأسرك دون أن تشعر،

فمهما اهتم الناس بالذهب وحرصوا على اقتنائه؛ تبقى الفضة الأقرب إلى القلب، ولا يضاهي بريق انسيابها في العيون شيئ..

كانت لجين أكثر أخواتها لينًا واحترامًا في معاملتي حيث عرفت بأنني متعلم وأنني كنت أدرس بكلية الطب وكانت تخبرني أنها تريد أن تصبح طبيبة.

كنتُ أسمعها وعيناي لا تجرؤ أن تهتك أسوار هيبتها أو تجتاز سياج حيائها..

وأما مشاعل فعلى النقيض من لجين كانت قاسية، صوتها يسبقها دائمًا تنهر هذا العامل وتلعن ذاك، حتى الخيل لم تسلم من أذاها، وعرفتُ الآن ما كان يقصده سهيل..

لم تنشأ بينها وبين الخيول أية أُلفة كلما ركبت أحد الخيول تذمر ولم يحتملها أكثر من مسافة كيلو متر واحد..

وأما بدر فربما كان هو الحسنة الوحيدة التي قدمها كلّ من مشاعل وصقر..

كان بدر ابنهما في الخامسة عشر من عمره، صبي في عمر المراهقة، لم يجد الكثير من الاهتمام من والديه فآثر الإقتراب من جده لينال الكثير من الدلال ويغيب عن مراقبة الأهل التي لم تكن متوفرةً بالأصل. كانت زيارات بدر للمزرعة كثيرة وغريبة فهو يأتي ويبقى في الفيلا ولا يخرج منها إلا قليلًا..

وفي إحدى المرات غاب عدة أيام دون خبر، كان يرفض أن يدخل عليه أحد حين تواجده في المزرعة.

ولكن بعدما طال غيابه دخلنا عليه أنا وسهيل فوجدناه مُلقى على الأرض غائبًا عن الوعي..

حملناه ونقلناه لسريره ثم ببعض رذاذ العطر بالتبادل مع زخات الماء تمكنّا من إفاقته وبسرعة أحضر سهيل كوب عصير شربه بصعوبة حتى أكمله وبدأت جيوش السكر بالزحف في دمه فعاد إليه توازنه رويدًا رويدًا.

لم أتركه بمفرده وأخبرت سهيل أن يذهب ليشتري له بعض العصائر والأطعمة التي يحبها حتى أتمكن من الإنفراد به.

- أعلم جيدًا ماذا حدث لك.

هكذا أخبرته فتبدل لون وجهه بعدما كان شاحبًا لا روح فيه وصار كأن جيوش السكر كلها استعمرته للتو دفعةً واحدةً..

- لا تقل شيئًا الآن، لنا حديثٌ لاحقًا.

كم كنتُ أتمنى في صغري لو كان لي أخ نتبادل معًا الحكايات والأسرار ولكن تعلمتُ أن ليس كل ما نتمناه ندركه، من يدري ربما حان الوقت..

توالت الأيام بعدها وكنتُ حريصًا على أن ألازم بدر ولا أغفل عنه ولو ثانية..

وبدأ يتعافى وخرجنا في أحد الأيام نمشي معًا..

وبدأ يحكي لي قصته:

- كنتُ أتمنى أن أعيش مثل كل أصدقائي في بيتٍ هادئ بين أبٍ وأمٍ مُتفاهمين، ولكن ذلك لم يحدث أبدًا؛ فمنذ أدركتُ الأمور من حولي وأنا أجدهما يتشاجران، وينتهي الشجار بخروجهما فأبقى في المنزل وحدي برفقة الخدم، وكان جدي هو مصدر الأمان الوحيد بالنسبة لي، يُغدقني بالمال والحنان، ولكن ذلك لا يكفي.

فسألته بهدوء حتى يكمل فضفضته:

- وماذا حدث في ذلك اليوم الذي جئت فيه للمزرعة ؟

- أحد أصدقائي نصحني أن أعيش حياتي وأستمتع وأتركهم ومشاكلهم، ثم أعطاني هذا الدواء وأخبرني أنه مسكن لآلام النفس، وأنه سيريحني ويجعلني أنسى كل المشاكل..

- هل أخذت منه من قبل؟

- أبدًا هذه أول مرة أجربه، ولكنني قلتُ ماذا سأخسر؟ لن يهتم لغيابي أحد، حتى لو مت ربما إرتاحوا أكثر.

- ألم تفكّر في جدك يا بدر؟ وأختك هل نسيتها ؟

- هي تدبر أمرها، وجدي هو السبب فلو أنه أحسن اختيار والدي ما كان هذا حدث، ولو كان أحسن تربية ابنته ما كان هذا حدث.. لماذا يأتوا بنا لهذه الحياة ماداموا غير قادرين على رعايتنا؟ لماذا ؟

صرخ وانهار وبكى فاحتضنته وحاولتُ تهدئته..

عِدني يا بدر ألا تفعل ذلك ثانيةً ولن أخبر أي أحدٍ بما حدث..-

- أخبرهم أريدهم أن يعرفوا..

- يا غبي.. أنت تؤذي نفسك ولن تؤذيهم في شيئ.. إن كانوا كما تقول فلن يعنيهم أمرك، فكّر فقط في نفسك..

بعد هذه المحنة صرنا أصدقاء فقد كان الفارق بيننا في العمر فقط ست سنوات، لأن صقر ومشاعل تزوجا وهما في مقتبل العمر..

كانت الأيام تمر وصداقتنا تتوطد أكثر، وكانت زياراته للمزرعة تدوم لفترات أطول، عدا العطل التي تجتمع فيها العائلة فقد كان يتلافى لقاء والديه الذي ما كان يمر دون شجارهما معًا كالعادة..

وعاد مرةً أخرى للإهتمام بدراسته بعدما أهملها وكنتُ دائمًا أتابعه وأسأله عن كل ما يفعله طوال يومه، خشية أن يعود لما فعله سابقًا..

لم يعكّر صفو أيامي هناك سوى زيارات صقر المتنافرة، شاردٌ كخصلاتِ شعرٍ في زوبعة ريحٍ تئن، وعيونٌ أخذت من الصقور حدّتها وتربصها لانقضاضها على الفريسة في أقرب وقت..

لم تكن زياراته مريحةً لي أو لسهيل فكم عانينا من تعاليه وتكبّره وبرغم كِبَر سن سُهيل لم يكن يسلم من تطاوله..

ومهما حاول التلطف لرغبةٍ في نفسه كانت لنا جليّة، إلا أنه لم يستطع أبدًا التنصل من طباعه الحادة وكلامه الجارح..

ولم نمنحه ما كان ينشده من الإطلاع على معاملات الشيخ حمد وأسرار عمله..

لم أكن لأحتمل هذه الطباع لولا حُسن معاملة الشيخ حمد الذي غمرني بلطفه..

للبيـــوت أســـرار

القلوب الموصدة ذابلة على أوجاعها..

حين أوصدت أقفالها وألقت بمفاتيحها..

لماذا أتينا لهذا العالم ومن يحتاجنا؟

لم نعد تنتظر إجاباتٍ شافية لأسئلتنا..

لم يكن سهلًا أن أقترب من بدر بن صقر ولكن كتماني لسرّه كان بداية الصداقة التي نشأت بيننا، وحاجته لشخصٍ يسمعه ويحنو عليه..

كان للشيخ حمد مكانٌ خاصٌ به في منتصف المزرعة كنتُ مازحًا أسميه برج المراقبة..

كان عبارة عن جلسةٍ خشبيةٍ مرفوعةٍ عن الأرض بدَرَجٍ خشبي لتستقر أعلاه في شكلٍ يشبه البرج، يُطلقون عليها هنا باللهجة المحلية ـ العرزالة- وتعني بالفصحى عرين الأسد.

بالفعل كان الشيخ حمد يجلس بها رابضًا كأسد يفكّر في أحوال غابته الممتلئة بالوحوش والتي لو غفل عنها لحظة لفتكت به.

حين يجلس هناك لا أحد يجرؤ على الإقتراب منه أو الصعود إليه..-

هكذا نبهني سهيل في بداية تواجدي بالمزرعة.

ولكن عندما بدأ بدر بن صقر في التواجد في المزرعة كان يجلس هناك لمذاكرة دروسه خاصةً مع اقتراب موعد الإمتحانات، وهو لم يكن مستعدًا بالمرة..

كنت أجلس معه بعد الإنتهاء من أعمال المزرعة وأساعده في فهم دروسه فقد كان في الشهادة الإعدادية أو كما يطلقون عليها هناك -المتوسطة- أي المرحلة التي تتوسط ما بين الإبتدائية والثانوية.

كنتُ أحاول أن أبدد توتره وقلقه وأيضًا أخفف من إحساسه بالملل فهو لم يعتد على المذاكرة لفتراتٍ طويلة وكانت درجاته دائمًا فوق المتوسط بقليل.

نذاكر ثم نتحدث ونعود مرةً أخرى للمذاكرة..

أنس.. هل تعلم أن هذه أول مرةٍ يجلس معي أحد ويهتم بمذاكرتي؟-

هكذا قال لي ولمحتُ دمعةً في عينيه.

- **من الآن سوف أذاكر لك ولن أتركك أبدًا. لا تقلق أنت الذي ستملّ وتقول لي اتركني وارحل.**

وابتسمت لأخفف عنه ضيقه.

ترك حينها أوراقه وقلمه وبدأ يحكي:

أنس لا أحد يحبني، أمي تكرهني أنا ودلال أختي فهي لم تكن تريدنا..-

وكيف عرفت ذلك يا بدر؟-

- **كنتُ في العاشرة من عمري حين كانت أمي حاملًا في أختي دلال، وسمعتها تتحدث مع صديقتها وتقول لها أنا أكره صقر ولم أكن أريد منه أطفالًا يشبهونه، ولكن والدي يُصر على بقائي معه.**

رأيتُ والدي يدخل عليها بعدما سمع كلامها فأخذ منها الهاتف وحطمه، وضربها واتصل بجدي فجاء وأخذها وظلت عند جدي حتى ولدت أختي دلال..

ربما فهمت خطأ فأنت كنت صغيرًا كما تقول.-

- **كلا يا أنس، فقد سمعتُ بعدها الخادمات وهن يتحدثن عن ذلك.. الجميع يعرفون ما يدور بينها وبين والدي من مشكلات.**

انتابني الذهول لوهلة حتى استجمعتُ أفكاري..

واستكمل بدر حديثه:

- تزوج جدي حمد مرة قبل زواجه من جدتي حصة ابنة عمه، وأنجب من زوجته الأولى بنتًا اسمها شيرين هذا كل ما نعرفه عنها فهي تعيش مع والدتها ولم يرها جدي سوى مرات معدودة.

في بداية زواجه من جدتي حصة رزقهما الله بأمي (مشاعل) ولكن جدي كان مازال معلقًا بابنته الأخرى التي حُرم منها، فلم تشعر أمي بحنانه وظنته يهملها لأنه لا يحبها، لقد حاول مرارًا أن يخبرها بالحقيقة ولكنها لم تفهم.

هززتُ رأسي مُعلنًا فهمي مؤخرًا لسبب قسوتها وعنفها.

تذكرتُ حينها جدتي وكيف كانت تقول لوالدتي:

- للبيوت أسرار لا يجب أن يطّلع عليها أحد، خصوصًا الخدم فهم أسرع من النار في الهشيم في نقل الأخبار..

وكانت تحرص على أن تأتيها خادمتها في أي يوم خلال الأسبوع عدا العطلات والإجازات حتى لا ترى ولا تسمع ما يقوله أهل البيت، وكانت تحرص هي وأمي ألا تتحدثان أمامها في أي أمر..

أما الآن فالكثير من النساء بكل بساطة تخليّن عن أدوارهن للخدم، لتبحثن عن تطلعاتهن دون إحساس بالمسؤولية تجاه أزواجهن وأبنائهن.

لم تكن قسوة مشاعل فقط بسبب ما ظنّته تجاه والدها في صغرها، ولكن زاد عليه إحساسها بأن اختيار صقر زوجًا لها كان عقابًا من والدها، لما رأته من سلبيات في شخصية صقر وسوء معاملته لها، مسكينة تجمعت عليها كل الظروف، فلم تكن مشاعل نورٍ يضيئ الطرقات؛ بل كانت مشاعل نارٍ تنفث غضبًا.

قُطّـــاع طُـــرق

وحدك، تعيش أحلامك، تنقش حروفك على صفحة أيامك..

لا تهتم كثيرًا، ولا تكترث لما حولك..

عيونهم التي ترصدك، آذانهم التي تتلصص على همسك..

وأرواحهم التي ألقت بشباكها صوبك..

في عالم الظِلال تختار دربك، إما أن تكون ظِلًا لهم، أو تطرحهم خلفك..

نجح بدر في الشهادة الإعدادية وانتقل للثانوية بمجموع درجاتٍ مرتفعة للمرة الأولى يحققها..

وعرف الشيخ حمد بذلك ففرح كثيرًا وأراد مكافأتي، فأخبر سهيل أن يعلمني قيادة السيارة ويأخذني لاستخراج رخصةٍ للقيادة.

وهذا معناه ترقيتي من عامل في المزرعة إلى سائق..

وذلك إغداقٌ وفير في نهج العمالة هنا..

وبعد فترة كنتُ قد عرفت عنوان شركة الشيخ حمد وكان أحيانًا يطلبني لأذهب إليه وآخذه إلى المزرعة بالسيارة التي يتركها هناك..

ولكن في هذه المرة اتصل عليّ وطلب مني أن أذهب إليه في منزله..

حين وصلت وقفت عند مدخل -الديوانية- هذه القاعة الكبيرة التي تمتد من داخل المنزل في اتجاهٍ آخر غير المدخل الرئيسي للبيت لترتقي إليها عبر مدخلٍ خاص فتجد أمامك قاعة كبرى ذات أرضيات من الرخام والجرانيت وقد توشحت بأفخر أنواع السجاد الشيرازي يدوي الصنع ؛ فأنا أعرفه جيدًا من بيت جدي وكذلك أمي التي تمتلك واحدةً صغيرةً كانت قد أهدتها لها جدتي وهي مازالت معلقةً على إحدى جدران غرفة الصالون في شقتنا..

وهذا الأثاث الأنيق المنتشر في كل الجوانب واللوحات المعلقة على الجدران التي تتشابه كثيرًا مع تلك التي كانت معلقةً في بيت جدي، وأنا الذي تصورت أنهم مازالوا يسكنون بيوت الشعر.. يا لبلاهتي!!

قطع دهشتي صقر وهو قادم من بعيد يصرخ ويوجه كلامه إليّ:

- أنت يا ولد..

فلم أرد عليه، فكررها ثانيةً.

- من تقصد؟ أنا ؟

- نعم أنت يا ولد.. ومن غيرك؟

هل هناك أحد غيرك، أم أنك فتاة مثلًا؟

وضحك بسخرية فكدتُ أُهشم رأسه لولا أنني تمالكتُ أعصابي، وجاء صوت الشيخ حمد من بعيد:

- صقر.. ماذا تريد من أنس؟؟

فرد صقر موجهُا كلامه إليّ مُتجاهلًا كلام عمه وكأنه لم يسمعه:

- هيا اذهب واغسل سيارتي..

فتضايقتُ كثيرًا وقلت في نفسي هل جاء بي الشيخ حمد إلى هنا لأغسل سياراتهم؟

وصل الشيخ حمد مُوجهًا كلامه لصقر:

- اسمع يا صقر.. أنس ليس عاملًا بل رئيس العمال ومراقبًا عليهم، هذا هو عمله، ولكنني نصحته أن يتعلم كل أعمال المزرعة أولًا حتى لا يخدعه العمال فيما بعد ولا يعملون جيدًا.. هذا أولًا، وأما ثانيًا فلا شأن لك بأنس ولا تتعامل معه، أنس مساعدي الشخصي ولا أحد غيري يأمره..

ولمعلوماتك يا صقر أنس طالب بكلية الطب وحينما يعود لبلده سوف ينهي دراسته ويصبح طبيبًا مشهورًا..

أثلجت كلمات الشيخ حمد صدري وجعلتني أسترد بعضًا من كرامتي التي أهدرها صقر ومزق أوصالها.

طلب مني الشيخ حمد توصيله لشركته فسائقه الخاص اليوم مشغول مع زوجته والدة مشاعل، وسهيل لم يعد قادرًا على الخروج من المزرعة..

ركب الشيخ حمد وانطلقنا وفي طريقنا إلى الشركة وفي الزحام توقفت أمامنا سيارة تنقل أجهزةً كهربائية زفر الشيخ حمد أنفاسه في الهواء بنكهة الشجن والمرارة..

فسألته:

- **ماذا بك يا عمي ؟**

- **لا شيئ يا أنس..**

لا بل أشياء كثيرة، ذكرياتٌ مؤلمة أعادها منظر هذه السيارة التي أمامنا..

وبدأ الشيخ حمد يحكي بتأثّر شديد، وكأن ما يحكيه قد حدث بالأمس:

- **حين دخل الجنود العراقيون الكويت كنت وقتها قد توسعتُ في أعمالي وتعاقدت على توكيل لإحدى الشركات اليابانية للأجهزة الكهربائية، وفجأة جاءني اتصال من موظفي الشركة يستغيثون...**

سادت الفوضى في كل مكان وقام الناس بتحطيم واجهات الشركة الزجاجية ليدخلوا ويستولوا على الأجهزة الموجودة فيها..

- هل هذا معقول ما أسمعه؟ كيف حدث ذلك يا عمي؟
هكذا سألته فأكمل:

- نعم حدث، والمفاجأة أن المهاجمين كانوا غير عراقيين بل بعض مواطني الدول العربية والآسيوية، في هذا الوقت يظهر الناس على حقيقتهم وتسقط كل الأقنعة فمهما كانت قوتهم في الخداع فحتمًا هناك نقطة لا يمكن الإستمرار بعدها.
حين حدث هذا العدوان سقطت كل الأقنعة عن العرب، فظهروا من كانوا يتظاهرون بالتودد، وسقطت معهم كل الشعارات البالية ولم يبقَ بجانب الكويت سوى مصر وسورية والمغرب بالإضافة لدول مجلس التعاون الخليجي بالطبع.

الأمر لم يتوقف عند هذا الحد فربما ألتمس لبعضهم العذر، ولكن ما حدث بعدها كان أفظع..

- ماذا حدث؟

- فجأة توقفت سيارة عسكرية ونزل منها قائد الحرس الجمهورى وصرخ في جنوده فطردوا كل هؤلاء اللصوص، ثم دخل وجلس في مكتب مدير المعرض..

تنفستُ الصعداء وقتها وحمدتُ الله أنه جاء في الوقت المناسب وطرد هؤلاء الشرذمة، وحين انتبه

لوجودي سألني من أنا ولماذا لم أخرج مع الباقين.

أخبرته بأنني صاحب المعرض، وشكرته على حماية المعرض من السرقة، فأجاب بأن هذا واجبهم..

- وهل ذهبوا بعد ذلك؟
- أين ذهبوا يا أنس أنت طيب جدًا!!

لقد جلس ذلك الضابط المتغطرس وتمدد في جلسته كأنه أسد يجلس في عرينه منتصرًا ثم قال لا داعي للشكر،نحن جئنا هنا لحمايتكم..

- أي حماية؟ وممن؟

- نحن لم نطلب حماية من أحد، نحن شعبٌ مسالم ليس لنا أعداء..
- فرد عليّ بعصبية: نحن حاربنا المجوس ومنعنا زحفهم، نحن حُماة البوابة الشرقية للوطن العربي..
- فقلتُ له ونحنُ ساعدناكم ودعمناكم ولم نبخل أبدًا، فردّ وهو ينفث دخان سيجارته حممًا: أي مساعدة؟ فأنتم تريدون أن تستردوا ما دفعتوه، وكأنكم دفعتوه لنا.. نحن لم نأخذ شيئًا كانت كلها لدعم السلاح والحرب، والآن نحن نريد ثمن تضحيتنا والتعويض عن جنودنا الذين ضحوا بأرواحهم لأجل حمايتكم.

- وماذا كان ردك عمي حمد؟
- أخبرته أننا لم نفوض أحدًا لا نحن ولا بقية الدول العربية للدفاع عنا أو عن البوابة الشرقية كما قال، فما كان منه سوى أنه هاج وصرخ وقال أنتم من بدأتم، فأنتم تريدون استعادة الديون، وترسيم الحدود ولم تكتفوا بما سحبتموه من نفط من أراضينا وتدّعون أنه ملككم..

كل شيئ من الممكن مناقشته على طاولات الحوار وليس بالسلاح والغزو..

ما إن نطقت كلمة الغزو حتى هاج وماج وقال كيف تجرؤ على وصف حمايتنا لكم بالغزو؟ نحن نُصحح

وضعًا خطأ ونعيد الفرع للأصل، ثم نادى جنوده وأمرهم بنقل كل الأجهزة الموجودة بالمعرض إلى

سيارات النقل التي وصلت للتو ونقلها إلى بغداد..

وحين هممتُ بأن أخبره أنها ملكي، بادرني بجملة لا أنساها أبدًا: هذه غنائم حرب...

ذكرني حينها بقطّاع الطرق الذين كانوا يغيرون قديمًا على القوافل المارة ويسلبونهم ممتلكاتهم ثم يدّعون

أنهاغنائم حرب وهم مجرد لصوص قذرة.

أول الغيــث قطــرة

في منتصف كل شيئ..
حيلة الضعيف المهزوم، والمتآكلة جدران أحلامه والمنهار سقف أمنياته..
يقف دائمًا في المنتصف، في البقعة الباهتة للزمن، حيث يتوقف نبض الساعات وتتجمد في الأوردة ثورة الفكر وتؤول روحه للسكون.
هل أعجبك مكانه؟
لا تُطل عليه النظر أوترمقه بنظرة لوم.. مسكين من اختار البقاء في آخر الصفوف وظنّ أنه بأمانٍ من غدر الزمن.
الوقت لن يمهله والحياة من حوله تستمر..

الدكتور فايز:

في منتصف الأربعينات، أو هكذا بدا، طبيبٌ بيطري يزور المزرعة مرة كل أسبوع لمتابعة الحيوانات.

الصورة التي طُبعت في أذهاننا من خلال مشاهدة الأعمال السينيمائية حيث كانت والدتي وخالتي نجوى تجلسان وتتابعان بشغف فتى أحلام كل البنات حينها: (رشدي أباظة) وهو يروض فتاته، بخفة ظله حين ظهر في دور طبيب بيطري، يعالج الحيوانات

ويعالج فتاته أيضًا بنفس العلاج فتضحك أمي وخالتي ونضحك لضحكاتهن دون أن نفهم فقد كنا حينها صغارًا..

لم يكن الدكتور فايز يشبه رشدي أباظة بأي حالٍ من الأحوال، لا في خفة الظِل ولا في طريقة تعامله مع الحيوانات ولا حتى في حبه لعمله..

كان يلقي إرشاداته كطالبٍ يفرغ ما بجعبته سريعًا خوفًا من أن ينسى شيئًا من إجابات الأسئلة في الإمتحان ويحزم أمره ويذهب كما جاء..

استفسرتُ من سهيل عن طريقة تكاثر الخيول هنا وكل الحيوانات في المزرعة إناث، فقال:

- **الشيخ حمد يقوم بتأجير شاحنة مخصصة تقوم بنقل الإناث التي حانت دورة التزاوج عندها إلى مزرعةٍ أخرى تربي الفحول لهذا الغرض، ثم تعيدها بعدها هنا.**

ذات مرة اقترح أحد أصدقاء الشيخ حمد السفر بالإناث إلى دولة أوروبية للقيام بعملية التزاوج من سلالات عربية أصيلة بصفات مميزة، وبالفعل نقل الشيخ حمد فرستين بالطائرة وكلفته الرحلة الكثير من الأموال ولكن بعد عودتهما أجهضتا وفشلت المحاولة. فكرتُ كثيرًا ودرستُ الأمر من كل جانب، وكنتُ قد طلبتُ من الشيخ حمد جهاز كمبيوتر وخط اتصال بالإنترنت، وقد استجاب لذلك سريعًا بعدما وعدته بشرح الأمر حينما أنتهي من دراستي، ووافق.

- كيف حالك يا أنس؟ ألن تخبرني ماذا تفعل؟

هكذا سألني الشيخ حمد بعد غياب أسبوع، فأجبته:

- بلىٰ.. عندي لك أخبار جيدة.

ماذا بشّرني. -

- أبشر يا عمي.. يمكننا الآن استقدام السائل المنوي لأفضل سلالات الخيول العربية الأصيلة دون الحاجة لنقل المهرات، وإجهادهن.

فردّ متعجبًّا:

- كيف ذلك؟

فشرحتُ له بطريقة مبسطة دون إرهاق ذهنه بمصطلحات طبية معقدة:

- العلم تقدم كثيرًا، العلماء الآن استطاعوا تجميد السائل المنوي للخيول ذات السلالات المميزة والنادرة ثم حفظه مجمدًا ونقله بطريقة تحافظ عليه دون تلف، وبعد إذابته يتم حقنه في الإناث بطريقة التلقيح الصناعي، وبهذا لا نحتاج لنقلها من مكان لآخر..

تحمس كثيرًا الشيخ حمد، وسأل الدكتور فايز في زيارته التالية فأكد على كلامي، ودار بينهما حديثٌ مقتضب:

- لماذا لم تخبرني بهذه الطريقة؟

- يا شيخ حمد هذه العملية مكلفة جدًا، ولم أتخيل أنك ستوافق عليها فنسب نجاحها ليست كبيرة..

لم يكن رد الدكتور فايز مقنعًا بالنسبة للشيخ حمد، ففهم أن الدكتور فايز يقوم بعمله بشكل روتيني، دون اهتمام بمستجدات العلم أو ابتكار طرق جديدة تفيده، فأقصاه عن مشروعه الجديد.

حكايـــــات

كثيرةٌ هي الأحلام وكثيرةٌ هي توقعاتنا، نختار طرقاتٍ ونظن أننا إليها ننتمي..

وبعد خطوات نكتشف الفاجعة..

فالطريق مفروشٌ بالعثرات، ومن حولك تنتصب الإخفاقات واحدًا تلو الآخر..

فهل ستمضي فيه لآخره؟ تلك هي المشكلة.

كل الخيارات مؤلمة، ونتائجها بالفشل محسومة..

كان همس العمال فيما بينهم يزيد خاصةً بعد زيارة العائلة في نهاية كل أسبوع، حيث تجتمع الخادمات والسائقون معًا ويبدؤون في أحاديث لا تنتهي..

ثم تنتقل الأحاديث إلى عمال المزرعة..

وكان سهيل بالطبع مصدرًا غنيًّا بالمعلومات خصوصًا المعلومات القديمة التي تتعلق بحمد وزوجاته. وكان أنس مازال صغيرًا يستمع لكل ما يصل لآذانه وفي ذاكرته يختزنه.

عرف أنس قصة زواج الشيخ حمد من زوجته الأولى -خولة- حيث كان في سفرةٍ إلى باريس لعمل صفقة كبيرة ساعده فيها دبلوماسي كويتي هناك، وكان هذا هو والد خولة التي ولدت وتربت خارج الكويت تتنقل من بلد لآخر مع والدها وأسرتها، وكانت حينها استقرت في فرنسا بعد انتهائها من دراسة الفلسفة في جامعة السربون.

تعرّفت خولة على الشيخ حمد وتبادلا الإعجاب وبعدها طلبها للزواج فهذا هو الطريق الوحيد الذي يعرفه لتتويج هذا الإعجاب.

وبين رفض والدها ووالدتها وإصرار خولة هذه الفتاة المدللة التي لا يُرفض لها طلب وافق الأهل على مضض.. وتم الزواج.

وجاءت للكويت للمرة الأولى لتستقر فيها مع حمد، ولكنها رفضت السكن في منزل الأسرة مع إخوته وزوجاتهم واستأجر لها شقةً في موقع متميز وإطلالة ساحرة على الخليج كسكنٍ مؤقت حتى يبني لها السكن المناسب الذي يليق بها.

وبعد شهرٍ فقط بدأت خولة في الإحساس بالضجر والملل من الحياة المنغلقةً في ذلك الوقت وطالبت زوجها بالهجرة إلى فرنسا ونقل أعماله هناك، وبالطبع رفض الشيخ حمد..

تشابهت الأيام بعدها في المشاحنات والشجار الذي ينتهي دائمًا بجملةٍ واحدة:

- **أنا ضحيت لأجلك بمستقبلي وتركت أهلي وأجبرتهم على الموافقة عليك**

الحياة هنا في هذا المجتمع الذكوري لا تُطاق، أين أنتم من حقوق المرأة؟

وكثيرًا ما اصطدمت مع نساء الأسرة واحتدت في النقاش عليهن، وكانت تتهمهن بالخنوع لأزواجهن وأنهن يجب أن ينلن المزيد من الحقوق، حتى أنها كانت تدعوهن لرفض طاعة الأزواج وتدعوهن لرفض كل القيود وأشياء أخرى لم تفهمها الخادمات عندما كن يسمعنها من خلف الجدران..

كان الشيخ حمد يلتمس لها الأعذار؛ فهذه الحياة جديدة عليها ولا تعرف هنا أحدًا بالإضافة لتعب الحمل..

هذا الحمل الذي نزل عليها خبر معرفته كصاعقة، وأرادت التخلص منه ولكنه رفض بشدة، وقال لها:

- **إستغفري الله.. كيف تفكرين بقتل روح؟ هل جُننتِ ؟**

فردّت عليه بحنقٍ وغضب:

- **هذا الحمل جاء في وقت غير مناسب، يجب أن أكمل دراساتي العُليا وبعدها أفكر في هذه الأمور**

- **ماذا؟؟؟؟ هذه الأمور!!!!!!**

هل تتويج حبنا بطفل صغير يملأ علينا عشنا تسمينه أمور؟؟

هكذا صاح فيها حمد وتركها وخرج في قمة الغضب.

ومع تكرار المشكلات التي كانت تثيرها في كل لقاء -زوارة- اضطر الشيخ حمد أن يمنعها من هذه الزيارات تجنبًا لما تثيره من مشكلات بين إخوانه وزوجاتهم بسبب آرائها الغريبة على هذه البلاد.

ذكرت إحدى الخادمات ذات مرة أنها سمعتها تقول للنساء أن الأطفال يجب أن يُسجلوا بإسم أمهاتهن؛ فهن من تعبن في الحمل والولادة والتربية!!

زادت وتفاقمت المشكلات بينها وبين الشيخ حمد حتى طلبت منه أن تذهب لأهلها في فرنسا للراحة حتى يقترب موعد الولادة، ووافق هو بحُسن نيّة دون أدنى شك، ولكن بعد سفرها فوجئ باتصالٍ من والدها ينهره ويطلب منه أن يُطلق ابنته..

فتساءل مندهشًا:

- **ماذا حدث يا عمي؟؟**

خولة سافرت لترتاح، ولم تكن غاضبة أو متضايقة.

- **لا أريد أن أسمع شيئًا، كيف تضرب إبنتي وتهينها؟ ألا تعلم من هي وبنت من؟**

وحدث الطلاق رغم براءة حمد من كل ادعاءاتها، بل وحرمته لسنواتٍ من رؤية ابنته، حتى استطاع بعد مجهود كبير ووساطات من صديقٍ له عضو بالبرلمان أن يتمكن من رؤيتها.

بعيـــون أخـــــرى

خفقٌ يُعيد الحياة للوتر، يُشيع في الروح بهجة الأيّام، ويمحو للحزن أيّ أثر..

وتلتوي علي الوجنة دمعةٌ، تخبو ويهدأ جفنُها بعدما جادَ بها حين أطال النظر..

للحظة أساءَ الظنّ بالقدر، وعاد فاستشعر زوال الخطر..

فاطمأن حينها بأن الفرج يلاحقُ الشدّة ولا يتركها تنتظر..

فاجأنا الشيخ حمد بزيارةٍ يوم الإثنين -على غير عادته- وطلب لقائي في مكتبه في الفيلا، فذهبتُ إليه..

- **تعال يا أنس، اجلس..**

قالها بصوتٍ مسموع، فجلست أمامه أحاول أن أتذكر تفاصيل آخر زيارةٍ له، هل حدث منّي خطأ أو من أحد العمال؟ هل لاحظ وجود خلل ما؟

هذا الحديث الذي دار بيني وبين نفسي حتى قطعه قائلًا:

- جهّز نفسك للسفر معي قريبًا، حالما أستخرج لك تأشيرة دخول لأوروبا.

أذهلتني كلماته، حتى ظننتني أحلم، وسألته متعجبًا:

- أنا؟

حينها رد مبتسمًا:

نعم يا أنس أنت.-

كان الشيخ حمد حريصًا على عدم تعكير صفو زواج إبنتيه، وعدم التمييز بين أولاد إخوانه، فلو اصطحبَ أحدهما معه سيغضب الآخر ويضمرها في نفسه ولكن بصحبتي ستكون الأمور أهون، ولأنني كنتُ صاحب الفكرة ودرست كل جوانبها، فسيبدو هذا سببٌ وجيه..

وصلتُ للمطار بصحبة سهيل ،وقابلتُ الشيخ حمد هناك، فوجدته منهمكًا في الحديث بصحبة صديقٍ له..

نعم تذكرته، إنه نفس الشخصية الهامة الذي استطاع الضغط على الشركة التي عملتُ فيها في بداية مجيئي إلى هنا فأنهوا مشكلتي..

أشار إليّ الشيخ حمد وناداني..

أنس.-

تعالى هنا.

ثم تحدث إلى صديقه مُشيرًا بيده نحوي، ومفرجًا عن ابتسامة صغيرةعلى شفتيه:

هذا أنس مساعدي الجديد في المزرعة، الذي توسطتَ لحل مشكلته مع الشركة إياها..-

فهز صديقه رأسه دون أن تتغير ملامح وجهه..

- أنس؛ يمكنك الآن أن تذهب أينما شئت ولكن انتبه لموعد ركوب الطائرة ونلتقي في مطار باريس

جلستُ لفترةٍ بالقرب منهما ثم ذهبت للصلاة قبل أن ينادوننا لركوب الطائرة.

كان حديثهم بصوتٍ مسموع تتناهي إلى مسامعي بقايا كلماتهم..

- أنتم أيها التجار تعرفون من أين تؤكل الكتف كما يقولون، تتحكمون بالسوق والأسعار ولا شيئ يقف في طريقكم.

هكذا قال صديق الشيخ حمد..

آه تذكرت أين رأيته ثانيةً.. إنه عضو بمجلس الأمة رأيت صورته في الجريدة يطلقون عليه ملك الإستجوابات.. الجميع يعمل له ألف حساب.

- وأنتم أيها السياسيون تعرفون أصول اللعبة جيدًا وكيف تجمعون كل الخيوط بأيديكم، نحن بجانبكم مجرد هواة.

قالها الشيخ حمد وابتسم..

فأيقنت من حديثه وملامحه أن التجارة في السياسة أوفر حظًا وأضخم ربحًا من التجارة في المال.

بعدها انطلقا إلى صالة الدرجة الأولى وجلسا هناك يتبادلان أطراف الحديث وركبنا بعدها الطائرة والتقيتُ بالشيخ حمد بعد نزولنا في مطار شارل ديجول.

وهكذا سافرتُ بصحبة الشيخ حمد لأول مرة إلى بلدٍ أوروبي، وكم أبهرتني هذه الرحلة وغيرت الكثير من رؤيتي!

باريس ومنها إلى تولوز، ثم مونتوبان..

رحلة هادئة أعادت إلى النفس استقرارها وطمأنينتها، هل هذا الجمال على الأرض؟

كانت عيناي تختزن تفاصيل كل ما تقع عليه، تشرد مع هذا البساط الأخضر المنمق وكل قطعةٍ فيه حيكت بفنٍ وعناية، لا يوجد سطرٌ خارج الإطار..

لم تكن لي خبرة بالريف المصري، ولم أره إلا من خلال شاشات التلفاز..

فهل هو بهذا الجمال؟

قاطع سيل أفكاري الشيخ حمد وعيناي تكاد تعبر زجاج نافذة القطار فتلتهم هذا الجمال ثم تقطف منه باقةً تهديها لوطني..

أنس! أين ذهبت؟-

فأجبته بعدما عادت روحي لجسدي فجأةً:

- هنا.. معك يا عمي

فبادرني بالسؤال:

- هل أعجبتك فرنسا ؟

لم أرَ شيئًا حتى الآن سوى هذه الجنة، ولكنها تكفيني..-

- أنت لم ترَ شيئًا بعد يا أنس، انظر لهذا الجمال الممتد على جانبي الطريق، لوحات فنية رسمتها أيادي مبدعين.. إنهم يبدعون في كل شيئ يا أنس، يقومون بأعمالهم كما يجب.

- نعم بالفعل هم كذلك، ولكن أيضًا المواطن عليه دور كبير في المحافظة على هذا الجمال، ففي بلادنا حين تهتم الحكومات وتقوم بإنشاء بعض المرافق الجميلة تجد المواطن لا يكلف نفسه عناء المحافظة عليها، فيقطف الأزهار ويلقي بالمخلفات في أي مكان حتى ولو كان مكان سلال المهملات بالقرب منه.

وكان رد الشيخ حمد مقنعًا حين قال:

- يا بني هذه مسؤولية الحكومات فلو أنها اهتمت بتعليم الأطفال من البداية في المدارس كيفية احترام المرافق وأنها ملكية عامة تُسعد الجميع لنشؤوا على ذلك، ولكن المدارس تصب كل اهتمامها بالتعليم وحتى التعليم في بلادنا يحتاج لطفرة كبيرة لتنقله إلى نفس مستوى الدول المتقدمة ولكن بشرط أن يكون ذلك وفق خطط مدروسة وخطوات ثابتة، بالإضافة لرؤية متعمقة وحلول جريئة خارج الأطر المتعارفة والمعتادة.

تذكرتُ ساعتها إعلانات التوعية في التليفزيون المصري وأنا صغير التي كانت تقدم إرشادات مفيدة للأطفال بشكل غير مباشر..

ثم قطع الشيخ حمد خيط ذكرياتي.

- بعدما ننهي اتفاقاتنا سوف نرتاح ثم نذهب في جولة بأعماق باريس سوف تتذكرها طوال حياتك

وصلنا، وكانت اتفاقات الشيخ حمد مكللة بالنجاح ووعدونا بتسليمنا السائل المجمد قبل سفرنا مباشرةً..

في طريق العودة إلى باريس كان بصري مازال مُعلقًا بالنافذة كطفلٍ صغير يتابع حركة المناظر أمام عينيه ويكاد يختلط عليه الأمر فلا يعرف هل هو القطار الذي يتحرك أم الأشجار تمامًا كما كنت أفعل وأنا صغير حينما أركب مع والدتي المترو وهو يخترق شارع شبرا قبل إزالته وإحالته للتقاعد واستبداله بمترو الأنفاق فكنتُ أظن أن العمارات هي التي تتحرك من مكانها؟

وأما الشيخ حمد فكان يبدو عليه القلق والتوتر وكأن همًّا يتربص به ويوشك أن يفتك به.

كسر الشيخ حمد هذا الصمت وبدأ في الحديث عن صديقه النائب خالد:

- أتدري يا أنس أننا كنا زملاء في الجامعة، كان والدي وقتها يمتلك محلًا لبيع الأقمشة في السوق القديم وكان والد خالد عسكري بسيط متقاعد لا يملك سوى راتب التقاعد، ولكن خالد عرف طريقه منذ البداية ورفض أن يكون مثل إخوته وأصر أن يكمل تعليمه، كان يُدبّر أموره المالية بطرقٍ ملتوية مشبوهة، ودائمًا ما كانت تحوم حوله الشكوك في التورط في اختلاسات منذ أن كنا في الجامعة وحتى بعدها حينما عمل محاميًا ولكن دون أي دليل أو إثبات.

وهو الآن يخبرني أنه ينتظر اختياره وزيرًا.

أليس هناك أصولًا وأعرافًا لاختيار الذين يشغلون هذه الوظائف الحساسة؟-

ففي مصر قبل ثورة يونيو 52 أيام الملكية كان اختيار الذين يشغلون الوظائف المرموقة يشترط أن يكونوا من أصولٍ عريقة وأسرٍ يُشهد لها بالنزاهة والأصالة.

هذه القيم والمبادئ التي تسري في العروق مجرى الدماء لم تأتِ من فراغ؛ بل هي تشبه شفرة الحمض النووي بالخلايا، تتشارك فيها الأسر وتتوارثها عبر الأجيال، تنتقل من جيلٍ لآخر حاملةً معها عراقة الأصل ونضج الفكر ونقاء السريرة وبراءة الذمم والضمائر.

- فعلًا يا أنس.. الأصل مهم جدًا ليس فقط للوجاهة والمظاهر ولكن البيئة التي يتربى فيها الإنسان بالضرورة تؤثر على حياته المستقبلية وتشكّل شخصيته.

حين تولى صدام حسين رئاسة حزب البعث ورئاسة دولة العراق كان هناك الكثير من المؤيدين له، ولكن بعد توليه بفترة بدأ تصفية حساباته مع كل من كان ضده وحتى من كانوا يساندونه، فقط ليستأثر بالحكم وحده دون منازع وخوفًا من أن ينقلب عليه أتباعه كما انقلب أعضاء حزب البعث من قبل على نظام عبدالكريم قاسم.

كان صدام من أسرة فقيرة معدمة وبعد وفاة والده في صغره وزواج والدته وتخليها عنه عاش مع خاله عيشةً قاسية فطبعت الكثير من قساوتها علي روحه وأعمت بصيرته..

فكيف لشخصٍ مشوّهٍ نفسيًّا أن يحكم بلدًا؟

جـــولة سياحيـــة

عُدنا لباريس، لنرتاح قليلًا في الفندق ثم ننطلق في جولة سياحية، فتحتُ نافذتي لأرى منظرًا لم أنسَه أبدًا..

كانت آخر خيوط الضوء تصارع الغروب في الحارات الصغيرة التي تشق طريقها بين البنايات العتيقة المستلقية على الطرقات بأناقة وزهوٍ..

وتستبدل الحارات أشعة الضوء المنسحبة بهذه الأضواء الملونة التي تتسلل من نوافذ المطاعم الصغيرة والمقاهي المنتشرة..

تذكرتُ حينها بسمة، وتخيلتها تجلس خلف إحدى هذه النوافذ الملونة تستمع لعزفٍ على البيانو وتحلّق معه بروحها في الفضاء، وربما كانت هي العازفة كما كانت تجلس ونحن صغار ويهطل شعرها الأسود على كتفيها وظهرها، وعيناها تهيمان في فضاءٍ بعيد وتداعب أناملها الرقيقة أصابع البيانو وتدعوها ليعزفوا معًا أعذب الألحان فلا أدري هل الصوت قادم من هذا الصندوق الخشبي أم أنه قلبي يردد أنغامهم، بينما تلامس أصابعها أضلعي لتعزف عليها مقطوعتها فتئن شوقًا.

انطلقتُ مع الشيخ حمد وبعد نزولنا وعبورنا في هذه الممرات التي رحُبت عند مرورنا فيها عكس ما بدت لي من فوق.. كانت هذه

الأضواء تسبقنا فتتكسّر أشعتها عند سقوطها على الأحجار الصغيرة المتراصة كبساط ممهد للعابرين..

وأصوات خطواتنا تتناغم مع أصوات ارتطام حَدْوات الخيل تجُرُّ عرباتٍ انتعشت بالركاب..

وخلال عبورنا وكلما مررنا بمقهى صغير تتسرب من نوافذه أصوات معزوفات بتهوقن وباخ مع بصيص الضوء النافذ من مصابيحها الخافتة، تأخذني لصومعة خالي سامح والألوان من حوله في كل مكان ويلتقط بأنامله الفرشاة بعدما لطّخها بمزيج من الألوان حتى ظننتُ أنها سوف تمحو كل ملامح الصورة التي يعكف على رسمها، ولكن ما أن تلمس فرشاته وجه اللوحة تمنحها روحًا وتعطيها ألقًا، بينما يشدو خلفه الجرامافون همسًا بسيمفونيات شوبان..

وانحدرنا مع الطريق لنصل إلى حي مونمارتر وهؤلاء الرسامون قابعون على لوحاتهم، تجلس أمام الرسام لدقائق كما كانت تجلس بسمة أمام خالي، ثم تدهش بعدها حين ترى وجهك..

هؤلاء الرسامون ينفذون إلى روحك فيخرجوا منك آخر لم تَرَهُ من قبل.-

هكذا همستُ فسمعني الشيخ حمد فسألني:

- ماذا قلت؟

فأعدتُ عليه كلماتي فتعجب..

كنتُ أعلم أنك درست سنةً بكلية الطب، لكنني لم أكن أعلم أنك تمتلك هذا الحس الفنيّ..-

هكذا علق الشيخ حمد، فأخبرته عن تجربتي مع خالي ورسوماته وكيف أثّر في شخصيتي وجعلني أحب الفنون.. كالرسم والموسيقى..

ليس بالضرورة أن تتقن عمل كل الأشياء، يكفيك أن تكون لها متذوق بعمق..

وبينما نحن نتنقل بين الصور كان أحد الرسامين يمسك بكرسيه ولوحاته ليفترش مكانه فصدمني وكدتُ أن أسقط فقال لي:

- Je suis desole.

- Tu vas bien?

فسريعًا أجبته:

- Je vais bien, C'est bon.

وحينها سألني عن جنسيتي وحين عرف أنني مصري عبّر عن عشقه وولعه بالآثار الفرعونية ورغبته في السفر لمصر لزيارة المعابد هناك ورسم تمثال رمسيس الثاني.

تعجب الشيخ حمد من حديثي مع الرسام الفرنسي باللغة الفرنسية، وسألني:

ماهذا يا أنس؟ أين ومتى تعلمت اللغة الفرنسية؟-

- والدتي تعلمت في مدارس فرنسية مثل كل بنات الأسر الراقية في هذا الوقت حتى وصولها للجامعة ثم درست الأدب الفرنسي بكلية الآداب.

ثم أكملتُ حديثي للشيخ حمد:

كانت والدتي حريصة على تعليمنا أنا وأخواتي اللغة الفرنسية حتى صرنا نتحدثها بطلاقة تمامًا كاللغة الإنجليزية بالرغم من التحاقنا بالمدارس الحكومية حيث أنه في هذه الفترة تدهورت حالة التعليم بالمدارس خصوصًا المدارس الخاصة حيث ظهرت فئة جديدة في المجتمع فئة مُحدثي النعمة من المُستنفعين من عصر الإنفتاح الإقتصادي الذين جاؤوا من أصول بلا علم ولا ثقافة تفتقر جيناتهم للموروث الثقافي والفكر المتحضر وجذورهم هشة نمت بعشوائية تحت سطح الأرض..

فئة جديدة ظهرت بشكل عشوائي فأربكت طبقة المثقفين وقضت على الطبقة المتوسطة في المجتمع، فلم تعد هذه المدارس وجهة المثقفين وأبناء الطبقة الراقية بل أصبحت وجهة من يملكون المال لشراء شهاداتٍ لأبنائهم ليغطوا بذلك على جهلهم السافر.

تنهّد الشيخ حمد تنهيدةً طويلة ثم قال:

- أنا كل يوم أكتشف فيك جديدًا لم أكن أعرفه.

لم تكن تنهيدة الشيخ حمد على قدر دهشته لمعرفتي باللغة الفرنسية، ولكنني شاهدتُ في عينيه حزنًا عميقًا ونظرات لهفة وترقب، وكأنه ينتظر شيئًا مهمًا وعيناه تبتلعان شاشة الهاتف وكأنهما تتلهفان لرنينٍ يطلب ودّه.

عدنا لنرتاح وفي الصباح كانت لنا جولةٌ أخرى..

في الصباح الباكر إنطلقنا في سيارة أحضرها لنا الفندق، تنحدر بنا عبر الوادي ثم تصعد، تأخذنا من شارعٍ لآخر حتى وصلنا إلى ميدان الكونكورد.. أو كما يسميه الفرنسيون ميدان الثورة، حيث ثار فيه الفرنسيون على ملكهم لويس الخامس عشر وأعدموه وحولوا بلادهم إلى النظام الجمهوري..

هذه الميادين التي تختلط فيها مشاعر البشر ومعاناتهم، فتنصهر لتشكِّل ملحمةً تحكيها بعدهم أجيال وأجيال، وتُغير ملامح الزمن..

كان أجمل ما يميز الميدان هذه المسلة المصرية التي تُعامل بكل تقديرٍ واحترام..

هدية من بلدٍ تاريخه المعتق يضرب جذوره لآلاف السنين.. يزخر كل شبرٍ على أرضه بالكثير من الآثار، حين يهدي قطعةً فنيةً لبلدٍ يمتد تاريخه لبضعة قرونٍ فقط فهي قيمةٌ كبيرة وهديةٌ لا تقدّر بثمن تقديرًا لجهودهم في التنقيب والبحث عن هذه الكنوز..

عدتُ بذاكرتي لبلادي، ورحلاتنا المدرسية للمتحف المصري، وكم كنا نقف صغارًا في هلعٍ وقاماتنا الصغيرة ربما لم تتجاوز ارتفاع قدم الفرعون، نهرول للطابق الثاني حتى نرى رأسه يطل بين الجدران حبيسًا وأنا أشير بإصبعي نحوه مفاخرًا وأقول لزملائي هذا هو جدي الكبير.

وها هو يقف وقد تكدست من حوله تماثيل الأسرة الرابعة وربما الخامسة ثم نلتفتُ خلفنا لنجد القناع الذهبي لأصغر ملوك الأسرة الثامنة عشرة.. وأقصد هنا توت عنخ آمون..

كل قطعةٍ من هذه القطع يمكنها أن تشغل متحفًا بذاتها..

ثم أنطلقُ خارج أسواره، وفي ذاكرتي مدينتي وهذا الدخان قد أحكم على فضائها قبضته ونفث في سُحبها غليونه..

أشار الشيخ حمد بيده فنظرتُ لأرى نهر السين يبدو في انسيابه كسيولٍ تكتسح في طريقها حبات الماس تعكس أشعة الشمس في العيون..

ساعتها قال الشيخ حمد:

- أنظر يا أنس! شاهِد جمال ونقاء النهر.. كم يحزنني كلما زرت القاهرة معاملتكم لنهر النيل وإساءتكم إليه! هل من المعقول أن يكون هو شريان الحياة لمصر ويلقى كل هذه الإهانة؟

هذه المخلفات التي تُلقى به وهذه الشوائب العالقة في مياهه فتعكر صفوها، وهذه القاذورات الملقاة على جانبيه؟؟ من المسؤول عن كل هذا الإهمال؟

كانت كلمات الشيخ حمد تضربني في مقتل ولا أملك الرد.

رن هاتف الشيخ حمد فردّ بلهفةٍ لم أرها في عينيه من قبل، كما لم أرَ فيهما هذا الإنكسار بعدما سمعتُ صوتًا نسائيًا على الطرف الآخر تقول صاحبته ببرود:

- **Pardon,Je suis trop occupe,Je ne….**

فقاطعها الشيخ حمد بعصبية وقال لها:

قلتُ لكِ حدثيني بالعربية، كيف مشغولة؟ ألا تستطيعين أن تتفرغي للقاء والدك مجرد دقائق؟ -

وانقطع الإتصال بينهما..

وقفتُ مُتجمدًا أبتلعُ أنفاسي كي لا تخدش هذا الوجوم الذي بدا على وجهه ورأيته كما لم أره من قبل..

كانت كل ذراته تنتفض، وعيناه بدت وكأن أنهار الدم أُريقت بها للتو وفاضت، حتى ظننته سيخر كجبلٍ أصابه وابل من علّ.

أشار الشيخ حمد لسيارة تاكسي وعدنا يلفنا الصمت حتى وصلنا للفندق، تمنيت لو لم يأتِ هذا الإتصال الذي عكّر مزاج الشيخ حمد

وقلبه رأسًا على عقب حتى أفوز برؤية بعض القطع الفريدة من لوحات دافنشي وبقية مقتنيات متحف اللوفر فقد عزم الشيخ حمد على زيارته لولا الإتصال..

في بهو الفندق تركني الشيخ حمد وهو يقول لي دون أن يلتفت:

نلتقي يوم السفر بعد غد يا أنس، أنت حر اذهب أينما تشاء فأنت تعرف لغتهم وتعرف كيف تتصرف.-

ثم تركني واتجه نحو المصعد.

كان الشيخ حمد عند وصولنا إلى فرنسا قد أعطاني مبلغًا من المال من فئة اليورو وحين أخبرته أنني لا أحتاجه، فقال ربما احتجت أن تشتري شيئًا..

وافـــــد

وها أنتَ تُطلق عينيك لتتجول في هذا الكون الفسيح فتُدهشك كثرة تفاصيله، وترهق تفكيرك..

ماذا لو خُلق الكون كله متشابه؟ والبشر متشابهون؟ لا أبيض ولا أسود.. جميعنا بنفس اللون..

لم أرَ الشيخ حمد طوال اليوم التالي، ولم أحب أن أتطفل عليه لأطمئن على حاله بعد مكالمة أمس وما تركته من أثرٍ بدا جليًّا عليه، ففكرتُ في الخروج بمفردي ومشاهدة هذه المدينة العتيقة التي تُشكّل أبنيتها لوحةً فنية تمتزجُ فيها الأصالة والعراقة بالمعاصرة في تناغم فريد وأنيق..

آثرتُ التنقل مشيًّا حتى أستمتع أكثر فأنا لا أقصد وجهةً محددةً، وتركتُ نفسي للأزقّة والحارات الملتوية تأخذني يمينًا ويسارًا وأنا مستمتعٌ بمنظر البنايات العتيقة من حولي وهذا الحجر الذي يحتضن خطواتي ليصيغ من وقعها عليه أجمل عزفٍ يذكرني بشوارع القاهرة القديمة حين كنا نتجول أنا وأصدقائي في ليالي رمضان في الجمالية، نمر عبر الحارات الضيقة فنمتع أعيننا بمنظر الفوانيس والأضواء المعلقة خصيصًا لاستقبال هذا الشهر، ونستمتع بعزف أحدهم على آلة العود وفي خيمة مجاورة هناك من ينشد في مدح الرسول صلى

الله عليه وسلم، ونتجول بين دكاكين خان الخليلي ونصل لقهوة الفيشاوي وما يجاورها من مقاهٍ لا تقل عنها أصالةً وجمالًا غير أنها نالت شهرتها الواسعة لجلوس أديبنا نجيب محفوظ عليها ورُكنه الذي مازال موجودًا حتى الآن شاهدًا على كتابة أجمل الروايات..

مازالت رائحة الشاي المعطر بأعواد النعناع الأخضر تخترق ممرات أنفي ولا تبرحها، ثم نتناول السحور في أحد المطاعم التي تمتد بطول الشارع المؤدي إلى المشهد الحسيني، ثم نصل إلى مسجد الحسين لنصلي الفجر.

آه كانت أيام..

بدا أمامي مقهى صغير على زاوية الشارع ذكرني بمقهى الصحافة حيث كنتُ أجلس من والدي..

كنا مازلنا في الصباح الباكر ويبدو أنني كنتُ أول الزبائن فجلستُ وجاء النادل، كان مازال يرتب الطاولات والكراسي على جانبي المقهي، جاء وحيّاني:

- Bonjour.

وحين بادلته تحية الصباح سألني عن طلبي فطلبت قهوة تركية.

ابتسم النادل ثم بلهجةٍ عربية يستجمع حروفها بصعوبة سألني:

- هل أنت عربي؟

فابتسمت وأخبرته أنني مصري وأخبرته أنني أجيد الفرنسية فلا حاجة له للنطق بالعربية إن كانت ستصعب عليه.

شعر بالارتياح لعرضي وأخبرني أنه من أصل تركي، والده من قبرص التركية، وأما والدته فهي فرنسية..

جاء والده إلى فرنسا منذ الستينات وتعرّف على والدته وأحبا بعضهما وتزوجا وعملا معًا وهما الآن أصحاب هذا المقهى.

كان -أوزان- سعيدًا جدًا بالحديث معي، حين سألته عن معنى اسمه فأخبرني أنه باللغة التركية يعني الشاعر، حيث كانت والدته تريد تسميته باسمٍ آخر لكن والده أصر على هذا الاسم لأنه اسم والده.

- **أوزان؛ ألا تشعر بالحنين لوطنك ؟**

- **أنا لا أعرف تركيا أو حتى قبرص كثيرًا أزورهما كسائح فقط، وُلدتُ هنا وعشت طوال حياتي، لم أشعر أنني غريب في هذا البلد ومن السهل أن أحصل على الجنسية الفرنسية ولكنني لا أحتاج لذلك.**

- **كيف، ألا تشعر بالمضايقات من الفرنسيين وأنت وافد هنا ؟**

فردّ متعجبًا:

- **ولماذا يضايقونني؟ أنا أعمل مثلهم، وأدفع الضرائب لأحصل على حقوقي في العيش بسلام وأمان، لا أحد هنا**

أفضل من أحد مادمتُ أعيش بشكل رسمي، وأقوم بعملي وأسدد ضرائبي فلا فرق بيننا، لا يوجد هنا مصطلح وافد..

هذا المصطلح يستخدمه فقط العرب للأسف، فلي أصدقاء من تركيا ومن تونس والجزائر ذهبوا للعمل بالخليج ولكنهم لم يتحملوا هذه الضغوط التي تعرضوا لها والزيادة المستمرة في فرض الرسوم دون أن ينالوا الخدمات المعادلة لقيمتها، فجاؤوا إلى هنا ليعيشوا بشكل أفضل حتى وإن كان صافي دخلهم أقل.

تذكرتُ حينها ما حدث في المزرعة بعد تواجدي فيها بعدة أيام وأنا مازلتُ متأثرًا بما حدث لي وقت الإضراب والعاصفة، حين صرخ (مينا) وهو أحد العمال المصريين بالمزرعة يشكو من آلام مبرحة في بطنه فعرض عليه زملاؤه نقله إلى قسم الطوارئ في المشفى القريب فرفض وقال لهم لا سوف يزول الألم بعد فترة وعندما أصروا قال لهم أنه لن يستطيع دفع تكاليف المشفى من فحص وأشعة وربما بعض التحاليل ستُطلب منه، قائمة طويلة يجب عليه تسديدها وهو بالحقيقة لا يملك ثمنها.

فغضب زملاؤه وأخبروه أنهم سيستجمعون المبلغ من بعضهم ويسددونه عنه، حينها وصل ناصر زوج ابنة الشيخ حمد بالمصادفة وما إن عرف بما حدث أخذه في سيارته ونقله للمشفى وكادت زائدته الدودية أن تنفجر لولا وصول ناصر في الوقت المناسب.

تكفل يومها ناصر بالتكاليف كلها ولولاه لظل مينا يسدد لزملائه ما دفعوه لعدة أشهر تالية.

تركني أوزان لأستمتع بمذاق قهوتي مع أصوات تغريد البلابل والعصافير في ساعات الصباح الباكر وقبل ازدحام الشوارع بالمارّة، ولكن كيف لي بذلك وأنا مازلتُ أُعيد كلماته عن الحريّة والاستمتاع بحقوق العيش هنا وأُفكر فيما يحدث في بلادنا وكيف تمددت مشاعر الكِبر واحتلت مواضع الرحمة والتعاطف والترابط بين أبناء أُمة واحدة يجمعهم دين الإسلام، وهؤلاء الغرب الذين لا يجتمعون على دين أو ملّة، لا ينظرون إلى لونك أو جنسك أو موطنك، هم فقط يتعاملون مع إنسانيتك، ويحترمون روحك.

في مســـجد بــاريس

تذكرتُ أن اليوم هو الجمعة فهو هنا يوم عملٍ عادي، ففكرتُ أن أقوم بنزهة قصيرة قبل موعد صلاة الجمعة.

وأخبرتُ أوزان أنني سأغادر المقهى، فسألني إذا ما كنتُ بحاجةٍ لتاكسي، فأخبرته بالإيجاب..

- دقائق وسيكون هنا التاكسي

هكذا أخبرني أوزان.

شاب طويل البنية ذو بشرة بيضاء مشوبة ببعض الحمرة نزل من سيارة تاكسي وصافح أوزان ثم سأله عن أحواله، وأحوال أسرته وأعطاه علبة دواء وأخبره أنها هي التي كان يبحث عنها لوالده، وحين طلب منه أوزان أن ينتظر ليحضر له ثمنها، قال له حين نلتقي في المرة القادمة.

أخبرني أوزان أنه هو السائق الذي ننتظره، ثم ذهبتُ معه..

هل أنتَ خليجي؟-

- أنا مصري.

- واش راك.. مرحبا بيك خويا..

ودار بيننا حديث استمتعتُ كثيرًا به..

حين سألته منذ متى وهو هنا فأجابني أنه هاجر إلى فرنسا منذ عدة سنوات كالكثير من شباب بلاد المغرب؛ ثم أكمل حديثه عن الإحتلال الفرنسي وما يقوم به من محو وطمس هوية البلد التي يستعمرها؛ فالفرنسيون يمنعون تدريس اللغة الأصلية للبلد ويفرضون لغتهم اللغة الأولى في المدارس، وبهذا نشأ جيل جديد ثقافته ولغته الأولى هي الفرنسية، وصار العيش في فرنسا هوسهم ومبتغاهم، خاصةً بعد استشراء الفساد في الحكومات وسطوة وسيطرة مجموعة من رجال الأعمال المستفيدين من كل موارد البلد وترك الشعوب فقيرة.

هذه الكلمات التي أصابت كبد الحقيقة، ولم تكن فقط حالة البلدان التي وقعت ضحية الإستعمار الفرنسي، بل معظم بلدان الوطن العربي..

فجال بخاطري أحاديث والدي وجدي التي لم أفهمها في صغري عما حدث في مصر عندما فُتح المجال لرجال الأعمال والمستثمرين ومنحهم بعض التسهيلات، التي يبدو أنها لم تكن كافية لسد أطماعهم فهيمنوا على كل المجالات وفرضوا شروطهم بعدما غزوا مجال السياسة ليفصّلوا ويحيكوا بأيديهم ما يناسبهم من القوانين والامتيازات.

ثم تذكرتُ ما تناهى إلى سمعي من حديث الشيخ حمد في المطار مع صديقه النائب والذي ينتظر القرار ليصبح وزيرًا، وبالطبع القرارات الجديدة كلها جاهزة ومُرتبة في درج مكتبه تنتظر التنفيذ..

واش بيك خويا؟-

قطع -عمران- استغراقي في التفكير بكلماته التي لم أفهمها فكررها بالمصري: مالك يا أخي؟ أين سرحت؟

- عفوًا نسيت أنني لم أعرفك بنفسي أنا أخوك عمران من الجزائر.

ابتسمت وأخبرته أنني فقط تذكرت بعض الأمور، فعرض علي أن يتجول بي في شوارع باريس حتى الغروب فاللوحة التي ترسمها خيوط الضوء المنسحبة من على صفحة نهر السين تمتلك سحرًا خاصًا..

وحينها لمحنا برجيّ كاتدرائية نوتردام يغزيان القبة الزرقاء بشموخٍ وعظمة فوعدني بالذهاب إليها خلال هذه الجولة، فأخبرته بأنني متفرغ هذا اليوم ولا شيئ يشغلني، فقط أحتاج الذهاب لصلاة الجمعة ومن ثَم ننطلق.

وبينما نحن نتجول في شوارع باريس سألتُ عمران السائق كيف احتفظتْ باريس بهذا الطراز وهذه الواجهات العتيقة التي تعود لسنواتٍ طويلة فأخبرني أن فرنسا حين هاجمها هتلر في عام 1940

خلال الحرب العالمية الثانية، حين علمت الحكومة الفرنسية بدخول القوات النازية إلى عمق فرنسا هربت الحكومة الفرنسية وأعلنت باريس مدينة مفتوحة، وبهذا لم تحدث أي مواجهات عسكرية في العاصمة، وبعدها بأسبوعين وقّع الألمان والفرنسيون الهدنة فكان الجزء الشمالي والغربي من فرنسا تحت سيطرة ألمانيا والجزء الجنوبي تحت سيطرة إيطاليا وبقي جزء صغير فقط سموه المنطقة الحرة.

وتزعّم شارل ديجول حركة المقاومة من منفاه وترأس أول حكومة فرنسية عام 1944.

وظلت باريس محتفظة بطابعها الكلاسيكي القديم بفضل قانون صارم وُضع للحفاظ على هذا التراث الإنساني العتيق.

إندهشتُ من كثرة معلومات عمران وكأنه أفضل من أمهر مرشدٍ سياحي، حتى أنه حكى لي تاريخ الكاتدرائية منذ أن كانت كنيسة بديعة بنيت في القرن الخامس الميلادي والتطورات الهائلة في تشييدها حتى وصلت للشكل الموجودة عليه الآن.. مما أثار إعجابي وسألته عن سر معرفته بكل هذه المعلومات، فأجابني قائلًا:

لقد تعلمت من جدي الإهتمام بعملي مهما كان صغيرًا..-

وبدأ يحكي عن جده وأنه كان تاجرًا ماهرًا يعرف أصول التجارة والطرق السحرية للمكسب ومن ضمن أسرار جده أن أي عملٍ تقوم به يجب أن تؤمن به وتعتبره أهم وظيفة مهما صغرت وألّا تكتفي بما

وصلت إليه بل دائمًا تضع عينًا على خطوتك الحالية والعين الأخرى على الخطوة التالية، ثم لا تنتظر حتى يمنحك أحدٌ حقك بل مدّ يدك لتأخذه بنفسك.

- وكانت وصية جدي دائمًا: المنافسة، ثم المنافسة.. لا تهرب من المنافسة، إذا أردت أن تبيع ورقًا فاذهب إلى سوق الورق وافتح محلك، ثم إعمل بجد واجتهد أكثر وأكثر، وكن دائمًا بشوشًا وتودد إلى كل الناس حتى وإن لم تكن تحبهم.

هكذا ختم عمران كلماته عن جده وتركني في ذهولٍ مما سمعته..

فأنا لم تكن لي أي خبرة بأمور التجارة ولم أعرف شيئًا عن أسرارها.

اقتربنا من مسجد باريس الكبير حيث كانت منارته المربعة تغزو السماء بارتفاع يزيد عن عشرة طوابق..

أخبرني عمران أن هذا المسجد بُني تكريمًا للجنود الجزائريين والمغاربة الذين شاركوا في الدفاع عن فرنسا في الحرب العالمية الأولى وأنه مبني على الطراز الأندلسي المستوحى من مدينة فاس المغربية وتلمسان الجزائرية.

تعجبتُ لدقة معلومات عمران في شرح تاريخ المسجد كما كانت في شرح باقي الأماكن، وكأنني أصطحب مرشدًا سياحيًا..

وبعد وصولنا سألته:

- ألن تدخل معي للصلاة؟

فابتسم ورد بهدوء:

- سأذهب لأوقف السيارة في المكان المخصص للإنتظار.

فأخبرته أنني سوف أنتظره حتى يعود، فردّ مبتسمًا:

أنا لا أصلي في المسجد فأنا يهودي، سأنتظرك حتى تنتهي.-

نزلت على رأسي الصاعقة ككتلة من الحمم للتو فارت من رأس بركانٍ ثائر فلثمتني وأبت أن تتركني..

لم أستطع ابتلاع دهشتي وتلك الغصة التي للتو رشقت خنجرها في صدري، تذكرت محمد الدرة مُكومًا خلف والده في العام 2000، ، تذكرت حصار رام الله عام 2002، تذكرتُ جثث الفلسطينيين الملقاة هنا وهناك جراء قصفٍ عشوائي، سيلٌ من الحوادث والذكريات قبلها وبعدها لا تُنسى.

تركته ودخلت الى المسجد، لم يلفت انتباهي هذه الحديقة الضخمة التي تُذكّرك بحدائق قصر الحمراء في غرناطة، ولم ألتفت للنقوش الزرقاء وقطع الفسيفساء الملونة التي اكتست بها الجدران ولا هذه النوافذ ذات الزجاج الأخضر.

كانت فقاعة الصدمة تبتلعني رويدًا رويدًا كخلية أكولة تبتلع جرثومةً هاجمتها، وأنا لا أملك أي مقدرة على الانفلات منها؛

فالصدمة شلّت كل حواسي وامتصت هالتي، حتى أنني أردتُ لو غمرتُ رأسي في مياه حوض هذه النافورة الباذخة في وسط الحديقة

لا أدري كيف انقضت الصلاة، ولا أتذكر أي كلمةٍ مما قالها هذا الخطيب المفوّه المشهور بخطبه العميقة المعاني ومواقفه المؤثرة التي يحترمها جميع الفرنسيين بجميع طوائفهم ودياناتهم.

انتهت الصلاة وخرجت وأنا أتمنى أن ماحدث كان من خيالاتي أو أنه مجرد حلم، ولكن ما إن خرجت حتى وجدته في إنتظاري..

كان صوته وهو يناديني كأصوات طلقات المدافع تقصف غزة، وأزيز طائرات تلقي قذائفها على العريش..

كانت والدتي تحكي لنا أنا وأختي رقية أنها كانت تسمع أصوات أزيز الطائرات في عام 1967 تخترق سماء القاهرة حين قصفت المطارات العسكرية..

ياإلهي ماذا دهاني ومع من كنتُ أتحدث؟

قاطع حديثي مع نفسي وسألني:

- ألن نذهب الآن لجولتنا ؟

فأجبته والذهول مازال يتملكني:

- لا أريد، غيرت رأيي.. خذ حسابك وسوف أتنقل هنا سيرًا.

فتساءل مندهشًا:

- **هل ضايقتك في شيئ أخي أنس؟**

فأخبرته أنني لا أريد تاكسي وأنني غيرت خططي، وتركته وهممتُ بالانصراف فأوقفني وقال لي:

- **لماذا تغيرت بعدما عرفت أنني يهودي؟ أنا فعلًا يهودي ولكنني لست صهيونيًا.. فلماذا تحاسبني على ما لم أفعله؟**

واستكمل حديثه:

- **أنا غير راضٍ عما يحدث في فلسطين ولم أذهب لإسرائيل، ولن أذهب هناك أبدًا ففي كتابنا التوراة نحن نعرف أن قدرنا الشتات واجتماعنا مقدمة لهلاكنا...**

ولكن ماذا عنكم أنتم أيّها المسلمون تتشدقون بالمقاطعة أمام الإعلام وخلف الأبواب المغلقة تصافحون الصهاينة ولا يهمكم سوى المصلحة..

- **تذكّر أنني عاملتك بما يرضي الله، بما يرضي الله ..**

وظل يُردِدها، ولكنني لم أستطع الرد عليه، وأدرت ظهري وتركته وذهبت..

للأسف كانت كلماته هي أصدق ما في واقعنا المؤلم، فماذا نفعل بعد كل كارثة تحدث؟

نحن فقط نُدين ونشجب ونعلن المقاطعة..

ثم نعود كما قال عمران من خلف الأبواب الموصدة نتودد لهم لمصلحة دنيوية وننسى أن المصلحة الكبرى هي ديننا ووطنا؛ فماذا نحن دونهما؟

عُدتُ إلى الفندق وقضيتُ الليلة مؤرقًا لا أدري ماذا حدث، هل سبب أرقي تفكيري فيما حدث في المقهى وكلمات أوزان عن حريتهم وحقوقهم هنا؟

أم أن السبب هو عمران اليهودي الديانة والمسلم الخُلق فأنا لم أجد منه سوى الخير، سواءً في أدبه وذوقه في الحديث أو في أمانته وحُسن تعامله؛ فقد رفض أخذ -بقشيش- كما يفعل الآخرون بل ويعتبرونه حقًّا لهم.

لست أدري أين الخلل؟

ربما كان الخلل فينا نحن؛ فنحن ولدنا مسلمون، ولم نختره، فأصبح عند معظمنا عادة، نقوم بكل الفرائض لأننا اعتدنا عليها كما رأينا آباءنا يقومون بها وعلمونا إياها، ولكن ماذا لو كنا وُلدنا في مجتمعٍ غير مسلم؟

ماذا كنا سنختار؟ وهل كان أداؤنا للفرائض سيختلف؟

أكاد أُجزم أنني أعرف الإجابة..

ولكن ما ظل يؤرقني بعدها لفترة طويلة، هو موقفي من هذا الشاب اليهودي، فأنا حتى لم أمنح نفسي فرصةً لأفكر، أو حتي أعرف سبب كرهي له لمجرد أنني عرفت أنه يهودي..

فنحن في مصر وتحديدًا في حي شبرا اعتدنا وجود الأقباط يشاركوننا كل مناسباتنا ونهنئهم بأعيادهم..

أتذكر جارتنا أم جورج كما اعتاد الجميع ينادونها، حتى الصغار منا، وأصدقائي ماجد وأيمن وجوزيف وميخائيل الذي اعتدنا أن نناديه ميخا.

لم نتفرق أبدًا حتى وصلنا للجامعة واختار كلٌّ منا كليته التي تمناها وكنا نلتقي في الإجازات حتى سافرت..

ووالدتي التي كانت تذهب للممرضة مريم في غرفة صغيرة استأجرتها خارج حرم كنيسة سانت تريزا القابعة في شبرا حين كانت أمي حاملًا في أختي رقية ووصف لها الطبيب فيتامينات تحقن بها يومًا بعد يوم..

كانت تأخذني معها حين تذهب فأرى الكثير من الناس يتوافدون إلى الكنيسة فأسأل أمي فتخبرني أنها القديسة سانت تريزا التي أحبها كل المصريون مسلمون ومسيحيون بسبب نقاء سريرتها وتبتُلها ورهبنتها في سنٍ الخامسة عشر.

ثم وفاتها بعد ذلك بسنواتٍ قليلة، كنتُ أندهش من ثقة الناس في روحها الطاهرة ومجيئهم من أقاصي مصر لزيارتها وطلب مباركتها أو المجيء فقط للدعاء لله في رحاب هذا المكان الذي يتسم بالروحانية والخشوع.

ولم يفكر أحد أبدًا أن هذا يتعارض مع كونهم مسلمين؛ فهم يأتون فقط لظنهم البسيط أن هذه البقعة طاهرة لم تدنسه شهوات البشر، وقد يستجيب الله فيها دعاءهم.

وحتى بعدما كبرت كنت أرى بعض زملائي يذهبون هناك مع أصدقائنا الأقباط ليشعلوا الشموع خصوصًا في فترة الإمتحانات.

فلماذا استثنينا اليهود، أهي وسائل الإعلام أم أننا اختلط الأمر علينا ولم نفرق بين الصهاينة المغتصبين لأرض فلسطين القتلة، وبين اليهود معتنقي شريعة نبي الله سيدنا موسى عليه السلام؟

شرائع الله عز وجل تدعونا للتسامح مع الآخرين، فمن يملك الجرأة لينصب نفسه قاضيًا ويحكم من سيدخل الجنة ومن سيدخل النار؟

مـــهمة جديـــدة

في الصباح وصلت طلبية السائل المجمد كما كان الموعد بالضبط والتقيت بالشيخ حمد وبعدها انطلقنا للمطار..

عدنا للمزرعة واستدعى الشيخ حمد طبيبًا بيطريًا شابًا لمساعدة الدكتور فايز وقاما بالفعل بتلقيح الفروس..

وتمت كل الأمور كما خططنا لها..

وبعد أحد عشر شهرًا من الترقب والقلق والعناية الفائقة رُزقت المزرعة بأربعة مهورٍ جديدة وكانت فرحةً عارمةً لكل من كانوا بالمزرعة..

لم تترك هذه السفرة في نفس ناصر أي أثر، فهو يصدّق عمه فيما يقول، ولا يقع فريسة الشك أوالتأويل..

أما صقر فزاد حِنقه حِنقًا ونفث غلًّا امتلأ به صدره في وجه عمّه وابنته.

حتى أنا لم أسلم من شره.. كان ينتهز أي فرصةٍ لاستفزازي، ربما تهورتُ يومًا وأفلت مني زمام اللسان فكان ردي عليه فرصةً لإيذائي..

- هل تظن أنك بما فعلته أصبحتَ مميزًا عند عمي ؟

أنتَ مازلتَ مجرد عامل لا أكثر ولا أقل..

ككل مرة بعدما أسمع كلماته أشيح وجهي غير آبه بكلماته وأذهب فيستشيط غضبًا..

توالت زيارات لُجين للمزرعة بحُجة تعلم ركوب الخيل، كانت تهتم كثيرًا بحصانٍ صغير أطلقنا عليه اسم الأدهم، وكان من ولادةٍ سابقة للفرسة -بشرة-.

كانت طلّتها تخطف قلبي، ولا أدري ما السبب؟

هل شعرها الفاحم اللمنسدل خلف ظهرها تجذبه نسمات الريح خلفها كلما انطلقت بحصانها؟

أم رشاقتها وبراءة قسماتها التي تبهر كل عينٍ التقتها؟

هاتان العينان الواسعتان تتوسط بياضهما مقلتان بلون الليل سوادهما، وأنفٌ دقيقٌ يقف بشموخٍ وعظمة قبل أن تصل عينيك لشفاه رقيقةٍ لم تغزوها إبرة طبيب بعد؛ فهذه اللوثة والهوس بعمليات

التجميل لم تكن تُعرف حينها، ومن يدري لو كانت وقتها منتشرة فربما كانت ككل بنات جيلها فعلتها؟

هذه الشفاه التي حيرتني كلما نطقت، فأشعر وكأنها تنطق بغير ما تريد، ربما.. وربما هذه مجرد هواجس بداخلي أنا فقط..

في كل مرة كانت تأتي لجين إلى المزرعة كنت أرى في عينيها الكثير من الكلمات ولكنها كانت حبيسة العادات والتقاليد؛ فالبنت الخليجية تتزوج من عائلتها أو قبيلتها أو ابن جلدتها، ولكن أن تتزوج من غريبٍ من بلدٍ أخرى فهذا عار..

وكانت من حينٍ لآخر تحاول أن تفتح مجالًا للحديث معي فنتبادل أطراف المناقشةً والحوار:

- لماذا يا أنس من حق الرجل أن يفعل كل شيء دون حدود، كل شيء مباح له، وكل شيء محرم على الفتيات؟

- لا أعرف، لكل بلد عاداته وتقاليده التي ينتهجها أهله، ربما لأن عادات القبيلة مازالت هي المسيطرة، كما هو الحال في المناطق البدوية عندنا مثل سيناء.

فبادرتني بمكرٍ بسؤالها بينماعيناها تلمعان:

هل من الممكن عندكم أن تطلب البنت الزواج من الرجل الذي تراه مناسبًا لها؟-

فقلت لها مازحًا:

- وماذا إذا رفض؟ هل ستحتمل الخجل حينها؟-

فأنتم النساء تجلسن وتنتظرن قدوم العرسان فترفضن هذا وتتشرطن على ذاك، أنتن في المقام الأعلى ونحن من يطلب ودّ الأميرات..

فضحكتْ ضحكة شفافة، ومع ضحكاتها يذوب قلبي وتنتقل الروح إلى عالم الخيال، فأراها أميرةً تجلس في برجٍ عالٍ يفصلني عنها بحار ومسافات، وأقف وحيدًا أستجمع شجاعتي لأجتاز لأجلها المخاطر والأهوال.

أتراها أميرة حلمي الذي لا يفارقني؟ ووالدها الشيخ حمد هو الذي فرقنا؟

آه منك يا حلمي متى ستعتقني؟ أو تتركني أعيش فيك ومعك أصل للنهاية؟

حين أعود لعالم الحقيقة أنتبه لأسئلتها فلا أدري لماذا جالت بخاطرها وأتساءل هل أصابتها نفس الحمى التي أصابت زوجة الشيخ حمد الأولى، أم أنها كانت مجرد مشاكسات بريئة منها لتفتح ممراتٍ للحديث بيننا؟

آه يا لُجين لو كنا التقينا قبل زمن!

كانت حينها تستعد لركوب حصانها الأبيض الذي اعتادت ركوبه منذ فترة طويلة من قبل مجيئي للمزرعة، مددتُ لها يدي كي تستند عليها، وكان شعاع الشمس حينها معانقًا أهدابها ينتظر العفو والرضا ليلقي التحية على مقلتيها، وما إن وصل بهو العينين حتى اتسعت مساحات أنهار العسل، بعدما ضاق البؤبؤ ليمنعه التوغل أكثر..

راحت ذاكرتي تتجول في حلمي العجيب ثانيةً، نعم كانت هي من تجلس خلف قضبان النافذة بعيدًا تفصلنا مساحاتٌ من الماء والتماسيح والأشباح ووحدها تقبع في هذه الجزيرة الموحشة بعدما أبعدها والدها وحرمنا من بقائنا معًا..

هل هذا معقول؟

أنتِ يا لُجين من تزورينني كل ليلة؟ وتنتظرينني على الجانب الآخر من البحر؟

والآن نحن معًا لا يفصلنا سوى نسمةٍ باردة تتسلل برغم شعاع الشمس في أواخر كانون..

لماذا أتيتِ الآن؟

لماذا لم تأتِ حين كنتُ بين أهلي وأسرتي وأدرس في كليتي، لماذا ظهرتِ لي وأنا مجرد حارسٍ لوالدك أو حتى كبير الحراس؟

أما كان من الممكن أن أكون الأمير الذي يخطفكِ على هذا الحصان؟

أم أنـه القدر يريد تعذيبي مرتين؟

أستغفر الله العظيم..

ليست لعنة الفراعنة كما قال الشيخ مصطفى ولا أثر لوجودها، ولكنـها نفوس البشر التي قسّمتنا لملوكٍ وعبيد، عليّة القوم والبقيّة الصِغار..

وها أنا أقف الآن بلا حيلة ولا صولجان..

أفقتُ من غفوتي ورحلتي في عالمي الوردي، وعُدتُ لعالم الأشواك وقسوة الصحراء..

وراحت عيناي تتابعانها بينما كانت تتنقل بين الجوريات كفراشة رقيقةٍ في حديقة الفيلا التي كنتُ أهتم بها أنا فقط، فغير مسموحٍ لعمال المزرعة الدخول إلى هذا المكان..

وكثيرًا ما كنتُ أهمس للجوريات في غيابها عن حالي حين ألقاها وأرجوهن أن يكتمن أسراري..

لمحنا صقر ذات مرة ونحن نتحدث، وانتهز الفرصة وأخبر الشيخ حمد.

ناداني بعدها الشيخ حمد وسألني:

- بماذا كنت تحدث لُجين؟

فأخبرته أنها كانت تسألني عن أحوال النساء في بلادي، وكيف أنهن أكثر تحررًا من هنا، فأخبرتها أن لكل بلد عاداته التي تختلف عن الآخر.

فسكت الشيخ حمد ولم يرد، ولكن اختفت بعدها لجين ولم تعد تأتي إلى المزرعة إلا قليلًا مع زيارات العائلة في العطلات..

الصدمـــة

أنا الهائم في بحار الصمت، أبحثُ لي عن وطنٍ بلا شجن.. شواطئه بلا زوايا ولا أركان تحتجز الموج دون استئذان، تحرمه العودة إلىٰ أحضان اليمّ بأمان.

أنا الراقد علىٰ سواحله في اطمئنان، لا أخشى لصًّا يسرق أحلامي أو يسلبني بهجة الأيام.. أُزيّن شواطئه بالزهر والريحان..

أنا الطائر علىٰ ضفاف موجةٍ تهديني السكينة، وبحنان أمٍ للمرة الأولىٰ تلهث خلف صغيرها تُغلّفه بقلبٍ لا يطمئن ولا يهنأ إلا وهو في عينيها مستقر فرحان..

يسخر مني الفراغ ويزفر نفسًا لطوله تشققت الجدران، أنتَ أيّها الصغير نفسك ماذا تظن؟

كلّما تسرّب الأمل من ثُقبٍ في الفراغ وجد له ألف نقطة ظلامٍ تطمس معالمه، ترديه في جبّ الأحزان..

أضحت حظيرة الخيول مكدسةً بعدما ولدت الفرسات الأربعة بسلام وصرنا بحاجة لحظيرة للخيول الصغيرة، بالإضافة لاتساع أعمال المزرعة الأخرى والحاجة لمساحات عشب أخضر إضافية لتغذية الحيوانات..

عرفتُ من سهيل بخبر عرض المزرعة المجاورة لنا للبيع، فأخبرتُ الشيخ حمد بذلك..

كان وقتها الشيخ حمد وزوجته في إجازة خارج الكويت، فوافق ووكل الأمر كله لصقر، لأن ناصر وزوجته كانا معهما..

عرفت بعدها من بدر بن صقر ومشاعل أنهم كانوا مسافرين مع لُجين فقد سافرت إلى الولايات المتحدة لدراسة الطب بعدما أنهت المرحلة الثانوية وقد سافروا معها ليرتبوا لها كل أمورها هناك ويطمئنوا عليها وكذلك كانت والدتها زوجة الشيخ حمد بحاجة لعمل بعض الفحوصات الطبية.

أنهى صقر إجراءات الشراء، وانضمت المزرعة المجاورة لنا وبدأنا في تجهيزها لنقل الخيول الصغيرة وتنظيم الأمور أكثر..

عاد الشيخ حمد من السفر وجاء ليتفقد أحوال المزرعتين وكان متوترًا ولكنه لم يفصح عن شيء ولم يعبّر حتى عن رأيه فيما أنجزناه، حتى ظننته غير راضٍ عن عملنا..

تزايدت حدة الصراعات الهادئة بين الشيخ حمد وصقر، نارٌ خامدة تحت الرماد، حتى جاء هذا اليوم..

كان صقر بالمزرعة ينثر سمومه في كل واد؛ فتنبت سياج حقدٍ وغل..

جاء الشيخ حمد والحمم تتطاير من ثوبه ومن حوله مناديًا بصوت زئير أسدٍ جريح يصارع كل ذئاب الغابة منفردًا وصاح :

- صقر، تعالَ هنا.

جاء صقر متمايلًا كطاووس خرج للتو من ساحة التزاوج في موسم الربيع مجيبًا بكل برود:

- نعم يا عمي!

- ماذا فعلت؟ هل هذا صحيح؟

كيف تجرؤ على الزواج بامرأةٍ ثانية دون علم مشاعل؟

كان صياح الشيخ حمد مدويًا حتى وصل لمسامع كل العمال، فأبعدتهم وشغلتهم بالعمل في القسم الآخر.

وعُدتُ لأكون بالقرب من الشيخ حمد لخوفي من تهور صقر.

رد صقر دون أن يهتز له طرف:

- وماذا في ذلك؟ أليس هذا من حقي؟ أنا رجل ويمكنني الزواج بأربعة نساء...ألم يُحلل لي الشرع ذلك؟

فرد الشيخ حمد:

- كيف استطعت أن تخفي علينا ذلك كل هذه الفترة؟ إنه خطئي من البداية ماكان يجب أن أُزوجك ابنتي، ظننتك ستصبح رجلًا وتقدّرها وتقدّر المسؤولية..

أنا لم أفعل شيئًا غريبًا يا عمي، ألم تتزوج مرتين؟-

ففارت الدماء في وجه الشيخ حمد وصرخ في صقر:

- اخرس يا ولد.. وهل تقارن نفسك بي؟

- وماذا في ذلك أنت تزوجت مرتين وأبي تزوج عدة مرات، فلماذا تحللونه لأنفسكم وتحرمونه عليّ ؟

هكذا رد صقر بكل هدوء، وبرود.

اسمع سوف تطلق زوجتك الثانية، وتعود وتعتذر لمشاعل، وإلا....-

فقاطعه صقر دون أن يتخلى عن هدوءه الذي فاق كل درجات التجمد:

وإلا ماذا؟-

ها أخبرني ماذا ستفعل؟ هل ستطردني من جنتك مثلًا؟

اندهش الشيخ حمد من هذه الثقة التي يتحلى بها صقر، فهو للتو ترك ابنته مشاعل منهارةً منذ عرفت بالخبر، ولهذا استبعد أن تكون ثقته راجعةً لقدرته على التأثير عليها ورجوعها إليه..

كنتُ متأكدًا أن صقر مازال يخفي في جعبته الكثيرمن الكوارث..

حينها صاح فيه الشيخ حمد :

- **نعم سأطردك**

فرد عليه صقر وجبل الثلج مازال يحيط برأسه طوقًا يعتمره:

ليس من حقك أن تطرد شريكك الجديد في المزرعة.-

- **حقك؟؟ أي حق تتحدث عنه، أنا لم أحرمكم من شيئ، أنا الذي ضحيت بوقتي وصحتي وأقمت هذه التجارة، أنا..أنا...**

اختل توازن الشيخ حمد وخرّ ساقطًا كجملٍ هدّه الغدر وخيانة صاحبه حين طعنه بسكينٍ بارد قبل أن ينهي كلماته..

كرة الثلج التي ألقاها صقر من أعلى الجبل تدحرجت بسرعة سقوط قنبلة هيروشيما واستقرت على قلب الشيخ حمد..

هرعنا أنا وسهيل في طلب الإسعاف وانطلقنا خلف الشيخ حمد إلى المشفى، وقابلنا هناك ناصر بعدما اتصلنا به في الطريق.

اختبـــــارات

سافر الشيخ حمد مرةً أخرى إلى الولايات المتحدة للعلاج من الجلطة التي أصابته بصحبة ناصر، وبقيتُ وحيدًا في المزرعة ألوكُ الألم وأبحث لروحي عن ثقبٍ جديد يهبها شعاع أمل، ولكن زيارات صقر المباغتة كانت تهوي بكل مصابيح النور وتُسقطها عنوةً..

هذه المرة لم يكن زائرًا بل كان سيد المكان، يأمر وينهي ولكن لا أحد من العُمال كان راضيًا عمّا يقوله، فكانوا يستمعون إليه ثم ينفذون ما يرونه مناسبًا فهو لا يفهم أي شيئ في عملنا.

وعرفنا بعدها من أحد عمال المزرعة التي اشتريناها مؤخرًا أنه اتفق سلفًا مع صاحب هذه المزرعة وأوهمه أن الشيخ حمد يشترى منه هذه المزرعة هديةً لصقر وابنته..

كان سهيل يعرف السبب الذي جعل صقر يتصرف كذلك، فوالد صقر كان دائمًا يذكر في أحاديثه أن كل أموال حمد أساسها محل الأقمشة الذي تركه والده بالرغم من أن الحقيقة كانت غير ذلك، فقد كان مجرد محلٍ صغير استطاع حمد بجهده وعلمه الذي درسه في إدارة الأعمال من تطويره وتكبير حجم تجارته وتنوّع نشاطاته، وهو لم يقصّر أبدًا في حق إخوته، بل أعاد بناء بيت العائلة وخصص لكل

واحد منهم سكنًا منفصلًا في نفس البيت وساعد أخاه سند وكذلك أخاه فهد الصغير على الزواج.

وبالرغم من زيجات سند والد صقر المتعددة، وإهماله لصقر وإخوته فقد كان الشيخ حمد هو من يساعدهم ويرسل لهم مصروفهم الشهري، ثم أخذ صقر وكذلك ناصر إبن أخيه فهد ليعملوا معه.

وها هو الآن صقر يعيد التاريخ ويفعل مثل والده، ولكنه أمّن نفسه جيدًا فلم يكن مثل والده كلما احتاج أموالًا جاء يطلبها من الشيخ حمد.

لم أستسلم لضغوط صقر ولم أرضخ أمام محاولاته في إزعاجي لكي أرحل وأبتعد، فلستُ أنا من يترك الأمانة ويهرب..

عملنا بكدٍّ أنا وسهيل وبقية العُمال الذين استحضرهم الشيخ حمد مع التوسعة، وزاد عدد الخيول في المزرعة فأصبحت ذات شهرة واسعة في المنطقة لوجود سلالات عربية أصيلة بصفاتٍ مميزة..

بل أنني اتفقتُ مع الطبيب البيطري الجديد لتأهيل أحد الخيول ليكون جاهزًا في وقتٍ قريب لتلقيح أفراس المزارع الأخرى فهو من أحد السلالات الأصيلة التي استجلبناها سابقًا.

كنا نواصلُ الليل بالنهار وقلوبنا وألسنتنا تلهج بالدعاء لعودة الشيخ حمد سالمًا..

وبالفعل عاد الشيخ على كرسيه المتحرك وفي عينيه لمحةُ إنكسار ودمعةٌ ساكنةٌ لا تفر..

أصبح ناصر يرافقه كظله، وابتعد صقر منذها نزولًا على رغبة والده وعمّه على أن يصله دخل المزرعة التي اشتراها غصبًا وكذبا..

أُعجب الشيخ حمد كثيرًا بما حققناه في غيابه، وظلّ يتساءل لفترة كيف أنجزتم كل ذلك في هذه الفترة؟

في هذه الفترة كان بدر قد وصل لعامه الأخير في المرحلة الثانوية فكان يأتي للمزرعة للمذاكرة ويقول لي أنه يتفاءل بوجودي بجانبه، فهو مازال يتذكر ما حدث حين كان في السنة الأخيرة في المرحلة المتوسطة - الإعدادية- وكنت بجانبه.

استطاع بدر في الفترة الماضية الإقتراب من والدته مشاعل كما كنتُ أنصحه.

- يا بدر قلب الأم لا يمكن أن يقسو أبدًا على أبنائه، حتى وإن بدا ذلك ظاهرًا فتأكد أن له مغزى آخر في داخلها، والدتك مرّت بظروفٍ قاسية بسبب طباع والدك، وعدم رغبتها في الأبناء ليس لكرهها لكم ولكن لغضبها من تصرفات والدك وإحساسها أنكم سوف تشبهونه في القسوة، اقترب منها وتودد إليها لتعرف أنك لست مثل والدك.

كانت هذه توصياتي له وحين اقترب منها تغيّرت معاملتها له ولأخته دلال.

نجح بدر في الثانوية العامة وحصل على مجموع درجاتٍ عالية مكّنه من السفر إلى ألمانيا لدراسة الهندسة كما كان يتمنى، وكلما عاد إلى الكويت في إجازة كان يزور المزرعة للقائي.

بعد مرض الشيخ حمد وصعوبة صعوده لبرجه المفضل اتفقتُ مع إحدى الشركات بعمل مصعد خاص ليرفعه على كرسيه الخاص إلى العرزالة دون عناء، هذا المكان الذي كان الجلوس فيه عند الغروب في الأيام المعتدلة الحرارة عشقه ومتعته، وكان سعيدًا جدًا بحفاظه على هذه العادة، وأصبح يدعوني لمرافقته أحيانًا والجلوس معه هناك..

أذكر في إحدى المرات أنني جلستُ معه فنظر إلى الأسفل وبنظرةٍ كاشفةٍ مسحت كل أرجاء المزرعة أطلق زفيرًا قادمًا من أعمق نقطةٍ في بئر ذكرياته وقال:

- **أتعرف يا أنس لقد ذكرتني بعد ما أنجزته في المزرعة بما كانت عليه قبل الغزو الغاشم على الكويت، ففي الثمانينات كانت هذه المزرعة من أجمل مزارع المنطقة وفي لمح البصر دخلها جنود صدام فأحالوها لكومة تراب، حتى الآبار الإرتوازية التي كنا نستخدمها للري هدموها وكأنها لم تكن موجودة من قبل..**

ثم أكمل حديثه، وكأنه يرى الأحداث كشريطٍ سينمائي ينسرب أمام عينيه:

- **تخيل حين جاء الجيش الأمريكي لتحرير الكويت وأخرجوهم منها استأذنوا بالبقاء فيها لفترة وحين غادروها تركوها بحالٍ أفضل.. ما هذا الذي نفعله ببعضنا نحن العرب؟**

- **يا عمي أنا حتى الآن لم أفهم كيف تجرأ رئيس دولة ليطغى على حقوق دولة مجاورة ويستبيحها ويجتاحها بهذا الشكل المرعب؟**

بدأ الشيخ حمد في شرح ما حدث قبل هذه الكارثة؛ فشخصية صدام حسين العنيفة هي السبب في كل ما حدث، فها هو يدخل حربًا مع إيران لمدة ثماني سنوات على بقعةٍ صغيرة وهي شط العرب ويهمل دولة بأكملها ويوجه كل اقتصاد بلد يمتلك هذا المخزون الهائل من البترول ويسخره كله للحرب، ثم تنتهي الحرب ويتنازل عن شط العرب وكأن شيئًا لم يكن.

هذه الشخصية لا تبحث عن الهدوء والسلام، بل تحتاج دومًا لخوض المعارك والمغامرات.

وحين رجع جنوده للوطن لم يجدوه كما تركوه منذ سنوات وكانوا سببًا في كثيرٍ من المشكلات..

فسألتُ الشيخ حمد:

- معقول هل هذا سببًا كافيًا لاجتياح بلدٍ مسالم؟ هل هذا جزاء ما قدمته الكويت من مساعدات ؟

- فأكمل الشيخ حمد شرحه أن صدام بالفعل رفض ردّ كل ما أخذه من قروض أثناء حربه مع إيران، مُعلّلًا ذلك بأنه كان يدافع عن البوابة الشرقية للوطن العربي، وكأنه يقول أنه كان يقاوم زحف المغول..

كثيرًا ما تضعك الحياة في اختبارات لم تكن تتوقعها، وتكون النتيجة: إما اجتيازُك بنجاح، وإما إخفاقك وسقوطك من نظر بعضهم..

وربما تسقط في نظر نفسك قبلهم..

على أرض الواقـــــع

وأنت تلملم ذكرياتك وتجمعها، تؤرخها وترفعها لتبقى في تجاويف الذاكرة باقية..

تكتشف أنك لم تسكن الأماكن، بل هي من سكنتك..

وأنك لم تعش الأيام والساعات بل فيها ذُبت..

خليط ذراتٍ استجمعته من رمال هذه الأرض، ومن هوائها نسجتَ به أيامك السابقة والحاضرة..

الوطن هو كلّ أرضٍ وطئتها قدماك وارتحتَ لها وفيها سكنت..

مرت عدة سنوات، رحلة شقاء وتعب، جهاد وكفاح، كدٌّ وحصاد لا شيء يأتيك وحده، حتى الهموم لا تأتِ إذا لم ترحب بها وتفتح لها أبوابك..

بعد أزمة أنس وتأخر راتبه كانت الأوضاع تزداد سوءً مع والدته وأخواته، فطلبت والدته نجية من مستر أمين مساعدتها لإيجاد فرصة عمل عن طريق زوجته سعاد صديقتها وبالفعل ساعدها في الحصول على عمل في روضة أطفال بنفس المنطقة..

وكانت أختـه الكبرى رقية تكتب مذكرات في المواد التي تدرسها وتبيعها لزملائـها في الجامعة كما كانت تفعل في الثانوية العامة كما نصحها مستر أمين مدرسها آنذاك للغة الإنجليزية ووكيل المدرسة.

وأما منى آخر العنقود كما كانوا يطلقون عليها؛ فكانت تذاكر بجد حتى لا تحتاج لدروسٍ خصوصية لا تقوى على ميزانيتها إمكانيات أسرتها المتواضعة، مع بعض المساعدات من أختها رقية ومستر أمين..

كان مستر أمين الأب الروحي لرقية ومنى في غياب الوالد والأخ الأكبر، وكثيرًا ما ساعد رقية حتى بعد التحاقها بكلية الطب حيث تخرج ابنه الدكتور أحمد من نفس الكلية..

سنوات تغيرت فيها الكثير من الأحوال، تخرجت رقية وأصبحت طبيبة لتحقق حلم والدها وحلم أنس، ومنى الآن في المرحلة الثانوية..

انتهى دينُ أنس بعد خمس سنوات، وأصبح يدخر لنفسه المبلغ الذي كان يستقطعه لسداد الدين، كما نصحه الشيخ حمد.. هذا بالإضافة لزيادة راتبه بعد سفرة فرنسا وإنجازاته في المزرعة..

كان أنس يتابع القنوات المصرية عبر صحنٍ لاقط في المزرعة، ولاحظ نشاط الحكومة الجديدة واهتمامها بالشباب، ووعود الرئيس بالقضاء على البطالة ودخول عصرٍ جديد يختلف عن العقود الماضية.

فاتَح أنس الشيخ حمد برغبته في العودة لبلاده، فانقبض صدر الشيخ حمد وقال:

- لماذا يا بني؟ هل ضايقك أحدٌ هنا؟

الكثيرُ من المواقف جالت بخاطر أنس حينها، مضايقات صقر له، نظرات الإحتقار والدونية.. برغم فشل صقر في الحصول على الثانوية العامة واعتماده على مساعدات والده وعمه، حتى كلماته الجارحة وإهاناته المستمرة لأنس.. لم تكن لتغيب عن ذهنه، وتعليقاته السلبية عن مصر التي لم تغب أبدًا عن أي لقاء بينهما، وكان لا يفوّت فرصةً ليكررها:

- العمالة السائبة في كل مكان منذ تطؤ قدماك أرض المطار وفي الشوارع والمناطق السياحية جميعها تحاصرك، تراك بنكًا متنقلًا ومطمعًا لهم.

ثم يضيف في لقاء آخر حديثه عن الشوارع في مصروانتشار القمامة، والتلوث البصري بسبب عشوائية المباني والألوان، متجاهلًا أن ذلك موجود في معظم المدن الكثيفة السكان بكل بقاع العالم وليس في مصر وحدها..

ومهملًا عن عمد جميع المناطق السياحية الأخرى التي تتميز بالجمال والأناقة وحُسن التنظيم كشرم الشيخ وطابا والغردقة والقرى السياحية المحيطة بها.

كان صمت أنس وترفعه عن النقاش يثير صقر أكثر ويرفع وتيرة حنقه، ولكن الحرب الدائرة بين تلافيف روح أنس كانت تقتله في الثانية آلاف المرات، فها هو يعود بالذاكرة لأحاديث جده وجدته عن مصر قبل نصف قرن، حين كانت شوارعها تضاهي شوارع باريس ولندن، بجمال وأناقة مبانيها التي مازال بعضها رابضًا يصارع حتى الآن، وكانت دور الأزياء العالمية تتنافس لعرض تصاميمها في القاهرة قبل باريس..

- ماذا حدث ؟

لا أحد يدري..

كسر الشيخ حمد بحديثه صمت أنس الظاهر وغرقه في بحر الذكريات:

يا ولدي لو كانت تصرفات صقر معك تضايقك فلا تغضب منه، فهو معذور.-

أخي سند والد صقر هو السبب فيما وصلت إليه أحوال صقر التي لا تُحتمل، ولكنني أُشفق عليه كثيرًا فهو لم يكن له أي ذنب فيما عاناه في صغره..

فقد تزوج أخي سند عدة مرات ومنهم زوجته والدة صقر وكانت من الجنسية السورية وبعدما أنجب منها صقر وأخواته البنات طلقها وتركها وأولادها وتزوج بغيرها، ثم تزوجت هي الأخرى وتركت

أبناءها مع أخوالهم السوريين الذين كانوا يعملون بالتجارة هنا بالكويت،كانت امرأة صعبة المراس لا أدري لماذا تزوجها أخي سند..

لقد كانت طوال الوقت تنفث سمومها في آذان أبنائها وتخبرهم أن لهم حقًا في كل أموالي وأن كل تجارتي كانت إرثًا للأسرة تركها والدي لي ولإخواني، على الرغم أن الجميع يعلمون أن ما تركه والدي كان محلًا صغيرًا للأقمشة في السوق القديم، وكانت تجارة القماش وقتها تعاني كسادًا كبيرًا بسبب غزو الملابس الصينية الجاهزة للأسواق الكويتية لتصبح في متناول الأسر البسيطة والعمال والمقيمين الذين يشترون الهديا لأسرهم عند سفرهم في الإجازات، وأما النساء الكويتيات فمعظمهن يطلبن ملابس تتماشى مع الموضة حيث كن يؤثرن الشراء في الصيف من أشهر الماركات من متاجر لندن وباريس خلال سفراتهم .

ويعلم الله أنني لم أظلمهم أبدًا وكنت أسال عنهم وأتابعهم، وقد جهزت بنات أخي عند زواجهن بأفخم التجهيزات كما فعلت بعدها لبناتي، ثم أخذت صقر بعدما كبر وصار شابًا ولم يفلح في الدراسة وحاولت أن أعلمه أصول تجارتي وزوجتّه من ابنتي مشاعل ولكنه لم يستطع أبدًا تحمّل المسؤولية.

لم تكن كلمات الشيخ حمد كافية لتُثني أنس عما عزم عليه، فهو يحن لتراب وطنه، مهما ادّعى الصمود والمقاومة..

أراد الشيخ حمد إغراءه بالبقاء فأغدق عليه بالوعود:

- يمكنك أن تستأجر سكنًا خارج المزرعة، ولن يضايقك صقر ثانيةً وعندي لك عروس ستجعلك تنسى كل الأماكن وتكون لك الوطن..

- عروس؟

لم يصدق أنس ما سمعه بآذانه، فأكد الشيخ حمد عرضه مرةً أخرى:

ابنة سهيل فتاة جميلة تربّت هنا عندنا سوف تعيشا معًا بسعادةٍ وسوف تُنسيك كل ما مررت به من آلام..

وسوف اتكفل بكل تكاليف زواجكما..

عـــروس

ويبدأ صباحك ككل يوم، تستجمع أطراف الشجاعة المعقودة على أسنان الوقت، تلضم حبّاتها في عقد، تحيط به عنق الأحلام.. تُمنيها بيومٍ تزور فيه عالمك المجنون حتى ولو كانت زيارة ضيفٍ على عَجَلٍ.

تدهَش وأنت في مواجهة مرآتك الثقيلة الظل حين تُخبرك بخطوط الدهر المُبعثرة تفاصيلها خارطةً على وجهك دون خجل..

دارت الدنيا بأنس حتى أصبح لا يدري أي موجة التقطته وعلى أي شاطئ لفظته..

كانت كلمات الشيخ حمد تتردد في آذان أنس وتهز أروقة شبابه التي أخمدها منذ زمن، ونسي أنه في عمر الشباب وله متطلباته ككل من في مثل سنّه.

وبعد صلاة الجمعة في المسجد المجاور للمزرعة والذي اعتاد الصلاة فيه رآه الشيخ عبدالله إمام المسجد مهمومًا فاقترب منه وجلس بجواره بعد الصلاة ثم سأله:

- ما بك يا أنس؟ أراك اليوم مهمومًا لست كما اعتدتُ أن أراك

فحكى أنس للشيخ عبدالله ما أخبره به الشيخ حمد..

- يا بني أعلم أنك في سنٍ حرج له متطلباته ولكن لا تجعل غرائزك هي التي تتحكم فيك

فقاطعه أنس قائلًا:

- أبدًا ياعمي الشيخ، كان هذا آخر همي وقد تفاجأتُ بعرض الشيخ حمد، ولكنني فكرت بعد كلامه إلى متى سأنتظر؟ الحياة تتغير من حولي وأنا كما أنا لم يتغير في حياتي شيئ.

فأجابه الشيخ عبدالله بهدوء أبٍ حكيم ينصح ابنه ويصادقه بعدما كبر:

- يا بني هل فكرت في والدتك؟ أليس من حقها أن تفرح مثلك وتشعر بتعويض الله لها على كل ما تحملته من صعابٍ بعد وفاة والدك؟

هل فكرت في أخواتك؟ وانتظارهن لك ولعودتك والحياة بينهن والزواج هناك من فتاة تكون صديقتهن، ألم تفكر ولو لدقائق في اختلاف العادات والطباع بينك وبين هذه الفتاة؟

- ولكن يا عمي الشيخ من هي التي سترضى بمثلي، مجرد عامل بمزرعة وفي أفضل الحالات سائق ؟

- لا تكن قصير النظر يابني فترى فقط تحت أقدامك، الحياة مازالت ممتدة أمامك، يمكنك أن تكمل دراستك بعد الرجوع لمصر فلماذا حصرت نفسك في هذه الصورة؟ إنها وضعٌ مؤقت..

هل نسيت أنك كنت طالبًا في كلية الطب؟ وكان ينتظرك مستقبلٌ مزهر..

فرد أنس بمرارة:

- كان يا عم الشيخ... كان ولكن ماذا أنا الآن، وأين؟

أحس الشيخ عبدالله بألم أنس ويأسه؛ فحاول أن يبعث بعض الأمل في نفسه وأراد أن يُحيي الشُعلة التي انطفأت بداخله فيعيد إليه ثقته بنفسه.

عاد أنس للشيخ حمد ليرد عليه ويخبره برفضه لهذا العرض، كان الشيخ حمد يجلس في عرينه يتابع خيوط الذهب وهي تلملم اخوانها وتلتقط أطراف الهمس الدائر بين الأوراق الخضراء..

وارتقى أنس الدرج حتى وصل للشيخ حمد فدعاه للجلوس ثم سأله:

- هل فكرت يا أنس ؟

فأخبره أنس بتأكيده لرفض هذا العرض..

وكان رد الشيخ حمد مفاجأة لأنس:

- يا أنس دعني أخبرك بقصة قصيرة، هل تذكر حين كنا في باريس وهذه المكالمة التي جاءتني فثُرتُ وغضبت حينها؟

إنها ابنتي شيرين من زوجتي الأولى خولة.

ثم أكمل الشيخ حمد حديثه:

- في شبابي كنتُ سعيدًا بعملي وأشعر بالفخر كوني تخرجت من الجامعة ودرست إدارة الأعمال، وأحدثتُ نقلة كبيرة في عمل والدي فحين توفي رحمه الله كان كل ما لدينا محلٌ صغير في السوق القديم، فقمت بتوسعة التجارة وإضافة أنشطة أخرى حتى أصبحت من أكبر تجار المنطقة وكانت من عاداتنا الزواج من بنات العائلة ولكنني لم أفكر بالزواج من بنت عمي فهي لم تكمل دراستها ولن تفهمني.. هكذا ظننت حينها ثم ندمت بعدها أشد الندم وعرفت أنها الوحيدة الأقدر على بناء أسرتي ورعاية أبنائي إنها أم مشاعل الله يحفظها.

وأكمل الشيخ حمد حديثه لأنس عن خولة زوجته الأولى ابنة الدبلوماسي التي سافرت وهي حامل في ابنته البكر شيرين أو شيري كما تحب أن ينادونها وحرمته من رؤيتها سنوات، وبعد جهدٍ وعناء استطاع رؤيتها فوجدها كائنًا مشوهَ العقل والسريرة، تحمل أفكارًا غريبةً عن أفكار أهلها وبيئتها ولا ترضى بكونها أنثى وتنعت مجتمع أبيها بالمجتمع الذكوري الظالم؛ فكل أفكارها المشوشة أخذتها من أمها التي تمكنت ببراعة أن تجعل ابنتها نسخة مصغرة منها في

الأنانية والمادية والرغبة الجامحة في الفوز بكل شيئ دون أي تنازلات.

بالإضافة لحالة النفور والكره التي كانت تضمرها هذه الفتاة في نفسها تجاه والدها بسبب السموم التي نفثتها أمها في رأسها منذ نعومة أناملها..

- عشرون عامًا قضيتها لم أر فيها ابنتي، هل يمكن أن يتصور ذلك أحد؟ كانت تحيطها بسياجٍ من فولاذ كان الوصول إليها أصعب من عبور جبال الألب.

هكذا قالها مصحوبةً بتنهيدة مزقت أشلاء صدره قبل أن تخرج.

كان المغزى من ذكر هذه القصة (والتي يصعب على شخصٍ في مكانة الشيخ حمد أن يذكرها لمساعده) إلا أنه أراد أن ينصحه إذا ما فكر بالزواج أن يختار امرأة بسيطة لم يجرفها تيار العولمة ولم تبهرها أفكار الغرب البراقة الزائفة التي هدفها الوحيد إفساد المرأة وخروجها من اطار الحياة السوية وانصرافها عن رسالتها السامية التي خلقها الله لها.

اعتذر أنس للشيخ حمد على عرضه السخي، وأخبره أنه لن يستطيع فعل ذلك فوالدته لا تستحق منه أن تكون هذه مكافأته لها.. أن يتزوج دون مباركتها ووعده أنه حين يفكر بالزواج سوف يكون حريصًا على اختيار الزوجة المناسبة.

على الرغم من طيبة الشيخ حمد وعطفه على أنس إلا أنه لم يختلف كثيرًا عن صقر في نظرته الدونية له، فها هو يعرض عليه الزواج من ابنة سائقه..

أنس ابن الأسرة ذات الأصول العريقة، طالب كلية الطب الذي كان ينتظره مستقبلٌ باهرٌ لولا وفاة والده وتعثر ظروفه..

فكثيرًا ما نتحدث عن المبادئ والقيم والقدرة على استيعاب الآخر وفهمه، ولكن التنفيذ أحيانًا يكون صعبًا وبدون أن نشعر نتخلى عن كل ذلك وننظر للأمور بنفس النظرة التي كنا ننتقدها سابقًا.

عقدٌ من الزمـــان

على وقع لطمةِ حنين، ودوامةِ شوقٍ تجري الأيامُ معقودةً في طرف السنين..

صارت فريسة الرتابة من كثرة العد..

لوحة المشاعر أغرقها طوفان.. أصابته اللوثة بمسٍ فصار موطنًا للغليان..

وأنا الضعيفُ في منتصف كلّ شيئ، بلا قرارٍ أو رد..

تهيج الموجةُ فتصرع أختًا لها في المولد..

ولا حيلة لي بينهما في هذا الصراع لا ناقة لي ولا أحد..

تخطف العاصفة بعضًا من أقراني، ولا أهتم بقدر ما امتلأ القلب بالبرد..

سنواتٌ عشر سرقت منّي أحلامي، وألقت بي على شواطئ لم تكن أبدًا في الحُسبان..

تذكرتُ أول أيامي في الكويت، ثم أول أيامي في المزرعة وبعدها أول مرّة أخرج فيها بمفردي، وكيف كانت دهشتي من هذا البلد..

كانت تعاملاتي مع أهله محدودةً تنحصر في الشيخ حمد وناصر وصقر وصديقي بدر..

عاد بدر من ألمانيا، شابٌ ممتلئٌ بالطاقة والعنفوان يريد أن يحطّم كل العادات التي تربى عليها جيله، ومثله الكثير، فقد أقام ورشةً للنحت والحفر على الخشب في المزرعة يأخذ جذوع الأشجار المقطوعة فيُحيلها إلى تحفٍ مذهلة..

وكانت أجمل هدية تلقيتها هنا هي وجهي منحوتٌ على قطعة خشب..

- سلِمت يداك يا بدر.. رائعة، سوف أحتفظ بها ما حييت

أنس أنتَ الهدية في حد ذاتها.. الهدية التي أرسلها لي الله لينقذني مما كنت قادمًا على فعله.-

- وما أنا سوى أداة أرسلها الله لحمايتك في الوقت المناسب، ليس بأيدينا شيئ يا بدر هي فقط إرادة الله..

حينها فاجأه بدر بالسؤال:

- سنوات كثيرة مرت يا أنس وأنت لم تخبرني بقصة اسمك بعد، بحثتُ عن الإسم في محركات البحث وقرأتُ الكثير من الحكايات ولكنني أود سماعها منك؛ فهل تخبرني بها الآن؟

ابتسم أنس وأخذ يسرد لبدر تفاصيل القصة واختيار والده لهذا الإسم..

- بعد انتقال والدي إلى القاهرة للدراسة والعمل وتهجير أهله ونقلهم من قُراهم لم يعد قادرًا على الذهاب هناك ثانيةً وكان الحنين يملأ تجاويفه لأرض الذهب وترابها الذي غرق للأبد..

وما إن رُزقَ بأول مولود ثارت بداخله رياح الحنين والشوق وأراد أن يظل هذا الحنين مشتعلًا في صدره، فاختار له اسم أنس الوجود..

تقول الأسطورة أن هذا الشاب المسمى أنس الوجود عشق ابنة الوزير (الورد في الأكمام) وكان هو أحد الجنود ويقال كبير الحراس، وبعد أن اكتشف والدها قصة عشقهما سجنها والدها في جزيرة فيلة لتبقى بعيدة ولا يصل إليها أنس الوجود.

حتى يصبح الوصول إلى جزيرة فيلة حُلمك كما كان حُلم أنس الوجود.. -كان هذا ردّ والدي حين سألته لماذا سماني بهذا الاسم..

- قصة عجيبة فعلًا يا أنس، أتمنى أن تصل إلى هناك يومًا..

- أتدري يا بدر؟ كنتُ سأذهب في رحلة الجامعة إلى الأقصر وأسوان في إجازة نصف العام في أول عامٍ لي بكلية الطب ولكنني مرضتُ مرضًا شديدًا قبل السفر بيومٍ واحد ولم أتمكن من السفر مع زملائي لأن الرحلة بالقطار مُجهِدة، وفي العام

التالي توفي والدي وانقطعتُ عن الدراسة ولم أكن أملك الفائض من المال أو الوقت للقيام بهذه الرحلة..

- إن شاء الله ستقوم بها يا أنس، سوف يجذبك قَدَرُك مهما ابتعدت..

كنتُ سعيدًا جدًا وأنا أتابع أنشطة الشباب الصاعد، هؤلاء الذين رفضوا الاكتفاء بالاستمتاع بالعيش الرغد والرفاهية خاصةً بعد اكتشاف البترول، وارتفاع مستوى الدخل.. واستعادوا روح الأجداد وشعلة النشاط والحركة التي تميزوا بها سواءً في صيد الأسماك أو الغوص لصيد اللؤلؤ وكذلك السفر للتجارة..

وفهموا أن لكل زمانٍ متطلباته فدرسوا وتعلموا ليطبقوا ما تعلموه بما يناسب بيئتهم واحتياجاتهم.

ولم تعد المهن البسيطة وصمة عار لا يجب أبدًا امتهانها كما كان في السابق، بل أصبح هناك المهندس الشاب صاحب ورشة تصليح السيارات الذي يعمل بيديه، وهناك الشيف الذي يقف في مطعمه ويطهو الطعام أمام روّاد مطعمه وغيرها من المهن الأخرى..

كذلك الحال بالنسبة للنساء فأصبح أمرًا طبيعيًا سفر الفتاة للخارج لتستكمل دراستها وأصبحت هناك طبيباتٍ تخصصن في أدق التخصصات وهناك أيضًا المهندسة والمحامية واستطاعت المرأة أن تثبت نفسها في معظم المجالات، واستحقّت الكثير من الحقوق كما

نالت حقوقها السياسية وصارت هناك الوزيرة وكذلك عضو بالبرلمان.

فعلًا الزمن يغيّر الكثير..

وداع

سريعةٌ هي دورة الأحلام، ما بين صباها وهِرمها حكاياتٌ لا تُعد..

ومازلنا على نفس المسرح دون ستارةٍ تُرفع للبدء..

أو تُسدل بعد الختام..

تتساقط أيامك بين يديك، ومع كل يومٍ حلم..

زهدتْ خطواتك البقاء في هذا السيرك..

تستسلم قدماك وتغادر السباق بعدما أدركت أن الكل خاسر..

ولا فائز على الأيام..

رضخ الشيخ حمد لرغبتي في العودة وإصراري على ذلك، فوافق على وعدٍ مني بالعودة مرةً أخرى إذا ضاقت بي الأحوال في بلادي..

ووعدته بذلك وإن كنتُ في قرارة نفسي قد عزمتُ على مغادرة هذا السجن دون رغبةٍ منّي في العودة ثانيةً..

فمن هو المجنون الذي يعود لسجنه مرةً أخرى؟

لملمتُ ذكرياتي من أنحاء المزرعة ولم يكن الأمر سهلًا كما ظننت؛ فهاهي الغرفة التي أبصرتُ فيه الحياة مرةً أخرى بعدما ظننت أنني هالكٌ لا محالة، وها هي ذكرياتي المبعثرة في كل أركانها..

هناك ركن الماضي البعيد أيام طفولتي وملازمتي لوالدي وحكاياته في المقهى عن بلاده البعيدة وطفولته بين الآثار وزياراته لمعبد فيلة ومعبد ايزيس وأنس الوجود بجزيرة فيلة قبل نقلهم من مكانهم بعد بناء السد العالي.

وهذا الركن الذي أرى فيه وجه والدتي نجية وأخواتي رقية ومنى.. كم اشتقتُ إليهم! فمكالمات الهاتف لم تعد تكفينا على التصدي لجيوش الشوق..

وألملم أشلاء الذكريات من العرزالة التي كانت مكاني المفضل في غياب الشيخ حمد أجلس فيها عند الغروب وأنا أودع آخر خيوط الشمس وأسترجع أحاديثه معي التي تعلمت منها الكثير..

ثم هذا الركن البعيد حين كانت تذهب لجين بحصانها فأهرول خلفها خوفًا عليها أن يختل توازنها من فوق الحصان وتسقط فيسقط قلبي معها..

وهذا الركن حيث كان ناصر يلزمه حين يفكر في أمر هام، فكنتُ أفهم أن وراء سكونه هذا أزمة قد افتعلها صقر أو كارثة قد فعلها ولكن ناصر يريد أن يحكيها للشيخ حمد بعد أن يحلها ويخفف أثرها.

سهراتنا أنا وسهيل والعمال التي كنا نقهر فيها برد الشتاء ونحن نتحلق حول النار ويحكي كلٌ منا قصةً طريفةً قد واجهته فنهزم ليالي الشتاء الطوال.

لا شيئ يدوم..

لا المحن ولا حتى لحظات الفرح القلائل..

صافحتُ الجميع ووعدتهم بالتواصل بعد الاستقرار..

وكان إحساسي بالطريق من المزرعة إلى المطار أقصر مما كنت أشعر به في كل مرة حينما كنت أذهب بالشيخ حمد لتوصيله إلى المطار عند سفره، كانت السيارة تلتهم الطريق وعيناي تُسابقها لتودّع كل شارع وكل رصيف شهد على آلامي الكثيرة وأفراحي القليلة..

لحظاتٌ مؤلمة حين تودّع مكانًا تعرف أنك لن تزوره مرةً أخرى وقد تركتَ فيه سنواتٍ من عمرك رهينةً لا تُسترد؛ فحين تأسرك ذكرياتك وتشتاق إليها تترك نفسك تأخذك أقدامك إلى نفس المكان ثانية لتعود فتعيش تفاصيلها مرةً أخرى، ولكن هنا لا يمكنك العودة..

إنه رحيلك الأخير.. وداعٌ بلا أمل في اللقاء..

تمنيتُ حينها أن أحظى بنظرة أخيرة ألقيها على لجين، ولكن كيف لي ذلك؟

خاب ظني بأنها أميرة حلمي المنفية في قلعتها..

وحان وقت الرحيل والعودة للجذور...

الجزء الثانى

د. أمل درويش

العودة للجذور

في المطـــــــــــار

هذا الفراغ الذي يشبهك، يملأ تجاويف ذاكرتك حتى تضج..

عبثًا تحاول منه أن تختبئ، تختفي ولكن دون جدوى؛ فحيرتك لا تنتهي وأحلامك مازالت تمتد..

تحاول أن تلمس النجوم وأقدامك مازالت على الأرض.. وأما صحوك فحالٌ آخر، مهزومٌ أنتَ أمام أحلامك، خطواتك لا تمضي للأمام، مقهورٌ في زحام الأفكار وبين طرقات الأمل والرجاء تنتقل..

تكتنز من كل ما ترى حكايةً، وتعاهدهم أنك بالنهاية ستنتصر.

عدتُ وكان في استقبالي أمي وأخواتي، في لقاءٍ بلا حروف، بلا كلمات فقط سيول الدمع تهطل لتحرق المسافات وتغسل الأرواح العالقة بين الأنين والكد..

ابتلعتْ الشوارع دهشتي، صرختي من أنا وهل هذا موطني؟ كل شيئٍ مختلف.. عشر سنواتٍ كانت كفيلة بتبديل ثياب كلّ شيئٍ من حولي ماعدا أثواب روحي المتهالكة، عشر سنواتٍ لم أُبدّلها، بل حافظتُ عليها كي لا أفقد هويتي وأنسى من أنا..

لم يكن من الصعب أن أقتطع لنفسي إجازة أزور فيها أمي وأخواتي خلال هذه السنوات العشر، ولكنني كنتُ أشعر أنني ما إن قابلتهم واحتضنتهم فلن اقوى على فراقهم ثانيةً، فآثرتُ البقاء في محبسي لأنهي المدة وأعود بعدها حرًّا لهم.

مازلتُ لا أصدق أنني بينهم، ولكن تُفيقني من غفلتي ما صاروا عليه الآن، أنظرُ في عينيّ أختي رقية فأجدها قد نضجت وشاخت فيها النظرة، وألمح على وجه أختي منى عشرات الأسئلة..

وأما أمي نجية فكانت كما عهدتها من الظروف أقوى وإن خارت قواها لا تشكو ولا تنبس ببنت شفة..

كانت بشرتي السمراء التي ورثتها عن والدي وجذوره الأسوانية قد صُقلت بشمس الصحراء فأصبحت بلون القهوة المُرة، وأصبحتُ بين عائلتي كلوح الشوكولاتة الداكنة.

وأما رقية ومنى فلم يكن لهما الكثير من هذا الإرث واختلط لون بشرتهما بمزيج مفعم من حُمرة غروبٍ شتوي مع صفاء الشروق في أيام الربيع الزاهية نسبةً لچيناتٍ انتقلت لهن من جدتي عبر أمي ذات الأصول التركية..

أشارت لي أمي على غرفتها لأدخلها وأرتاح فيها فهذه غرفتي من الآن كما قالت، وأضافت أنها منذ سفري تنام مع أخواتي في غرفتهن..

كنَّ يحتمين ببعضهن في ليالي الوحدة الباردة..

ولكنني شكرتها وأخبرتها أنني سأعود لغرفتي القديمة فأنا أشتاق إليها كثيرًا وسوف يعود كل شيءٍ كما كان ولتعد أمي لغرفتها فلن يعانوا الوحدة بعد الآن، ولن أتركهم مجددًا.

عدتُ لنفس الجدران أحتضن غربتها في قلبي وأسكبُ عليها من رحيق الود رغبةً في الغفران ومسامحتي، غرفتي التي اقتطعها والدي من صالة شقتنا الكبيرة بعدما غزا ذلك الزغب المزعج جوانب وجهي والمنطقة الفاصلة بين أنفي وفمي، وكأنه جرس إنذار يدق على رأسي.. امسكوا هذا الهارب من صفوف الكبار كي لايعود ويلهو بين الصغار.. وصار فصلي واجبًا وتركتُ غرفتي لأخواتي رقية ومنى.

هذا هو سريري على الجانب يركن على الحائط الذي يحتضن النافذة الوحيدة بغرفتي،حيث كان يضايقني شعاع الشمس القادم منها حين توقظني أمي صباحًا في أيام الإجازات فأخبرها أن الوقت مازال باكرًا لتقول أنها تجاوزت العاشرة..

- استيقظ وانشط يا بني، هناك الكثير في مثل سنك ذهبوا لأعمالهم منذ ساعات..

على الحائط الآخر مازال هذا الإطار يتحدى السنوات ويقف شامخًا، أعلم أن يدي أمي مازالت تهتم به وربما لم تتركه يومًا دون أن تحنو عليه، كي لا يقع فريسة سهلة ويتراكم عليه غبار السنوات..

أنا وأبي نقف داخله نتحدى الزمن، كنت وقتها لم أكمل العاشرة من عمري..

وتحت الصورة يقع مكتبي الصغير الذي رافق مسيرتي في المدرسة ومذاكرة ليالي الثانوية العامة حين كنت أصل الليل بالنهار لأحرز أعلى الدرجات فأتمكن من تحقيق حلم والدي..

وقد تحقق ودخلت كليّة الطب، ولكن أين أنا منها الآن؟

كانت أولى صدماتي أنني فُصلت من الكلية لطول فترة غيابي، وكانت ضربةً موجعة.. فبرغم تظاهري باللامبالاة إلا أن روحي مازالت باكية..

أصبحتُ معتادًا على انكسار الأحلام..

كانت بداخلي رغبةٌ عارمة باحتضان كل شبر في أرض وطني، أم الدنيا كما يلقبونها..

كنتُ أنزل من الصباح ولا أعود حتى يخطف الليل آخر شعاعٍ للغروب من عينيّ أبتلعُ كل الجثث المارة من أمامي، ألتهم كلٍ تفاصيل الشوارع بِنَهمِ جائعٍ عاد للتو من الصحراء..

تذكرتُ حينها كلمات الشيخ حمد:

- مصر لؤلؤة جميلة، لكنها تحتاج لأيدي أبنائها ليزيحوا عنها التراب

كنت أتجول وأتساءل بدهشة: أين اختفت الأبنية المُزخرفة بأيدي فنانيها المهرة؟

وما هذه الكتل الخرسانية متضاربة الألوان؟ وكأنها في عيد الهولي الهندي تنثر ألوانها في أعين السماء.

وهذه الوجوه المُنقبضة، وكأنها تحذّرك:

- إياك والنية بِذرِّ حروفك في الفضاء !

لا أحد يحتمل عبورك، أين الطيبة التي اتسمت بها أرواحكم؟

وكأن سحب الدخان قد حيكت أثوابًا على قدر كل واحدٍ قطعة من الهم..

دعتني والدتي للجلوس معها في غرفتها بعدما أنهت صلاة الضُحى ومازالت جالسةً على كرسيها في يوم إجازتها من روضة الأطفال التي تعمل بها..

فجلستُ على الأرض بجانب قدميها ووضعت رأسي على ساقها، وهمست إليها:

أليس من المفترض أن ترتاحي الآن؟ أنا عدتُ لألبي كل طلباتكم، فارتاحي يا أمي واتركي العمل.-

- يا بني أنا لا أشعر بالتعب، بالعكس منذ نزولي للعمل وأنا سعيدة جدًا فلا تدري كم فرحتي حين أُعلّم الأطفال الآداب

العامة واحترام الكبار والإلتزام، أنا لا أعلمهم فقط مبادئ القراءة والكتابة بل أعلمهم أسلوب الحياة التي تربينا عليها في صغرنا، هذا الجيل حُرم من الكثير من الدفء واجتماعات العائلة، سُلبت منهم طفولتهم وهم مازالوا صغارا.

ثم ذهبت إلى دولابها وفتحته لتحضر منه بعض الأوراق ومدت يدها..

- خذ يا أنس.. هذا دفتر توفير فتحته باسمك

فاندهشتُ وأكملت هي كلامها:

- بعدما بدأتُ عملي هنا واستقرت أمورنا المادية فتحتُ لك هذا الحساب وكنتُ أدخر لك ما ترسله من مبالغ كنتُ أستطيع توفيرها لك.

- كيف ذلك يا أمي؟ لماذا ضيّقتم على أنفسكم ؟

وكيف نستمتع يا بُنيّ وكل جنيهٍ كنتَ ترسله إلينا الله وحده أعلم بما كنتَ تتحمله من أجل الحصول عليه.

بكيتُ وقبّلتُ يديها وبكت هي الأخرى واحتضنتني ولفت بذراعيها حول ضعفي لتذيبه في لحظات.

- أنس يمكنك الآن شراء شقة والزواج فكل من في سنك يا بني تزوجوا، ويمكنك عمل أي مشروع يساعدك على تعويض ما فاتك.

- **شقة؟ ببرج؟**

هذا الهاجس الذي يساورني كلما دخلتُ في مصعد إحدى البنايات الشاهقة فأتذكر جدي وخالي سامح وخالي راضي وخالتي نجوى ورضيعها وما حدث لهم في ذلك البرج العالي..

فطمأنتها:

- **إن شاء الله.. كل شيئ بأوان**

هجـــــرة داخليـــة

على أطراف غيمةٍ مهاجرة أسرجتُ أمنياتي وأحلامي، ودعوة من القلب صادقة سافرتُ خلفها على أهداب الخيال.. كم طالت حكايا المساء! وتكاثرت زوايا الاشتياق فاتسعت دوائر الأحلام وفي الصباح يمضي كلٌّ إلى حال.. وكأنه لم يكن بيننا لقاء.

بين السطور تضيع الملامح في زحمة التفاصيل، كأسراب المهاجرين منكسي الرؤوس..

لا ترى منهم سوى جناحين في الفضاء أنهكهما التحليق..

للسعي خلف الأمل صبرٌ يفوق الجبال، يستند على جداره من ذاق مرّ الترحال..

حرِصتُ أن أجوب الزوايا، أبحث عن حلمٍ لِحلمي، فربما وجدتُ خيمةً تظلل كلّ الآمال، تغنينا عن ذلّ السؤال: هل في قلوبكم وطنٌ للبيع أو للإيجار؟

أنهكني البحث عن حلم بعدما فرغت جعبتي، فأرشدني مستر أمين أن أتقدم لإحدى الكليات النظرية وأن أشتري سيارة وأحوّلها لتاكسي وأعمل عليه لفترةٍ مؤقتة..

حتى تتضح لك أحوال البلاد؛ فالوضع الآن لا يبشّر بالخير والأمور تبدو وكأنها على وشك الانفجار.-

هكذا قال..

وبالفعل اشتريت سيارة ودفعت مقدمها مما ادخرته في سفرتي، والباقي سوف أدفعه على دفعات من دخل التاكسي، هكذا كانت نصيحته، فالوقت غير ملائم لتغامر بمدخراتك طوال هذه السنوات..

لم أفهم مقصده يومها ولكنني آثرتُ تطبيق نصيحته..

برغم تعقيدات الأوراق وبعض الإجراءات التي تدفعك للجنون كثيرًا إلا أنني انتهيت منها.

استخرج لي مستر أمين شهادة الثانوية العامة مرة أخرى، وقدمت في كلية الحقوق، فكم كنتُ بحاجة لمن يسترد لي حقي المسلوب ولم أجد!

غضبت أمي كثيرًا حين فاتحتها بالموضوع وردت :

- ماذا؟ تاكسي؟ سائق تاكسي يا أنس؟ هل هذا هو تخطيطك لمستقبل؟

وما سراختيارك كلية الحقوق!!! كيف ذلك يا بني؟

أتضرب بحلم أبيك عرض الحائط؟

ألم يكن بامكانك التقديم في جامعة أخرى؟ وتختار دراسة الطب وتبدأ من جديد؟

كانت أسئلة أمي المتلاحقة سياطًا تجلدني، وأنا لم يعد لي طاقةً على احتمال كل ذلك..

- أمي لو كان أبي مازال بيننا ماكان حدث كل ذلك، لو كنتُ انتظمت في كليتي ما كان حدث كل ذلك!

أنا لم أخذل أحدًا سوى نفسى، لم يكن حلمي دراسة الطب بل كان حلمكم، لم أختر سفري بل الظروف ساقتني إليه كثورٍ ساقوه لحلبة مصارعة لإمتاعهم. اتركوني أختار مصيري ولو لمرةٍ واحدة، يكفيني سنوات العمر التي ضاعت مني دون ذنب.

رضخت أمي لرغبتي ودعت لي بالتوفيق كعادتها.

أما رقية فكانت تحبس كلماتها خلف ألف سورٍ، فهي تعرف مقدار تضحيتي من أجلهم، لكنها لم تستطع أن تحبس دمعها المنهمر، فابتسمتُ لها لألطف من التوتر:

- أنا فقط لا أريد أن أخطف منكم المرضى، أعرف أنني لو أصبحتُ طبيبًا لامتلأت عيادتي بالمرضى وأنتِ وأحمد ستتفرغوا لحل الكلمات المتقاطعة.

أفرجت رقية عن ابتسامة خجولة من بين ستائر الدموع تسربت.

وبدأ العام الدراسي الأول بالضبط عام ٢٠١٠ أذهب لكليتي في الصباح وبعد نهاية المحاضرات أكمل يومي بعدة توصيلات تتيح لي سداد أقساط السيارة.

كنتُ أتابع ما يعرض في البرامج على شاشة التلفاز وكأنني أرى بلدًا آخر غير الذي رأيته وأنا هناك، كل ما فيها خيال، ولا أصل له في الواقع..

كتل اللحم التي تجوب الشوارع، البطون الجائعة والأطفال المُشردة، قصصٌ لن تصدقها إذا ما سُردت لك وكأنها من أحداث ألف ليلة وليلة..

وأنا الذي تخيلتُ أنني وحدي ضحية!

تذكرتُ كلمات الشيخ حمد حين وصف ما حدث في العراق بعد عودة المحاربين من ساحة المعركة ضد إيران، وكيف كانت شراستهم مع العمالة المصرية هناك، حيث أن هؤلاء الجنود ظنّوا أن العمال المصريين أخذوا أماكنهم فما كان منهم سوى التعامل معهم بكل شراسة فظهرت على شاشات التلفاز التوابيت التي تصل كل يوم لمطار القاهرة مُحملة بجثث المصريين، وساد الغم والهم على وجه كل الأسر المصرية حتى التي لم تفقد أبناءها هناك فكلهم مصريون، وكلهم أبناء الوطن.

والبيوت المصرية عانت كثيرًا منذ قديم الأزل وكانت هناك فترات يعتصر فيها الحزن قلوبهم ويخطف منهم شبابهم، إما في الحروب المتتالية كما حدث منذ العام 48 في فلسطين ثم هزيمة 67 وحرب الإستنزاف وإنتهاءً بحرب أكتوبر 73، وتلتها الكثير من الأزمات مثل سقوط طائرة أوانقلاب قطار، أو غرق عبارة في البحر الأحمر يليه غرق مهاجرين غير شرعيين إلى أوروبا على سواحل إيطاليا، والكثير من الأزمات المتلاحقة..

الحمد لله أنني مازلتُ صامدًا في معركتي الصغيرة، فمازالت آثار تجربتي الأولى تعكف على مغادرة ذاكرتي وربما لن تغادرها للأبد.

دنيـــا داخل التـــاكسي

سائحٌ في فضاءات خيالك.. تهيم بلا شطآن.. بلا مرسى..

قطعةٌ منكَ مازالت على الأرض أسيرةٌ، تحارب قطعةً أخرى في خيالاتها تنطلق..

من منهما ستنتصر؟

من حولك سيدفعك؟

ومن يسرقك من أيامك؟

على الرغم من عملي بقيادة التاكسي لعدة ساعات فقط إلا أنني شاهدتُ الكثير من المواقف وسمعتُ الكثير من الحكايات..

لا أحد خالٍ، الجميع غارقون في الحكايات..

ولكنهم أيضًا فاقدون لمن يسمعهم..

في بلادنا لا أحد يعترف بحاجته للطبيب النفسي، بالرغم من شدة احتياجنا إليه أكثر من الطعام والشراب..

نحتاج أن نتنفس.. أن نطفو فوق ركام الذكريات.. ومن منا يجرؤ على الإعتراف بذلك؟

كان هذا مضمون حديثٍ دار بيني وبين أحد الركاب:

- يا بني جميعنا مرضى نفسيين.. بشكلٍ أو بآخر.. الضغوط تقتلنا بالبطيء، البركان الخامد يحتضن بداخله حممًا تلتهب.. إذا لم ينفث بعض دخانه ثار وانفجر..

كان رجلًا في عمر والدي لو كان حيًّا بيننا الآن.. ذكرتني كلماته بأفكار جدي بعد أن حكموا على حروفه بالنفي والإعدام..

لا تخطفك الدهشة كثيرًا حينما تجد رجلًا في العقد الخامس أو السادس من عمره يتحدث بهذه الحكمة ولديه هذا الفكر وهذه الثقافة، ولكن حينما تجدها في صبيّ لم يخطّ شاربه بعد فيصيبك الذهول.

كان هذا الصبي يجلس بجواري بينما والدته تجلس بالخلف، كانت عيناه تحيطها تتلفت لتطمئن عليها من حينٍ لآخر..

فسألته: كم عمرك يا....؟

أخبرني حينها أن اسمه نور وأنه أكمل الحادية عشرة من عمره منذ أيام، فابتسمت وأخبرته أنه ذكرني بنفسي حينما كنتُ في مثل سنّه، فردّ نور بصبرٍ وتجلّد:

- والدي مريض بالمستشفى ونحن نزوره كل يوم مازال ينتظر دوره لإجراء جراحة في القلب ولكن دوره لم يحن بعد، لم يجدوا له سريرًا خاويًا حتى الآن وينتظر في قسم الأمراض الباطنية حتى يحين دوره

بعد أن يخلو سرير بقسم جراحات القلب في إحدى المستشفيات الحكومية.

وأكمل حديثه:

- أبي قال لي: أنت الآن رجل البيت حتى عودتي.. اهتم بأمك، ولهذا أنا أصطحبها كل يومٍ إلى المستشفي حتى أحميها؛ فربما ضايقها أحدٌ وهي في طريقها وكي أطمئن أيضًا على أبي وأمُرُّ على الأقسام في المستشفى ربما وجدوا له مكانًا خاويًا.

سألتُ نور عن سكنه وأخبرته أنني سأنتظرهم كل يوم لأوصلهم للمستشفى، فشكرني كثيرًا وحين وصلنا هم بإعطائي أجْرَ التوصيل فأخبرته أنني سآخذ أجْري دفعةً واحدةً حين يخرج والده من المستشفي معافى بعد جراحته؛ ولكنه أبى بحجّة أنه سوف يكون مبلغًا كبيرًا ربما لا يستطيع سداده، فقلت له:

- لا تهتم سوف آخذه منك على دفعات..

ذهب الصبي نورمع والدته، وفي اليوم التالي فوجئ بانتظاري لهما في الموعد فقال:

- ظننتك لن تأتي.

فأخبرته أنني لا أخلف وعدي، وصرنا أصدقاء وقد زرت والده معه عدة مرات ولكن القدر لم يمهله فقد فاجأته أزمة عنيفة كانت أقوى من قدرة قلبه على التحمل وفارق الحياة.

مسكين هذا الصبي سوف يعيش فصول معاناتي ولكنها أتته باكرًا، زرته بعد الفاجعة وطلبت لقاء والدته، أخبرتها بأنني سوف أتكفّل بكل مصروفات تعليمه حتى يكمل الجامعة، وأعطيتها مبلغًا ليعينها على تدبير أمورها حتى تنتهي من إجراءات المعاش السخيفة التي أعرفها جيدًا حين كنت أصاحب والدتي بعد وفاة والدي.

وحين عُدت لمنزلي نسيت عناء اليوم وأنا أتذكر حديث الرسول صلى الله عليه وسلم:

أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة، وأشار إلى السبابة والوسطى..

فما أجملها مكافأة! وما أجملها رفقة!

عُدتُ من جديد لنفس الدورة، الجامعة ثم التاكسي، وهذا العالم المجنون الذي صار يسحقنا بداخله، وها هما راكبان جديدان وقصة جديدة تبدأ فصولها بِنقاشاتٍ حادة بين زوجين كعادة معظم الأزواج في بداية كل شهر وتنظيم الرواتب لتكفي احتياجات الأبناء.. خصوصًا بعد تضاعف الأسعار، بينما الرواتب مازالت محافظةً على ثباتها..

فئة جديدة من الشباب ظهرت بسبب تغير نمط الحياة من حولهم، بلا هدف شاخوا في ريعان شبابهم.. مستقبلهم في آخر نفقٍ مظلم لا آخر له..

كانت هذه أسئلتهم الحائرة التي لا تجد إجاباتٍ شافية وربما لا تجد بالأساس آذانًا صاغية، تشابهت جميعها وإن اختلف الأشخاص.

- لماذا نتعلم؟ لا عمل مناسب.. لا راتب يعينك لتقيم صُلبك.. لا فرص للزواج.. وكل شيء بعيد المنال

- هما أهالينا خلفونا ليه ؟

- تعلمت وتخرجت وانتظرت العمل المناسب فلم أجده، وحين فكرت في مشروع قتله الروتين والبيروقراطية وهو في المهد، وأما كبار المستثمرين فيحظون بكل التسهيلات دون حد.

وإذا حالفك الحظ ونجحت، تجد الضرائب تحاصرك وفوائد القروض تصلك إلى السجن.

فأين العدالة في ذلك وأنا في بلدي بلا حماية؟

أتنقل بين المناطق، فأرى أحياءً جديدة لم أرها من قبل..

صورٌ مشابهة لما قاله صقر.. عشوائية المنظر تصيبك بالغثيان..

ثم تنتقل بعدها بعدة شوارع إلى عالمٍ آخر.. حيث ترى كلابًا مدللة تتدلى من عنقها سلاسل الذهب.. ربما ًغيرها الكثير من البشر لا ينال نصف ما تناله من اهتمام..

شوارع أنظف من بيوت بعضهم.. وسيارات فارهة ثمن إحداها يُنشيء مدينة بأكملها..

ومقابلهم على الجانب الآخر أعشاشٌ من الصفيح يسكنها الآلاف تحت خط الحياة..

وكأنني لستُ من هذا البلد..

ولماذا العجب؟

فالحال هنا لا يختلف كثيرًا عن حال الكويت.. مناطق تعج بالعشوائية حيث يسكن العمال، وأخرى ارتدت أبهى الحلل وكأنها احدى شوارع "بيفرلي هيلز" وكأنهما من عالمين مختلفين.

عجيب أمر هذه المدن، تحمل جميع المتناقضات.. فكما كنتُ مبهورًا بزيارتي لفرنسا، زال انبهاري بعدما تجولت فيها عن قرب، خاصةً ساحة برج إيفيل التي كنت أراها في الصور متأنقة كعروسٍ في ليلة العرس، ولكن حين تجولت فيها وجدت أكوام القمامة التي خلّفها الزواروالقوارض تنتشر حولها..

البعض يرجع هذه الظاهرة لزيارات العرب وممارساتهم هناك، كما يفعلون في بلدانهم، ولكن هذه حقيقة كل البشر، في التجمعات الكثيفة تنتشر عدوى الإهمال، ويتغافل البعض عن التزامهم.

ولكن الأمر هنا في بلدي يختلف، فالبعض يريد التغيير لتحسين الأحوال، والبعض يريد أن يبقى كل شيئ كما هو فمصلحته مرتبطة بهذه الفجوة العميقة بين العالمين، عينة عشوائية لمجتمعٍ يقبع في قِدرٍ على نار، وقد قارب على الفوران..

ثـــــــــورة البركـــــــــــان

في دائرة الخيال أسرِقُ روحي من هذا المكان، أخلعُ جذوري، أُلقي شعوري..

لا لأرضي أنتمي، ولا سماء تَسَعني..

كفاني اختناقًا، كفاني حضورًا باهتًا مبتورَ الخواطر..

أُلملم شتاتي من بين عظام القبور.. يا ذاتي المقهور!!

أخفيتُ عنگ أحلامي، وكلّ أيّامي..

من الوهم اكتفيت، وأعلنتُ الرحيل لِفضاءٍ بعيد يحمل آخر نجمةٍ خلف السماء السابعة، وآخر كوكبٍ بعد سابع أرض.. حيثُ اللا ظُلم، ولا وطن يُباع ويُشترى..

أكملتُ العقد الثالث بعد القرن العاشر أو العشرين، أخفقتُ العدّ من سنين..

ما بين أروقة الذكريات المُرسلة عبرَ أحلام المهاجرين..

ترشقني شظاياها تغرس الجمر في القلب، تحبسه بين الضلوع.. يا وطني الموجوع.

أبكيگ عُمرًا، وتهجرني بلا وداع.. تتركني فريسةَ الضياع..

ارحل منّي، اهجرني.. مِن أوجاعگ سئمت، وجفّت الدموع..

شعبٌ ثائر، ينفجر بركانه الذي أخمده دهرًا، ولم تكن أوجاعه تضنيه، كان يلوك الألم سرًّا.. عن كل العيون يخفيه..

آهٍ لصمت السنين حين يحتضر وتُطلق صرخةٌ من بين السطور لا تعرف لها مصدرًا..

برغم كل أسقامي لم أقتنع بعد، لم أصدّق أن هذا هو الحل..

كنتُ أتابعهم من خلف شاشة التلفاز ولا أصدق وجودهم..

كانت بدايات الدعوة بالنزول للشوارع عبر برامج التواصل الإجتماعي، مجرد دعوات يطلقها الشباب، ولا يعرفوا كم عدد من قرأها، وهل هي مجرد ثورة في العالم الإفتراضي الذي يعيشونه وقد باتوا فيه غارقون؟

اتفقوا على النزول يوم عيد الشرطة الموافق 25 يناير، وقد اختاروا هذا اليوم تحديدًا بسبب انتهاكات بعض أفراد جهاز الشرطة المتكررة لحقوق وحريات الشعب ومعاملتهم السيئة، والقبض على أي أحد لمجرد الإشتباه فيه وحجزه دون أي دليل، وربما وصل الأمر لتعذيبه للحصول على معلومات قد يكون بالفعل يجهلها ولا علم له بها.

ومع تطور التكنولوجيا أصبحت هناك مقاطع فيديوهات تعرض اعتداءات لبعض أفراد الشرطة على بعض الشباب والتنكيل بهم، تم تصويرها بواسطة أجهزة التليفون الحديثة وبُثت على شبكة المعلومات، وانتشرت بسرعة النار في الهشيم، مما أثار الكثير من الشباب ونزلوا إلى الشوارع والميادين..

بدأت الأمور بشكل سلمي في البداية كما خطط لها الشباب، وتفاجؤوا بنزول العديد والعديد من المواطنين من كافة الأعمار: شباب.. نساء.. رجال في منتصف العمر وكبار في السن شاركوهم بعدما أحسوا أن الأمر لم يعد يحتمل الانتظار والخوف على مستقبل أبنائهم دفعهم للمشاركة، ربما حظوا بعالمٍ أفضل مما عاشه آباؤهم.

كان كل شيء تحت السيطرة حتى تدخلت الشرطة محاولةً وقف الجموع الزاحفة، ولكن وقع ما لا يُحمد عقباه، وبدأ رجال الشرطة في استخدام قنابل الغاز لتفريقهم، وحين أخفقوا بدؤوا في إطلاق الرصاص المطاطي الذي أصاب الكثير من الشباب، فتراجعوا ورابضوا في ميدان التحرير..

من هنا انطلقت شرارة الثورة، وأضحت مطالب الثوار في ازدياد، فبعدما كانت كل طلباتهم معاقبة المتطاولين والمخطئين من رجال الشرطة، أصبحت هناك مطالب أكبر حتى وصلت للمطالبة بعزل الرئيس.

اتصل بي ناصر والشيخ حمد ليطمئنا عليّ، فطمأنتهما وأخبرتهما أنها مجرد مظاهرات عابرة وتنتهي..

حتى بدر اتصل ليطمئن، لا يصدق ما حدث، ويسألني:

- المصريون مسالمون، فماذا حدث لهم وما سبب كل ذلك؟

- لا أدري يا بدر، حين يفيض الكيل لا شيئ يوقف فيضانه.

على الرغم من حرصي الشديد على عدم المشاركة فيما يحدث، ليس لرفضي للتغير ولكن لرفضي أن يكون بهذه الطريقة، وعدم اكتمال وضوح الرؤية بالنسبة لي، فحتى الآن أهداف الميدان غير واضحة، وكذلك انتماءاتهم السياسية.

فعلى سبيل المثال حين قامت الثورة الفرنسية على نظام الملكية كانت طلباتهم واضحة جلية، واستمر النضال لمدة عشر سنوات انتهت بالوصول لساحة ميدان الكونكورد وإعلان الجمهورية، ولكن الأمر اليوم مختلف، والوفود الكثيفة التي ضجّت بها الشوارع اتفقت على النزول ولم تتفق ماذا ستفعل بعد ذلك؟؟

ولهذا آثرتُ التريث والانتظار حتى تتضح لي الأمور؛ فأنا لا زلت أجهل الكثير مما طرأ على المجتمع من تغيرات خلال العشر سنوات الأخيرة..

صرتُ أنقل بعض المارة بحرص في المناطق الآمنة بعيدًا عن الأحداث، كي أتمكن من فهم ما يحدث عن قرب خاصةً بعد تضارب

الأخبار في قنوات الإعلام المحلية والدولية وعدم اتفاقهم على رأي واحد، ولكن في نهاية شهر يناير طلب أحدهم مني أن أقلّه لشارع القصر العيني:

- لن نقترب من الميدان أعدك.

وبمجرد اقترابنا ظهرت لنا سيارات الشرطة من الشوارع الجانبية وهاجمتنا، كانت صدمةً كبرى فاصطدمت رأسي بالمقود، وغبتُ عن الوعي..

وحين أفقتُ وجدتني بينهم لا أدري كيف وصلت، حملني أحدهم بعدما استنجد الراكب بأصدقائه فجاؤوا والتقطوني لأبقى معهم..

لم يكن من التقطني هذه المرة من بني التتار، ولم أكن ملقى على الرمال، بل كانوا من أبناء وطني يلتفون جميعهم حولي فصرت في وسط بحيرةٍ من البشر..

في الميـــــــــدان

حين اخترتُ البقاء بين الحروف؛ كنتُ أدري أنني فيها حرفًا ساكنًا..

بين الزوايا يتوارى ليس له في قصائدگ أثر.. كنتُ أعلم أنني أبني من سرابٍ قصرًا..

تذروه رياح الخوف وتُهيلُ عليه التراب، تدفنه بين حروف العلّةِ دون ذنب..

لم أدرك حينها أنني اخترتُ دفترًا بلا غلاف..

صفحاته من أوراق الخريف تجمعتْ وتوسدتْ فرعًا يابسًا بلا روحٍ وادّعت أنه الأمان..

وما أن هبت رياح العصر، تناثرتُ كقصةٍ بلا عنوان..

ضمدوا جرحي الناتيء في مقدمة رأسي، ولم يدركوا نزف الروح؛ فمن يضمده غير أنامل وطني؟

مجموعة شبابٍ ثارت دماءهم بعدما سُحقت دفاتر أحلامهم..

وكانت هي بينهم، خفقةٌ لا محل لها في هذا الوقت تهزُّ عرش جمودي وانكساري، لا أدري إلى أين تأخذني؟

حجران من الفيروز يخطفانك نحو بئر عميقٍ لا ترى فيه سوى صورتك، كانت عيناها تئنان بصوتٍ حزين: لستُ إلى هنا أنتمي..

- شذى..اسمي شذى، وأنت؟

- وأنا أنس

تُهنا بين حكايات المنكسرين، وبقايا الأرواحِ حولنا، وحين خفّت الحركة سألتني:

- ماذا أتى بك يا أنس ؟

فأجبتها:

حكايةٌ طويلة وقت قطافها لم يحن بعد.. وأنتِ؟-

فردت شذى:

- جئت أبحث عن أبي وتهت

في الليل يسري الهمس ليشق سكون الهواء، ذاك الصوت البعيد أعرفه، هرعتُ إليه فوجدته هو:

- الشيخ مصطفى!

كيف أتيت إلى هنا يا رفيق الغربة؟

عناقٌ طويل بطول السنين المؤلمة..

كنتُ في غياهب السجون المظلمة وخرجت فقط منذ يومين..-

قالها بمرارةٍ ثم أكمل:

- اتهموني يوم الإضراب بأنني زعيم الشعب والثورة وأنني مشروع إرهابي ومنذها وأنا أتنقل من محبسٍ للآخر ألوك الظلم ويشعلني كما الحطب..

كانت كلمات الشيخ مصطفى تشق طريقها في صدري شقا، فسألته:

وأين الباقون؟-

منير سقط شهيدًا تحت الأقدام أثناء العاصفة، هذا فقط ما أعرفه.-

وكأنه خلع قلبي من مكانه وألقاه في بئر سحيق..

كان اليوم الأول من فبراير وأنا مازلتُ بينهم، أسمع في كل ساعةٍ عشرات القصص، أهونها قصتي..

وفي المساء ألقى الرئيس مبارك كلمةً على الهواء قيل عنها أنها كانت خطابًا يستعطف فيه الشعب ويرجوه أن يتركه الشهور الباقية من مدته الرئاسية ويتعهد لهم بأنه لن يترشح ثانيةً لهذا المنصب،

وأن جُلّ ما يريده أن يكمل حياته على هذا التراب الذي عشقه ولم يقصد أبدًا الإضرار به..

تعاطفت بعض الجموع مع هذه الكلمة وبدأت المشاورات، كما تعاطفت الكثير من الأسر الموجودة في البيوت تتابع من خلال الشاشات.

وفي اليوم الثاني وبين الكثير من الحوارات والمشاورات، تنحينا جانبًا أنا وشذى بعدما امتلأت رؤوسنا بالنقاشات حتى أنهكتنا..

لقد انقسم الشعب لقسمين، قسم مازال يعتصم في ميدان التحرير مطالبًا بتنحيه عن الحكم، والقسم الثاني انطلق من ميدان مصطفى محمود متعاطفًا مع مبارك ومطالبًا ببقائه، ويواصل الزحف إلى ميدان التحرير، ليواجه معتصميه..

فأرادت شذى أن تخرجني من حالة الضيق والتوتر التي وصلت إليها، فأخبرتني أنها سوف تقصّ عليّ حكايتها فرحبتُ بذلك وكلي شغف..

وبدأت تحكي:

- **هجرنا أبي وأنا مازلتُ لم أكمل العامين ولم تعرف أمي طريقه، ثم أرسل لها وثيقة طلاقها..عاشت أيامًا صعبة ثم زوّجها خالي من صديقٍ له وأنجبت لي من الإخوة أربعة..**

عشتُ سنواتٍ لا أعرف لي أبًا سوى زوج والدتي، ثم وافته المنية وتركني بلا سند أو ظهر.. وحين مرض خالي مرضه الأخير صارح والدتي بالحقيقة، أبي لم يهجرنا، بل أُرغم على الرحيل.

فجأةً.. ضجّ المكان، واهتزت ساحة الميدان وعمّت الفوضى، خيول وجمال وعربات تجرها الخيول.. أسلحةً في كل مكان، والدماء تثور وتفور، هديرها يفوق قطارات البخار مجتمعة..

اقترب أحدهم بجمله حتى كاد يسحق شذى فصرختْ ورحتُ أسحبها فوقعت عيناي في عينيه، إنه هو: عبده الضبع!!

كيف وصل إلى هنا؟ ولمصلحة مَن هذه المرة يعمل؟

نظر إليّ لثوانٍ، وكأنه تذكرني أيضًا ثم تراجع وانطلق بعيدًا عنا.

كانت السحجات على وجه شذى الذي سرق من البدر بياضه نارًا مشتعلة ويداي تسكبان قهوتهما لتطفآن نيرانها أم لتشعلاها أكثر؟

هدّأتُ من روعها وانطلقنا بعيدًا نحتمي بمدخل إحدى البنايات المجاورة فجذبنا أحدهم إلى الداخل، بعدما تحول الميدان إلى ساحة عراكٍ تكاد تشتعل.

عم محمود، رجلٌ يشبه والدي كثيرًا غير أنه لم يرتوِ بشمس أسوان ولم تسفعه بوجهها المشرق، تجاوز الستين من عمره تحمل ملامحه علامات الطيبة والحنان، حاول تهدئتنا وأحضر لنا الماء لنبتلع صدمتنا أو نلفظ مرارتها خارج حلوقنا، وأرشد شذى لمكان مغسلةٍ

صغيرة مُعلقة على جدارٍ يحتضنه ممر يؤدي إلى دورة المياه لتغسل وجهها من آثار المعركة.

استطعتُ من تليفون منزل عم محمود أن أتصل بوالدتي وأخواتي لأطمئن عليهن وأُطمئنهن عليّ بعدما انقطعت اتصالات خطوط الهاتف المحمول لتعزل الثوار عن التواصل مع بعضهم.

أما شذى فرفضت الاتصال بوالدتها خوفًا من أن تطلب منها العودة فورًا وهي تكره ألا تطيعها.

فسحةٌ من الأمان تخطفك من بين أحضان الموت، هديةٌ لا تقدر بثمن..

بعد أن هدأت الأوضاع بالخارج رجوتُ شذى أن تعود لأسرتها فلا طاقة لي لأحتمل فقدان أحدٍ آخر، وسألتها عن عنوانها فأخبرتني أنها لن تعود قبل أن تجد والدها، فطلبت منها أن تكمل قصتها..

فأكملت بعد تنهيدة طويلة شقّت صدرها ومزقت أوصالي معها:

بعد معرفتنا بالحقيقة طلبتُ من والدتي أن أسافر لأجد والدي، فعارض إخوتي ولم يقبلوا إلا بعدما تنازلنا أنا ووالدتي عن كل ما نملك وجئنا هنا، فوالدتي عراقية ووالدي من محافظة الشرقية..

ثم أكملت:

- كانت أمي تعرف عنوانه ولكن بعدما جئنا وجدنا منزله هُدم، ولم يعرف طريقه أحد..

تمنيتُ لو كنا في وقتٍ آخر وساعدتها في الوصول لأبيها..

في اليوم التالي ذهبتُ لمنزلي لأُطمئن عائلتي وأحضر بعض المؤن لزملائي، فقابلتني رقية بانفراجة أساريرها:

- أنس بسمة موجودة في مصر

- كيف عرفتي؟

فأخبرتني أنهما تتواصلان منذ خمس سنوات، حيث زارتهم بسمة مع والدها، وهي تعمل في إحدى الإذاعات الفرنسية، وجاءت اليوم لتغطية الأحداث..

هل هذا معقول؟

أم أنني عُدتُ لهذيان حلمي مرةً أخرى؟ هل سأرى بسمة مرةً أخرى؟

ميــــــلاد أمل

حين استحالت العودة بالزمان للوراء، وانتهى زمن المعجزات..

علّقتُ كل مفردات التمني في شريط الذكريات..

وأسرجتُ الأماني في عنق الأحلام..

أُحصيها كل ليلةٍ ويوم، وأنتظر عودة الشمس بعد غيابٍ لأسألها عنكِ..

هل جربتِ يومًا طعم الانتظار ؟ لا، عساكِ ما عرفتِ..

عدتُ إلى الميدان، بعدما أصبحتُ مألوفًا بينهم، ووصلتُ إلى شذى في مكاننا المعتاد فوجدتها مكومةٌ على الأرض، فهرعتُ إليها أسألها:

- أأنتِ بخير ؟

حين رفعت رأسها كانت الدموع تحاصر كل تفاصيل وجهها فأحالته إلى خارطةٍ اختلطت فيها اليابسة بالماء..

بالكاد فهمتُ منها ما قالته:

- لقد دخل بعض البلطجية على والدتي وقتلوها ليسرقوا أموالها..

لم تكن تملك سوى قوت يومها، لقد جئنا صفر اليدين.. كنتُ أعمل أثناء دراستي لنتمكن من مواصلة الحياة هنا..

وانهارت فلم تعد في عالمنا موجودة.

- شذى.. اهدئي!

لم تنتبه شذى لكلماتي فهي مازالت تحت ركام صدمتها، طلبتُ من إحدى النساء الموجودات مساعدتي وأخذتها إلى سيارتي المهشمة وانطلقتُ بها لمنزلنا..

تعجبت أمي وأختي منى وبادرتا بالسؤال:

- مَن هذه ؟

وبعدما دخلنا قصصتُ لهما قصتها، وتركتها معهما وهممتُ بالذهاب فانتبهتُ لغياب رقية، وحين سألتهم عنها قالوا في المستشفى تتابع عملها..

عُدتُ للميدان مرةً أخرى وكان الزحام هناك كثيفًا، وكلما ضيّقت الشرطة خناقها علينا زادت جموع الوافدين وزادت أعداد الثوار في الشوارع والميادين.

ولكن في التحرير كان الأمر مختلفًا؛ فقد ذابت كل الفروق، وانحلت عقدُ المجتمع وتحللت طبقاته، يد واحدة في وجه الظلم والطُغاة..

قابلني مستر أمين وطمأنني على رقية فهي مع ابنه الدكتور أحمد في المستشفى الميداني، وأما بسمة فلابد أنها في مكان ما في نفس الميدان..

المنظر من الأعلى كان يشبه البعثرة، كتلٌ بشريةٌ تجمعت من كل صوب، فوضى خلاقة كما سماها البعض..

ولكن من الداخل حينما تنسلّ بين الجموع، لا شيئ يشبه الآخر، فقط ذابت الفواصل مع الاحتفاظ بالتفاصيل..

كل مجموعة كانت تعرف أفرادها، وفي تناسق غريب التأمت الشقوق واختفى الشِقاق..

في هذا الركن مجموعة شباب تجمعوا حول شاب يمسك بعوده ويعزف ألحان الشيخ إمام ومن خلفه المجموعة تردد كلمات أحمد فؤاد نجم:

مصر يامّة يا بهيـــــــة يامُ طرحة وجلابية

الزمن شاب وانتي شابة هو رايح وانتي جاية

جاية فوق الصعب ماشية فات عليكي ليل ومية

واحتمالك هو هو وابتسامتك هي هي تضحكي للصبح يصبح

وفي الركن الثاني مجموعة أخرى تغني أغنية عبدالحليم حافظ : عدى النهار وغيرها من الأغنيات التي تشعل حماس الثوار.

ظلت حالة الإنقسام والفوضى سائدة بعد معركة الجمل التي لم يعرف أحد من وراءها؛ فالبعض خمّن أن نظام مبارك من أستأجر هؤلاء الشرذمة لإثارة الفوضى وطرد المعتصمين من الميدان، والبعض أرجع الأمرلبعض الأيادي الخفية التي لمست تعاطف الشعب مع خطاب مبارك الأخير وهؤلاء هم من كانت لهم مصالح في الإطاحة به وبنظامه.

في كل الأحوال النتيجة واحدة، لقد تهدمت أركان النظام القديم وأصبح الرحيل ملاذهم الوحيد..

ومنذ جمعة الرحيل كما أطلق عليها الثوار في اليوم الرابع من فبراير حتى جمعة النصر لم تهدأ الميادين ولم تخفت عزيمة المصريين ولم يهدؤوا.

في مساء الجمعة الحادى عشر من شهر فبراير ألقى السيد عمر سليمان نائب الرئيس حينها بيانًا قصيرًا على الشعب ليخبرهم بتخلي الرئيس مبارك عن سلطاته، وتنحيه عن الحكم، بعدما اعترض الجيش على ممارسات الشرطة في قمع الجموع الغاضبة، ورفض الوقوف مع النظام الحاكم ضد الشعب، وهذا ما فعلته جيوش الدول الأخرى التي زارها الربيع العربي "كما أسموه" فوقفت جيوش البلاد مع الحكام ضد شعوبهم.

تسلم حينها المجلس العسكري زمام الأمور، فهلل الشعب مُرحبًا بهذا القرار الحكيم واحترم المثقفون رغبة مبارك في حقن دماء

المصريين، بالرغم من كل مآخذهم عليه وعلى نظام حكمه خاصة في ولايته الأخيرة، وعدم رغبتهم في تولي ابنه جمال مبارك مقاليد الحكم من بعده..

بدايةٌ جديدةٌ، ربما!

نقطةٌ كبيرةٌ بحجم الحجر أُلقيها على حافة البئر، لعلها تكتم فاه السطور، وتوقف سيل الحروف..

فمن أنا لأتنبأ بما تؤول إليه أحوال الكون؟

ومن أنا لأخرج عليهم بهذا الأمل؟

فأخبرهم أنه ولد بلا أب، وهل يشفعُ لي صمتُ مريم؟

كل الأخبار من حولي وحولهم تدفع للجنون، توشك أن تُلقيَ بنا من على هذه الحافةٍ إلى جوف بركانٍ مجنونٍ لا يرحم.. جاءكم الخلاص، بشارةٌ قرأتها، نبوءةٌ لا أدري متى تتحقق ولكنني أؤمن بوجودها.. ربما أموت قبل أن تخرج، ولكن تذكروني إذا كنتم مازلتم على ذات الدرب تسيرون.

حي على العـــــمل

من واقع الذكريات إلى خيال التمني أهدرتُ ليالي في العِتاب، وأغفلتُ السؤال عنّي..

عن قطعةٍ من الروح ذابتْ، وأركان القلب التي تهاوتْ..

ماعاد لها بُنيان تلاشتْ كلّ الأحزان، وبددتْ معها حنينَ القلبِ لثغرٍ بسّام.

لم يبقَ للروح شيئ، لا تخف لم تعد مأهولة أو صالحة بعدگ لإنسان..

انفضّت تدريجيًا جموع الثائرين من الميدان، وعاد كلٌّ لمكانه؛ فهناك الكثير من العمل يجب إنهاؤه، وسادت حالةٌ من الهدوء النسبي مع نزول قوات الجيش لتؤمن الشعب والشوارع بعدما سادت حالة كبيرة من الفوضى خاصة بعد فتح السجون وهروب الكثير من المساجين أثناء الثورة، وما صاحبه من حوادث سرقة وتعدي على المنشآت كما حدث في المتحف المصري.

وكان الشعب مُرحبًا بنزول الجيش وفخورًا بجيش وطنه الذي حماه، فكان الناس يلتقطون الصور مع الجنود والضباط وهم مبتسمون ولسان حالهم يقول: اطمئنوا نحن هنا لحمايتكم.

كانت هذه الثورة أشبه بثورات الشعب الحقيقة التي جتمع فيها أفراده وعبّروا عن رأيهم كما فعل أسلافهم حين التفوا حول أحمد عرابي وسعد زغلول..

إرادة الشعب مازالت موجودة، فمن يوقظ عزيمته ويشعل رغبته في التغيير؟

سادت روحٌ جميلة في الناس، نزل الشباب للميادين ولكن هذه المرة ليقوموا بطلاء الأرصفة وتنظيف الشوارع..

وعادت الحياة تدريجيًا، وبدأ الناس يستعدون لمرحلةٍ جديدة لم يألفونها، وهي مرحلة الإستعداد لاختيار رئيس جديد مُنتخب.

استأجرنا لشذى سكنًا قريبًا منّا كان عبارة عن غرفة في شقة جارة قديمة لوالدتي تعيش بمفردها بعد هجرة أبنائها للخارج بعدما ضاقت بهم السبل لإيجاد عملٍ مناسب..

كانت دائرة معارف شذى تفوقني بالرغم من وجودها في مصر منذ فترة قريبة، فهي جاءت لتدرس في كلية الفنون الجميلة بجانب بحثها عن والدها..

كانت هي وزملاؤها شعلة نشاط وحركة، قاموا بطلاء أرصفة المنطقة، وكانوا يعبّرون عن آرائهم بفن الرسم الجرافيتي على الجدران بالشوارع، وكثيرًا ما طاردهم النظام السابق في الفترة الأخيرة قبل تداعيه..

مجموعة شباب ثائر ولكنه عاقل، يقدّر تاريخ بلاده ولا يكل من محاولات إزاحة الغبار المتراكم عليه عبر عشرات السنين نتيجة صراعاتٍ متواصلة بين حملاتٍ باسم الدين وأخرى باسم الإشتراكية..

ندى، أسماء، عبير، ليلى، وليد، أيمن، سعيد، محمد، مجدي..

أسماء كثيرة بنفس الحماس تجتمع كل يوم، لا شيئ يوقفهم..

وفي أحد الأيام اقترحتُ عليهم اقتراحًا لاقى منهم الترحيب:

- **مخزن وورشة الحاج إحسان ظلوا مغلقين بعد وفاته منذ عدة سنوات وبناته لم تهتم حتى بفكرة تأجيرهما أو بيعهما؛ فما رأيكم لو أجّرنا المخزن والورشة وبدأنا فيهما مشروعًا لإحياء الفنون الجميلة وتعليم الصغار الرسم والموسيقى والفنون الأخرى؟**

هلل الجميع بالموافقة، وبدأنا بالفعل العمل..

ذات مساء نادتني أختي رقية:

- **أنس تعالى شاهد بسمة ابنة خالتنا تتحدث في إحدى القنوات الفضائية**

تسمرتُ أمام شاشة التلفاز أبحثُ في عينيها عن شعاع النور الذي أضاء عتمتي في ليالي الغربة، أبحثُ في صوتها عن رنين اسمي

حين كانت تناديني قبل الرحيل، أبحثُ في شعرها المنسدل كليلٍ طويلٍ بلا نهاية عن خصلةٍ كانت تداعب أهدابها فتزيحها بأناملها الرقيقة..

أين بسمة؟

كانت امرأةً أخرى، تهاجم الشباب ونزولهم للميدان، تدّعي تدريبهم في دولٍ مختلفة لإشاعة الفوضى وهدم البلاد..

معقول بسمة!

لا، ليست بسمة، إنها إحدى أشباهها الأربعين، خرجت للتو من كهفها اللعين لتبث سمومها في صدر الثورة..

وضاعت بسمة من روحي وفقدتُ صورتها المعلقة بالقلب إلى الأبد، تمامًا كما فقدتُ نسختي من كتاب خالي الذي جمع صورنا معًا.

وكأنها ظهرت في هذا اليوم لتمزق آخر خيطٍ كان يصل أرواحنا، وتمحو آخر طيف لها في حُلمي الحزين..

قلبٌ واحـــــــد

ماذا سيحدث لو كنا واحدا؟

قلبٌ واحد يحِن مرة ويئن مرة.. تتسابق الدقات فيه حين اللقاء ويعلو صوتها..

وتخبو عند الرحيل وكأنه انطفأ سراجها..

وماذا لو كنا عقلًا واحدًا؟

تتآلف أفكاره وبعد كل حوارٍ على طاولة الخلاف نلملم الأفكار..

لنعود معًا نجمعها في باقةٍ من الورد والصبار..

لن تسعى حروفنا أن تتشابه، لكنها لن تتصارع..

لن نصبو لأن نكون لونًا واحدًا..

فشعاع الضوء الذي نرجوه تآلف من ألوان الطيف..وإن بدا في عيوننا أبيض..

هل سألتَ نفسك يومًا ماذا يكون طعم الماء؟ أو لون النور في السماء؟

أو أجنحة الطير حين ترفرف بسرعة البرق في الفضاء؟

لا شيء يغيّر ظاهرك مادام داخلك كما هو..

كان التحدي صعبًا أكبر من أن يحتمله أحدنا بمفرده، لم تنفضّ ثورة الميدان وبقي البعض ممن كانوا يعيشون في أحلامهم المخملية يحلمون بحل كل مشكلاتهم عبر أنفاقٍ تحفرها لهم حكومةٌ أو طرقٍ تعبّدها أيادي المسؤولين..

شباب مجهولي الهوية الفكرية، مهشمي الآمال..

تسللنا بينهم أنا ومجموعة الشباب ندعوهم للعمل معنا، فنحن نحتاج لكل يد..

- كنتُ يومًا مثلكم

هكذا بدأتُ حديثي مع كومةٍ منهم ثم أكملت:

- لم تكن لدي أحلام، كنتُ أسير وِفق ما توجهني الريح، حتى أنني دخلت كلية الطب فقط رغبةً في تحقيق حلم والدي.. اختاروا طريقكم واحفروه في جبال الصخر..

- أنتَ تعيش في الوهم، في الخيال.

كان رد أحدهم..

فبادرته بالسؤال:

- ماذا تعرف عني كي تصدر أحكامك؟

فردّ بحنق:

لو كنتَ أنهيت دراستك الجامعية ولم تجد وظيفة حينها كنتَ ستفعل مثلنا.-

فزاد رده غضبي وسألته:

- أي وظيفة تقصد؟ وظيفة على مكتب بلا عمل حقيقي، وراتب ثابت نهاية كل شهر، روتين تعيشه أبد الدهر، لا تجديد ولا تغيير، تنتظر يومًا تصبح فيه كهلًا متقاعدًا!

أخذتُ بعدها نفسًا طويلًا بطول حلمي الذي مازلتُ بانتظار تحقيقه، ثم سألته:

أين حلمك؟ أين عنفوان الشباب؟

لماذا تريد قهره وكبته؟

ثم وجّهتُ لهم جميعًا كلامي:

- احلموا، وسارعوا بتحقيق الأحلام، لا شيئ يأتي وحده، والعمرُ من بين أيدينا يهرب

لم نيأس من زياراتنا للميدان، وكم كانت فرحتنا حين نكسب بعض الأيدي تتكاتف معنا وتكسر هذا القيد..

حلم الوظيفة والقوالب المكررة..

في هذه الأثناء كان الشيخ حمد على اتصال بي ليطمئن، ووعدني بزيارة مصر بعد هذا الحدث الجلل واستقرار الأحوال لرؤية هذه الصحوة المدهشة للشعب.

وبالفعل قَدِم الشيخ حمد ولم أتمكن من مقابلته في المطار، كنتُ في امتحان نهاية العام، ولكن زرته في الفندق الذي نزل فيه..

وحين جاء إلى البهو كان بصحبته صقر..

بعد سلامنا سألته:

- كيف حال أبو ثامر؟

وكنت أقصد ناصر، فأخبرني أنه توفي إثر حادثٍ كبير وهو في طريقه إلى المزرعة.

مرت صورته ومواقفه النزيهة في ذاكرتي سريعًا، تذكرتُ أول لقاء بيننا في أول أيامي بالمزرعة حين اصطحب عامل المزرعة إلى المستشفى وعالجه على نفقته، وتذكرت كل مواقفه الطيبة مع العمال حين كان ينهرهم صقر ويوبخهم، وخوفه على الشيخ حمد وطاعته له.

ولم يستطع لساني أن ينطق بشيء سوى:

- **إنا لله وإنا إليه راجعون.**

الله يرحمه كان من أطيب القلوب التي قابلتها.

كانت نظرات صقر تمتلئ بالحِنق والضجر كالعادة، وبدأ وصلة النقد المعتادة في كل لقاء التي مازال ينتهجها حتى الآن:

- **يا عمي لا أدري لماذا جئت بنا هنا، أما كان الأفضل أن نسافر إلى لندن؟ حيث الهواء النقي بلا دخان، والخضرة والجمال دون إزعاج..**

فقال له الشيخ حمد:

- **وهل سنجد هناك أناسًا طيبين مثل المصريين، بخفة دمهم وطيبة قلبهم ؟**

ولم يكد يكمل جملته حتى بادره صقر بالكلام:

- **أي طيبة وكل واحد تقابله يطمع فيك، يراك فقط كنزًا متنقلًا**

حتى السائق يستغل جهلك بأسعار العملات ويسرقك، وبعضهم يريد حسابه بالدولار..

ثم يقول لك جملته الشهيرة: نورت مصر.

أنهى الشيخ حمد حديثًا لم تكن نهايته محمودةٌ لو اكتمل باقتراحه أن يزور مشروعنا الجديد، وبالفعل اصطحبتهم للمشروع وكان انبهاره واضحًا، بينما ابتلع صقر لسانه وعيناه تدور هنا وهناك تبحث عن أي ناقصة أو خلل لتذكره..

بعد يومين أنهيتُ امتحاناتي وقابلت الشيخ حمد قبل سفره وكان حزينًا مما حدث لهم، فقد قام أحد المستنفعين بمنطقة الأهرامات بسرقتهم، هؤلاء أبطال موقعة الجمل الذين مازالوا يفرضون سطوتهم على منطقة الأهرامات..

وكان ذلك مبعث زهوٍ لصقر، لإثبات نظريته عن مصر..

- **لا بأس يا صقر، هذه مجرد حادثة كانت لتقع في أي بلد آخر**

هكذا كان رد الشيخ حمد.

- **لا يا عمي هذا الواقع، وليس مجرد حادث، المصريون لا يستطيعون إدراة شيء، لو كانوا تركوا إدارتها للفرنسيين أو الإنجليز كانوا أداروها بدقةٍ ومهارة..**

كان رد صقر الجاهز المغلف بورق السيلوفان والمحضر سلفًا لمثل هذا الحدث..

مسكين صقر مازال عقله ضيقًا لا يرى أبعد من خطواته التي يخطوها؛ فهو لم يقرأ تاريخ المصريين على مرّ العصور، وكيف

كانوا محور الدنيا وأصل حضارتها منذ عصر الفراعنة، وتاريخهم العتيق الذي مازال طلاسم لم يستطع حلّها الفرنسيون والإنجليز أصحاب الحضارة الحديثة التي سرقوها من علماء العرب ونسبوها لأنفسهم.

لم يقرأ ما فعله المصريون بنابليون بونابرت وحملته التي لم تستطع الصمود أمام قوة المصريين سوى ثلاث سنوات تكبدوا فيها أشد الخسائر وعادوا لبلادهم مهزومين.

لم يعرف كيف استطاع المصريون تحرير مصر من الإحتلال البريطاني، ومواجهة العدوان الثلاثي المكون من قوات بريطانيا وفرنسا واسرائيل مجتمعة بعدما طرد الرئيس جمال عبد الناصر الفرنسيين وأمم قناة السويس فأصبحت إدارتها مصرية..

عذر صقر ليس جهله ولكن عقله المريض الذي يرى كل شيء سواه في مرتبة أقل.

أعانك الله يا شيخ حمد على تحمله.

تذكرتُ حينها ناصر وكيف كان حديثه هادئًا مُتزنًا وكم من المرات كدتُ فيها أن أخرج عن صمتي وأرد على أحاديث صقر المزعجة لولا وجود ناصر ومحاولته تهدئة الموقف كما حدث بعد مرافقتي للشيخ حمد في رحلة باريس.

سافر الشيخ حمد برفقة صقر بسلامٍ، ولم أرَ في أعينهم بادرة أمل تُنبئ بالعودة مرة أخرى..

السقوط لا يعني الفشل، فبعضُ السقوط مطلوب لتعرف بعده طريقك الصحيح وتسلكه..

اللامعقول يصبح واقعًا

وماذا أخفت لنا الأيام؟

وماذا كانت أحاديث الروح للنفس؟

تسألها عن روضة الأمنيات وماذا منها قطفت، وكم بقي لها من فُرص؟

تعالَ معي لنبدأ العد..

هل يومًا فكرت؟!

لماذا هنا وُلدتُ؟

ولماذا هنا نشأت؟

ومن كانا والديك؟

هل يومًا اخترت؟

هل اخترتَ يومًا لونك؟ عرقك؟ أو موطنك؟

فلماذا إذن تُحاسبونني؟ وتُصنفونني وكأنني أنا اخترت؟

وهل أنتم على خلاف عادة البشر؟

اخترتم أين نشأتم ومع مَن؟

الدهشة التي تخطفني من بين أسراب البشر وتُلقي بي على أبعد شاطئ لها..

لماذا نُحاسب بعضنا، لماذا نُصنّف هذا أبيض وهذا أسود وذاك بلا لون؟

فهل ضاقت بكم الألوان فحصرتم الكرامة في لون؟

وأخذتكم العِزة بجهل..

عفوًا لستُ لهنا أنتمي، وهذا العالم لا يعنيني في شيئ..

استطعتُ شراء شقةٍ على بعد عدة شوارع من مسكننا وقمتُ أنا وزملاء شذى بتجهيزها ثم دعوتُ والدتي للخروج معًا في نُزهة.

- الوقت ليس مناسبًا الآن، أنت جئتَ للتو من عملك، كُل شيئًا وارتاح يا بني

هكذا قالت والدتي وهي تهم للخروج معي.

فأخذتها وخرجنا معًا حتى وصلنا للشقة وقلتُ لها:

- عندي لكِ مفاجأة

وما إن فتحنا باب الشقة حتى وجدنا الجميع في انتظارنا؛ أخواتي رقية ومنى وشذى وأصدقاءنا وزملاء شذى الجميع في انتظار الملكة..

نعم يا أمي أنتِ ملكتي، وأجمل ما في حياتي.

ثم أخذت بيدها وتجولنا في الشقة، حيث اندهشت من الألوان والرسومات التي تكسو الجدران بالشخصيات الكرتونية المُحببة للأطفال، والأرض المكسوة ببساط خاص حتى لا يتأذى الأطفال أثناء لعبهم.

وهذه الألعاب المخصصة حسب كل عمر في غرفة خاصة؛ فهناك غرفة الأطفال الصغار التي تحتوى على بعض الألعاب الخشبية التي تناسب أعمارهم، وبعض الطاولات وحولها كراسي صغيرة ليجلسوا ويتعلموا الرسم والتلوين.

ثم الغرفة التالية للأطفال الأكبر سنًّا وبها مكتبة صغيرة على رفوفها توجد بعض القصص التي تصاحبها الصور الملونة التي تتناسب مع بداية تعليم الأطفال، وبعض الكتب التعليمية التي تعلم الأطفال مبادئ القراءة والحروف الملونة.

- وهذه غرفتك يا أمي ومكتبك يتوسطها.

هكذا أشرت إليها وأنا افتح الغرفة الثالثة.

وأكملتُ حديثي لها:

- لقد جهزنا الشقة لتكون روضةً للأطفال تستقبلهم من سن الثالثة حيث يكون الطفل في أقوى وأهم مرحلة استيعاب في حياته لغرس القيم والأخلاق الحميدة بداخله فتعلميهم أساليب الحياة الراقية، فما أحوجنا لجيلٍ واعٍ مهذب في الفترة القادمة!

أدمعت عينا أمي دموع الفرح بعدما لازمتهما دموع الحزن والأسى لسنوات.

وبعدها بدأت أولى خطواتها في مشروعها الجديد.

مرت بعدها فترة واليوم موعد نتيجة امتحان شذى، نزلنا في الصباح إلى كليتها لنطمئن، كنا نبحثُ عن اسمها في كشوف الناجحين المعلقة على لوحة الإشعارات..

كنتُ أبحثُ بين الأسماء ولا أعرف مِن اسمها سوى عبيره الذي تطلقه في الفضاء كلما غدت وولّت..

فسألتها:

- ما اسمك بالكامل يا شذى؟

- شذى راضي عبدالرحمن

كان لوقع الاسم بداخلي رنينٌ لا يُنسى، ولكنني قلتُ ربما تشابه أسماء، وبدأتُ أبحث عن اسمها بين الأسماء فوجدته.. شذى راضي عبدالرحمن الشرقاوي!

- يا إلهي!!

شذى ألم تخبريني أن والدكِ من الشرقية؟

سألتها فأجابت بهدوء:

- نعم

- كيف ذلك ؟

فردت بنفس الهدوء:

- حين ذهبنا للعنوان الذي كان بحوزة والدتي وجدنا بناية كبيرة، وسألنا حارسها عن أصحاب الڤيلا القديمة فقال لا يعرف، أعطيناه اسم والدي فقال يبدو من الاسم أنه من الشرقية..

كان بحث شذى قد توقف وتوقفت معه أنفاس الأمل منذ مقتل والدتها، فكيف ستبحث عنه بين هؤلاء الملايين وهي لا تعرف شكله، مجرد صورة قديمة باهتة كانت تحتفظ بها منذ أن كان هناك معهم لا تظهر فيها ملامحه..

- هل معكِ صورةً لوالدك ؟

ففتحت حافظتها وأخرجتها؛ صورةٌ مهترئةُ الجوانب باهتة باللونين الأسود والأبيض وإن كان الرمادي قد شكّل سحابة إلتهمت ملامحهم..

خطفتها وانطلقنا إلى والدتي.

- أمي انظري من معي ؟

صيحاتي كانت تسبقني على باب شقتنا، وهرعتُ رادفًا انظري يا أمي وأطلعتها على الصورة..

غابت أمي عن الوعي لثوانٍ فيما كانت تبدو بيننا مستيقظة ولكنها طارت لعالمٍ آخر، بين إخوتها تلهو صغيرةً وتستمتع..

سالت أنهار الدموع لتروي أخاديد حفرها الزمن والشجن يدًا بيد، وانتبهتْ لوجود شذى المذهولة فحضنتها وإلتأمت جراحهما معًا، ثم ساد الصمت للحظات، وكأن الدهشة التهمت الألسنة.

وعلى الرغم من كوني مازلتُ لا أصدق ما حدث، لكنني ابتسمتُ وصحت فيهما:

- وماذا بعد،هل ستبقيان على هذا الحال كثيرًا؟؟

هكذا أردتُ كسر السكوت، ولكن منذ متى كنتُ أمتلك خفة الدم لألفت أنظارهم؟

أحيانًا تكون مفاجآت القدر أغرب من كل توقعات البشر..

نجحت شذى، وانتقلت للسنة الأخيرة من كليّة الفنون الجميلة، ونجحتُ أنا وانتقلتُ للسنة الثانية من كليّة الحقوق، وكل يومٍ يزداد يقيني بأنها المهنةُ التي خُلقتُ لأجلها..

كانت شذى تعمل في إحدى شركات السياحة بجانب دراستها لتعول نفسها وكانت تلمس الكثير من المشاكل التي تحدّث عنها صقر أكثر مني، فأنا أعترفُ أنني جاهلٌ بالأماكن السياحية في بلدي حالي حال الكثير من المصريين المنشغلين بسد حاجاتهم اليومية والبقاء في هذه الدائرة منذ الصباح وحتى المساء دون إجازةٍ أو راحة..

بدأتُ أفهم من شذى الكثير من المعوقات التي تعرقل نجاح السياحة في مصر، وسيطرة فئة جاهلة على معلمٍ كبيرٍ بحجم الأهرامات..

دعتني شذى إلى جولة سياحية في منطقة الأهرامات التي لم أزرها منذ سنواتٍ طويلة، ربما كانت آخر مرة زرتها حين ذهبنا أنا ورقية وبسمة والتقيت يومها بالعرافة.

كانت بداية يومٍ طيب لولا بعض المضايقات التي تعرضنا لها، من إلحاح أصحاب الخيول على تأجيرها وركوبها في منطقة الأهرامات، وسيطرتهم وبسط نفوذهم هناك، وما يساعد على ذلك طول المسافة التي نمشيها على الأقدام، فيصيبنا التعب والإرهاق خاصةً في مكان فسيح تبتعد فيه الآثار عن بعضها، فهذه المنطقة تحوي معابد وآثار

خلافًا عما يظنه البعض أنها تحوي الأهرامات الثلاثة وتمثال أبوالهول فقط.

في بداية اليوم كان النشاط مازال يصاحبنا حتى أنهكنا السير تحت الشمس المشرقة، فقررنا النزول إلى المنطقة التجارية حول الأهرامات لنرتاح قليلًا، ونتناول غداءنا ثم نكمل جولتنا بعد انكسار حدة شعاع الشمس..

وأثناء تجولنا هناك رأيته قادمًا من بين المعلقات المنثورة أمام "البازارات" كما يطلقون عليها وهي المحلات التي تبيع المشغولات اليدوية والهدايا التذكارية للسياح..

نعم إنه هو: عبده الضبع.

فار الدم في شراييني وفكرتُ أن ألكمه بدلًا من أن أصافحه بعدما مدّ يده لي وقال:

كيف حالك يا دكتور أنس؟

ولكنني تمالكتُ أعصابي، وصافحته قائلًا:

- لستُ طبيبًا يا عبده..

لم تبدُ عليه الدهشة، وعرض علينا الدخول في مقهى كبير على أول الشارع، وكان هذا المقهى ملكه كما ذكر لاحقًا..

لم أسمع أيًّا من سيول كلماته التي لم تتوقف حتى استوقفته قائلًا:

- لماذا يا عبده؟

لماذا شاركت في هذه الجريمة؟ كيف تقتل أبناء وطنك، الذين يدافعون عنك وعني وعن كل المصريين؟

فردّ بدون تفكير وكأن الرد جاهز ومغلف في عقله:

- لا أحد يعرفني، ولا أحد يدافع عني، هم يدافعون عن مصالحهم، وأنا أبحث عن مصلحتي.

واستطرد في حديثه قائلًا:

- أين كانوا وأنا أعيش مشردًا في الشوارع بلا مأوى؟

أين كانوا وأنا في ليالي البرد بلا غطاء، بلا طعام بلا مسكن، سكني هو رصيف الشارع أو منزل مهجور، والأرض مهدي والسماء غطائي..

هل تذكرني أحد؟

فقاطعته:

- هذه ليست ذريعةً لتفعل ما فعلته، لقد سامحتك على وشايتك بنا عند الريس سامي قديمًا، وعفوتُ عنك بعدما أنقذتني حين حدث هجوم رجال الأمن والشركة، ولكن ما لا أستطيع أن أغفره لك ما حدث في الميدان..

فغضب عبده وثارقائلًا:

- **ومن أنت لتحاسبني؟**

وماذا فعلت في حياتك، ولدت في أسرة تهتم بأمورك، أب وأم وإخوة، ماذا تعرف عن العناء؟

ربما لو كنتُ وجدت عائلة تحنو عليّ ما فعلت ذلك، ولكن لا أحد يستحق..

أنا عائلتي المال، ويدي هي التي تحميني وأقتنص بها ما أريد، ولن أنتظر أحدًا يمنحني حقي في الحياة.. أنا هنا سيد المكان، كل هذه المنطقة في قبضتي وكل من فيها يطيعونني ولا أحد يجرؤ على عصياني.

ألجمني الصمت للحظات، لا أدري بماذا أجيبه، لقد كنتُ أظن أن مأساتي أعظم ما يمكن أن يحدث لفرد، ولكن هل معنى ذلك أن ما حدث له عذر يمنحه الحق في إيذاء الناس؟

كانت شذى تجلس وتتابع حديثنا دون أن تتفوه بحرف، فقد هالها رؤية عبده وذكرها بيوم الحادثة في ميدان التحرير، حين كاد يقتلها بجمله يوم معركة الجمل.

أخذت شذى وتركت عبده جالسًا في مقهاه بين براثن غطرسته التي ستفتك به يومًا، ولن تتركه يستمتع بهذه السطوة كثيرًا، فالجاهل مهما تعاظم وكبر ففي النهاية يقتله جهله وتعاظمه.

بعد فترة من الصمت نطقت شذى قائلة:

- يا أنس.. هذه الفئة يشكلون خطرًا حقيقيًا على البلد فهم عبدة للمال، يمكنهم فعل أي شيء مقابل المال دون ولاء لأحد سوى مصالحهم.

فلم أجد ما أقوله لها سوى أنه لابد أن يكون هناك حلًّا.

لكل مشكلة حـــــل

وكيف تكون ألوان الحياة لولا الأمل؟

لونٌ باهتٌ بلون الملل، ولونٌ شاحبٌ أنـهكته العلل..

وصافراتُ الخريف تُزيح الربيع عن قلبك، وتعصف رياحها برسائل الودِّ، فتُبقي النفوس في كلل..

ويأتي بياض الأمل بثوب النقاء لينتشر، وبقارب الإيمان ينقل الروح لشطآن الأمان..

دائمًا ما تكون الحلول بسيطة وغير بعيدة ولكن فلسفتنا تجعلها مستحيلة، وتُزيدها تعقيدا..

كانت حواراتنا مع الشباب مازالت مستمرة، ومازال الصراع بيننا قائمًا، نحاول فيه الثورة على جمود الأفكار وتبلد الطموح وتراجع الشخصية..

لفترة غير قصيرة كانت هناك فئة غير قليلة يتصورون عودة الأموال المهربة خارج البلاد قبل الثورة ومن ثمّ توزيعها على أفراد الشعب!

يا إلهي! من زرع في عقولكم هذه الفكرة؟-

كان هذا ردي على عم سيد العامل بالمقهى الذي نلتقي فيه، فقد كان يتابع جلساتنا مع الشباب وربما كثيرًا بتلقائيته تدخل:

إن شاء الله يرجعوا الفلوس اللي اتهربت ويوزعوها علينا، أهو كل واحد ياخد مبلغ يعينه على اللي فيه.-

أصابتني الدهشة من كلامه، فسألته:

- معقول يا عم سيد! من الذي أخبركم بذلك؟

فرد بكل ثقة:

- هم يقولون هذا الكلام يا أستاذ أنس

آه.. تعبتُ كثيرًا من هذا الضمير الذي يضاف لأي أقاويل مجهولة المصدر، ثم تتبعه أفكار عجيبة ليس لها بالواقع أي صلة..

طلبت من شذى مساعدتي على لقاء مسؤول بالشركة التي تعمل بها، وبالفعل قابلته مستر نبيل، كان شخصًا مرنًا يستجيب للحوارات والنقاش وليس من نوعية المديرين المتقولبين متجمدي الأفكار..

طرحتُ عليه عدة أفكار، وكان سعيدًا بهذا اللقاء بحجم سعادتي وأكثر، فكم عانى منذ الثورة وما قبلها من حالة الركود السياحي وقلة الأفواج بسبب الحوادث الإرهابية من جهة وسيطرة فئة من

المستغلين لمنطقة الأهرامات وما حولها على عروض الخدمات هناك.

فكان ردّي مصدقًا على كلامه، ومُقدمًا عرضًا:

- سوف أعرض عليك عرضًا هو في الحقيقة خطة عمل متكاملة تجمع كل الخيوط لتنسج برنامجًا شاملًا لكل الجوانب منذ وصول السائح للمطار وحتى سفره لبلاده.

انتهى لقاؤنا، وتكررت اللقاءات بعده حتى وصلنا لخارطة طريقٍ تمكننا من إحداث الطفرة المنشودة..

سوف أقدم فيها من جانبي مجموعة سيارات حديثة مع سائقين شباب يتميزون بحسن المظهر واللباقة والثقافة العامة وحُسن المعاملة..

وما أكثر خريجي الجامعات الذين ينتظرون أي فرصة للعمل الشريف!

وأما شذى وزملاؤها فدورهم إعداد برنامج سياحي متميز يزور فيه السائح المناطق السياحية المعروفة، بالإضافة إلى إلقاء الضوء على بعض المناطق التي لم تنل حظها من الشهرة كالسُبل والقصور الموجودة في شوارع القاهرة القديمة..

وهناك فريق من الشباب سوف يذهب إلى هذه المناطق قبل بداية إرسال الأفواج السياحية إليها ليتفقدوا المكان، ويقوموا بحملات

نظافة وترتيب للأماكن وإزالة آثار الإهمال التي زحفت حول الجدران وربما إمتدت أذرع الإهمال لتصل بداخلها..

وكانت هذه الخطوة بالتنسيق مع وزارة الآثار..

وكانت أهم المراحل التواصل مع رجال الأمن لتحجيم زحف العشوائيات على منطقة الأهرامات، وإيقاف عبده الضبع وغيره الكثيرمن الذين سيطروا على المنطقة وشل قبضتهم التي فرضوها هناك أثناء قيام الثورة.

لم يكن الحُلم سهلًا، ولكن بإرادتنا وإصرارنا أصبح ممكنًا.

وقفت شذى بجانبي خطوةً بخطوة، لم تكل عزيمتها ولا إيمانها بأحلامي.. كانت عيناها تنثران من الود بساطًا، وترسمان أحلامًا أنا فارسها، ولكنني كنتُ دائمًا أتهرب من الخوض في بحارها، ولا أجرؤ على الغوص في عينيها ربما هاجسٌ كان يجول بداخلي وكنتُ أنكره دون أن أعرف له سببًا..

اتصلتُ بالشيخ حمد ودعوته للحضور لزيارة معرضنا مرةً أخرى بعدما توسعنا، وأصبح مدرسةً للفنون يلتحق بها الصغار والكبار وكل من أراد أن يتذوق طعم الحياة بنكهةٍ أخرى..

لبىٰ الشيخ حمد دعوتي بعد إلحاحٍ لعدة سنوات، وجاء بصحبة صقر الذي لم يعد له سواه..

تمنيتُ لو سألته عن أحوال لُجين ولكنني لم أجرؤ أن أفتح بابًا قد أُغلق منذ زمن.

كانت عيون الشيخ حمد تحاول جاهدةً فرض بعض الهيبة على فرحتها، ولكنه لم يخفِ سعادته بما وصلنا إليه، فقلت له:

اترك لي نفسك هذه المرة وأعدك لن تندم.-

حينها رد مُرحبًا:

- أنا معك حتى آخر الخط

وأما صقر، كعادته حين يخفق في إيجاد العلل يبتلع حروفه وكأنه لم ينطق بها أبدًا..

ولكنه سأل عما يهمه:

- في أي الملاهي سنقضي الليلة ؟

فكان ردي عليه مفاجئًا له وللشيخ حمد:

- من قال أن ليل القاهرة يُقضى فقط في الملاهي الليلية ؟

فرد الشيخ حمد:

- وهل هناك وسيلةٌ أخرى للترفيه ليلًا غيرها ؟

فقلت لهم: سوف ترون بأنفسكم..

وفي اليوم التالي مررتُ عليهم بإحدى سيارات الشركة وأخذتهم إلى قلعة صلاح الدين الأيوبي القابعة فوق جبل المقطم بشموخٍ وعظمة، وهي التي تعتبر من أفخم القلاع الحربية التي شُيدت فيَ العصور الوسطى، ثم شهدت حكم المماليك ومذبحة القلعة الشهيرة وبعدها أعاد محمد علي لها مجدها وشيد القصور والمساجد في محيطها فأصبحت دُرّة ثمينة، فزرنا قصر الجوهرة وشاهدنا مقتنياته الثمينة هذا القصر الذي جهزه محمد علي باشا لزوجته ثم تحول بعد ذلك إلى متحفٍ للتراث الإسلامي.

كما انتقلنا إلى جامع محمد علي باشا المبني على الطراز العثماني الذي يمتاز بفخامته وأناقة تصميمه.

وفي الليل شاهدنا عرض الصوت والضوء وبعض الإستعراضات حيث صادف وجودهم فترة عرض مهرجان القلعة، وقضينا هناك ليلةً ممتعة..

وكان من ضمن البرنامج السياحي زيارة ساقية الصاوي حيث تقام هناك أمسيات ثقافية راقية ومطربين يتغنون بالأغاني القديمة التي مازالت تطربنا حتى الآن بالإضافة لأغنيات حديثة كلماتها راقية..

بالإضافة إلى حفلٍ مخصص للموسيقى في وجود أوركسترا عالمي بدار الأوبرا.

يُقال أن الفرحة كانت في قديم الأزل مولودٌ على شكل زهرة، خلف أسوار القصور العالية محفوظة، تحميها أسيجةٌ عالية بعيدًا عن العيون.. وحدها قلوب العاشقين يمكنها أن تصل أطراف الروح منها تقتبس ومضةً تخفيها بين ثناياها وتعود، وتبقىٰ في العيون دمعةٌ تبقّت من عناء الرحلة، ندعوها دمعة الفرح..

العودة لـــجذورك

ثقبٌ صغيرٌ في جدار الوقت كافٍ لِتسلُّل شعاع الذكريات..

يخطفكَ لِزمانٍ مضى، تُحلّق فيه كَعصفور ..

مازالت هنا آثار أقدامهم، اكتنزتها ذرات التراب محفورةٌ على الدروب..

مازال صدى صوتهم عالقًا خلف الأغصان، أُفتّش عن براعم نمت هنا غرستها يومًا أناملهم وبعض الأغصان التئمت جراحها حين ضمّدتها أيديهم..

جرحٌ أخيرٌ ينتظر، تركوه ورحلوا دونهم سيبقى مفتوحًا لا يندمل..

استطعتُ خلال سنواتٍ قليلة أن أفتح مكتبًا للمحاماة.. كانت مشاعري تتأكد كل يوم أنني أنتمي لذلك وأنني في المكان الصحيح..

فمازال جور الناس على بعضهم منتشرًا، ومازالت أحلام بعضهم لا تتسع لغيرهم.. ما أحوجنا في بعض الأحيان ليدٍ تمتد لترحمنا وترأف بحالنا، تعيننا على الوصول لبر الأمان..

بالموازاة مع مجموعة السيارات التي جهزتها وكانت تستأجرها شركة السياحة التي يديرها السيد نبيل، ولسببٍ ما ترك الشركة ورحل، وشغل منصبه السيد شاكر..

هذا الذي لم يكن شاكرًا أبدًا، ولم يكن له من اسمه أي نصيب..

أراد تحديد نسبة خاصة له حتى يؤجر سياراتي، وإلا استعان بسيارات أخرى..

وتحت ضغطه لم أكن لأقبل بذلك مهما كانت العواقب..

في اجتماعي مع الشباب زملاء شذى ومن انضموا إلينا بعدها طرحتُ فكرتي:

- ما رأيكم في إنشاء شركة سياحة خاصة بنا؟ سوف أدفع نصف رأس المال، والنصف الآخر سوف يكون أسهمًا باسمكم بمقدار مشاركة كل واحد سنحدد نسبته..

لم يعترض أحد على الفكرة.. وأبدوا استحسانهم..

وبدأنا التنفيذ..

كانت فكرة مشاركتهم في رأس المال فكرة جيدة؛ فحين تعمل كشريك تولد لديك الرغبة والشغف لبذل كل ما تملك من مجهود واختراع طرق جديدة للعمل لترى ثمار جهدك تنمو وتزدهر..

وأما أن تنتظر راتبك نهاية الشهر ففكرةٌ بائسة تحرمك الكثير من المتعة في البذل والعطاء..

بالفعل ازدهرت شركة أنس وأصدقائه وقد أسموها "شركة الأصدقاء"

ذات يوم فاجأته شذى بسؤال استوقفه وكأنه اكتشف للتو أنه على شفا جرف..

- **أنس ألم تقل لي أن والدك من أسوان؟**

فردّ عليها متلعثمًا من أثر المفاجأة:

- **نعم..لا.. لا أدري!!**

ردت شذى وعلامات الدهشة كست وجهها المشرق فبدا وكأن غيمةً ألقت بظلالها الثقيلة عليه فأخفت ملامحه:

- **ماذا؟؟ كيف لا تدري؟**

فكان رد أنس وكأنه للتو غرق في بئر الذكريات يتهاوى جسده دون شيءٍ يوقفه حتى أنه تمنى لو وصل لقاع البئر فاصطدم به وأراحه من هذه الحالة من الطفو في العدم..

يجلس الأب حامد على طاولته المفضلة في نفس الركن على مقهى الصحافة يحكي لابنه في كل ليلة عن بعض حكاياتهم في الوادي البعيد فيقول لولده:

- يا بني كم أُشفقُ عليكم وعلى زمانكم هذا!

فيرد الابن الصغير ببراءة:

- لماذا يا والدي؟

ويبدأ الأب في سرد الحكايات عن الجنة التي عاش فيها طفولته وصباه:

- على ضفاف النيل الخالد كانت قريتنا، تراها من بعيد حيث يأسرك منظر أشجار النخيل.. كانت هذه هي ثروتنا الرئيسية بالإضافة لبعض المحاصيل الأخرى..

كان كل مولود في العائلة يزرع له والده عشر نخلات عند ميلاده حتى تكبر معه فإذا صار شابًا أعانته على الزواج..

فضحك إبنه أنس وقال:

- أين نخلاتي العشر يا والدي؟

- إن شاء الله نعود وأغرسها لك يا بني.

- أنس أين ذهبت؟

صاحت شذى فأنقذتني من هذا السقوط وليتها أمهلتني قليلًا بصحبة أبي؟

- ألم تفكر أبدًا أن تزور عائلتك هناك؟

لقد جئتُ لبلدٍ لا أعرف فيه أحدًا لأبحث عن والدي، وأنت هنا في بلدك ومن السهل أن تجدهم..

استغرق الأمر ثوان حتى استرد أنس تركيزه وأعاد شحن أفكاره واستدعى بعض الذكريات القديمة من أحاديث والده عن عائلته..

ثم أجابها:

- أمهليني فترة يا شذى حتى أتدبر الأمر.

- هل هناك مشكلة؟ ثأر مثلًا كما أرى في مسلسلاتكم؟

فرد أنس مبتسمًا:

- أبدًا.. خيالك ذهب بعيدًا..

توقفي عن مشاهدة المسلسلات يا شذى وركزي في عملك.. العمل يحتاج كل تركيزنا..

ولكن حماس شذى لم يقل بل زاد فأكملت حديثها وكأنه لم يقاطعها:

- والعمل يحتاج أن نفتتح فرعًا جديدًا في الأقصر وأسوان وأظن أنه لا يوجد أقرب من أولاد عمك يمكن أن يساعدونك هناك..

فاستسلم أنس لحماسها قائلًا:

- **أها.. أي أن الموضوع ليس بحثًا عن الأهل والجذور!**

يبدو أنك تهتمين بأمر العمل أكثر مما أظن..

ضحكا معًا وانتهى إلى هنا حوارهما..

وكأنك لا تدري كم من الليالي أمضيت؟

في الغربة وحدي أشتاق لظلال طيفك..

هل تبدو أحلامي صغيرةً في عينيك؟

أطيافك المُتبقية لدي.. تستأثر بأيامي، بأحلامي..

بكل لحظةٍ تمتد في الزمان خطواتي..

وعبثًا أحاول الخلاص من ذكرياتي..

نعم اشتقت.. فأين أنت في حكاياتي؟

في المتـــــــــاهة

ليتها كانت بإرادتنا.. طرقاتنا التي سلكناها..

ليتنا ما محينا من ذاكرتنا دروبًا ارتدناها..

ليت الأماني كلها زالت وانتحرت..

خلف قضبان الحنين الروحُ انزوت..

على الدروب خطواتنا مسافرة لا اختارت المكان ولا الزمن..

فهل توقفنا لحظةً وسألنا أنفسنا سؤالًا واحدًا:

هل فعلًا نحن من يختار؟

وهل مازلنا نملك القرار؟

وماذا لو عاد بنا الزمن؟

أنغير شيئًا من ذاك الاختيار؟

مرت أيام انشغلتُ فيها كثيرًا بهموم الناس من حولي ومشاكلهم، ومشاكل العمل..

مازال الروتين سيد الموقف يحاصرك في كل مكان..

وكأننا عدنا لنقطة الصفر من جديد، ربما نحتاج لثورةٍ أخرى ولكن هذه المرة لنخلع فيها كل الفاسدين من الشعب..

ربما تكون الثورات على الأنظمة هي أسهل الحلول ولكن تنظيف الجروح من قيحها المُستشري لا يقل أهميةً عن إزالة السبب.

لم تطل فترة هروبي من هذا الهاجس الذي تسلل إلى نفسي بعد حديث شذى، فذهبتُ لأمي وطرحتُ عليها الفكرة..

كانت في غرفتها للتو انتهت من صلاة العشاء ومازالت على كرسيها تجلس بعدما حرمتها آلام الظهر من لذة السجود والقرب من الله..

فقلتُ لها:

- حرمًا يا أمي.
- جمعًا يا حبيبي.. ربنا يكتبها لنا يارب معًا.
- إن شاء الله يا أمي قريبًا بإذن الله نذهب لأداء العمرة معًا ونقوم بعمرة لوالدي رحمه الله.

اشتقتُ لوالدي كثيرًا يا أمي..

فردت وقد اختفت عينيها خلف غشاءٍ رقيق من الدموع التي حاولت منعها دون جدوى فانسابت شلالًا ينهمر:

- رحمه الله، طيفه لا يفارقني.. هو معي كظلي أناجيه وأسمعه.

كنت أخشى في بعض الليالي أن تظن أخواتك أنني جُننت حين أحدثه.

فصارحتها برغبتي في الذهاب لزيارة أعمامي ورؤية قريتنا..

- أين تذهب يا بني؟

سالتني باستغراب، ثم أكملت:

- لقد أخرجوهم من بلادهم مجبرين وتركوا كل شيئ خلفهم، حتى لم تعد توجد قرى هناك.. لقد غرقت أراضيهم بسبب بناء السد العالي، حتى والدك لم يكن يعرف بالضبط أين ذهبوا.

- كيف ذلك؟ كان والدي يخبرني دائمًا عن قريته وعن طفولته هناك.

فردت مُتذكرة:

- نعم والدك قضى طفولته في قريته بالنوبة بجوار النيل وعند دخوله الجامعة جاء إلى القاهرة للدراسة وكانت رحلة شاقة السفر من هناك لهنا، ولم يكن هناك هواتف للاتصال بهم، كانت فقط وسيلة اتصاله بهم عن طريق بعض أبناء قريته الذين يعملون بالقاهرة كحراس للعمارات فإذا جاء أحد من القرية أو القرى المجاورة يحمل السلامات والأخبار للباقين.

سكتت ثوانٍ كأن الحروف مشتتةٌ على جبل تلملمها من بين أطراف الذاكرة بألم:

كان والدك يسكن في شقة صغيرة مع بعض أصدقائه في إحدى هذه العمارات وفي عامه الثاني بالجامعة عرف بموضوع التهجير وعرف أن الكثير من كبار السن والأطفال ماتوا أثناء الهجرة ولم يعرف بالتحديد أين استقروا..

يُقال أن بعضهم سكنوا في منطقة تسمى كوم إمبو بالصحراء، هذا كل ما عرفه ثم أنهى دراسته والتحق بالخدمة العسكرية وقضى سنوات في الحرب وحين عاد لم يستطع الوصول لأي معلومات عنهم.

تركتها وقد زادت حيرتي حيرةً وكنتُ أتمنى أن أجد عندها ردًا يشفي لوعتي.

كانت شذى مازالت تربطها علاقات وثيقة بزملائها في شركة السياحة التي عملت بها سابقًا فطلبت منها التواصل معهم فربما استطعتُ الوصول لشيئ عن طريق أحد المرشدين الذين يرافقون السياح في رحلاتهم إلى أسوان.

بالفعل تواصلت شذى مع زميلٍ لها يدعى باسم..

وقابلناه أنا وهي وطلبتُ منه أن يسأل هناك أهل البلد الذين يتعاملون مع السياح وأعطيته اسم عائلتي بالكامل.

مرت أسابيع وأنا أنتظر والقلق يقتلني.

ربما كان قلقًا يفوق ما عانيته حين فقدتُ أوراقي وساعدني الشيخ حمد لاسترجاعها..

ولكنني الآن أفتقد هويتي؛ فمن يردّها إلي ومن يعيدني لجذوري؟

تطوعت شذى بالتواصل مع زميلها السابق باسم لمعرفة أي معلومة قد يصل إليها.

وكان يطلعها دائمًا على كل خطواته وما يصل إليه من معلومات.

- **كيف حالك يا شذى؟**

هكذا بادرها باسم بالسؤال فور اتصاله.

- **بخير الحمد لله.**

ثم قال لها بحماس:

- **عندي لكِ أخبار مهمة أريد مقابلتك.**
- **رائع .. ساعة ونلتقي.**

قابلته شذى وأعطاها ما وصل إليه من معلومات قبل أن تخبرني باتصاله حتى لا يقضي القلق على ما تبقى من روحي العالقة في أودية الذكريات.

- أنس عندي لك أخبار رائعة.

صاحت وهي تفتح باب مكتبي فانتفضتُ من فوق الكرسي ولا أدري كيف وصلت إليها.

- ماذا؟ دعيني أرى..

فتمايلت بدلالها قائلة:

- تدفع كم؟

- عمري كله.

فابتسمت وقالت:

- لم يكن هذا حالك منذ عدة أسابيع.

تذكرتُ حينها حديثًا سمعته يدور بين والدي ووالدتي وأنا محمومٌ ليلة حدوث الزلزال حين قال لها:

- أنتظر بفارغ الصبر اليوم الذي أنهي فيه خدمتي بالعمل وأتقاعد،حينها سيكون الأولاد قد كبروا وسوف أسافر لأسوان وأبحث عمن تبقوا من العائلة.

ثم أعقبها بهذه الكلمات: لو كان في العمر بقية.

ففزعت أمي ودعت له بالصحة وطول العمر.

أعطتني شذى ورقةً بها اسم القرية التي سكنها أهلي بعد الهجرة وحتى الآن.

- هل هذا حقيقي؟

لا أصدق ما أراه، كادت الفرحة أن تخلع قلبي من محله، لم أتخيل يومًا طيلة حياتي الماضية أن أتعلق بهذا الأمل وأن أبحث عن جذوري..

ولكن كيف سيكون لقائي بهم؟ وهل سيعرفونني؟ ومن منهم سأجد؟

وعادت لمرساها الأحلام، وانتصفت في الطريق الأمنيات..

لا عادت من حيث أتت، ولا على ما فاتها بكت..

زائرُ النهار بالخطاب أفصح، وزائرُ الليل بالجواب اختفى..

لا رد لسؤال، وحدك تحاورالروح لتقتنص منها الأجوبة..

غرب أســـــوان

ومضةُ صفاءٍ بين رياح الشك باقية..

تُفسح الطريق القديم،

بعيدًا عن انحناءات دروبهم البالية..

مسالكهم المتباهية بكثرة المخارج والمداخل..

فتبدو في وحشتك تتساءل:

من فينا الأحق؟

ليست أقدامك الشاردة

فدربك وإن طال صدق..

سافر أنس إلى الجنوب للمرة الأولى، أرادت شذى أن تذهب بصحبته ولكنه رفض:

- مكانك هنا أهم.. من سيتابع أعمالنا؟

استغرقت الرحلة من مطار القاهرة إلى مطار أسوان حوالي ساعة وعشرين دقيقة قضاها أنس متوترًا يحاول جاهدًا تخيّل عائلته

واستقبالهم رغم كل محاولات باسم لخرق هذه العزلة والدخول في حوارات كانت كلها تتعلق بشذى..

ولولا انشغال ذهن أنس للاحظ انشغال باسم بشذى الواضح رغم حاولاته في المراوغة والهروب من الإفصاح عن هذا الشغف.

وصل الفوج السياحي الذي لتحق به أنس إلى مطار أسوان ومنه إلى قرية غرب سهيل حيث كانت وجهتهم الأولى ولكنه لم يتمكن من الانتظار وغادر سريعًا بصحبة إحدى سيارات الأجرة إلى قرية غرب أسوان.

في التاكسي سأل أنس السائق:

- كم تستغرق المسافة من هنا لغرب أسوان؟

فأجابه السائق:

- حوالي سبعة عشر دقائق.

بدت لأنس أطول من كل السنوات التي قضاها بعيدًا عن تراب الوطن.

كانت عيناه تلتهم المسافات ويداه تتسلل لتُطمئن قلبه كلما اشتكى سرعة دقاته وارتطام أوتاره بجدران الوقت الذي يأبى أن ينقضي..

ولم يمنح حتى عينيه الفرصة لتتابع كعادتها امتداد الطريق أو تستمتع بزرقة السماء الصافية.

وصلا إلى أطراف القرية حيث استقبلتهم أشجار النخيل والدوم تسيج المكان ثم تنحني فتفتح لهما معبرًا منه ينسربا حتى يصلا للقلب..

كانت القرية عبارة عن عقدٍ من اللؤلؤ ينحني بغنجٍ وتيه ممتدًا من صفحة النيل لمسافة عدة كيلومترات على عنق الصحراء في لوحة لم أرَ مثلها من قبل حيث تتشابه كل البيوت في التكوين والطلاء باللون الأبيض..

أخبرني سائق التاكسي في الطريق أن النوبيين (وقد كان نوبيًا منهم) ظلّوا محافظين على تراثهم وعاداتهم التي ورثوها عن أجدادهم القدامى ولم ينسوا أبدًا أرضهم التي تركوها قسرًا وأنهم مازالوا يتمسكون بحلم العودة إليها يومًا.

وأن هذه القرية حصلت في العام ٢٠٠٧ على شهادة أفضل قرية على مستوى الجمهورية في التنظيم والمحافظة على التراث حتى أنها أصبحت مُدرجةً في كل جداول الرحلات السياحية للأقصر وأسوان..

نزلتُ من التاكسي أمام المنزل..

منزل رقم ٢١ كما تُشير اللوحة المنمقة التي تزين صدر بابه فتبدو كنجمةٍ في قبة السماء الزرقاء..

طرقاتٌ خفيفة ظننتُ أنها لن تُثير انتباه أحد، ولكنني سمعت صوتًا قادمًا من خلف الباب:

- نعم.. لحظة..

ثم انشقت السماء وبدا من خلفها شعاع نورٍ بدا بين شفتين بلون التوت علتهما وجنتان تشتعلان كنجمين يبتهجان وما إن تجاوزتهما إلى العينين غرقتُ في أنهار العسل حتى ظننتني مِتُ وأنا في الجنة الآن..

أفقتُ من ذهولي على صوتها:

- أهلًا..

بصعوبةٍ استطعتُ جمع أشلاء ذاكرتي لأتذكر من أنا ولماذا جئت؟

- أنا أنس الوجود حامد دهب حمدون.

ووالدي حامد دهب سليمان حمدون.

عفوًا أليس هذا منزل الشيخ حمدون الترجمان؟

وكأن حالة الذهول التي أصابتي منذ لحظات قد أصابتها بالعدوى مع اختلاف الأسباب..

تركتني وذهبت تنادي بصوت مناجاة الكروان في بدايات الصباح:

- أبي تعال انظر مَن بالباب!!

جاء شيخٌ كبير حين التقت عينانا كدتُ أسقط مغشيًا علي!

وكأنني أقف أمام والدي الذي فقدته منذ سنوات..

ربما لم يكن التشابه بينه وبين والدي كبيرًا، ولكن لمحة الطرف قد تحمل من السحر ما يفوق تطابق الملامح..

دعاني الشيخ للدخول بعد سلامٍ لم يبدُ على قدر الحدث، ثم جلسنا في جلسةٍ تبعثُ الراحة في النفس وتترك للروح المجال للتحليق في ملكوت الخالق..

أو كما يقولون اجتماع العناصر الثلاثة الماء والخُضرة والوجه الحسن فعلوا بي فعلهم فلم أفهم ماذا حدث سوى أنني فتحتُ أمامهم مغارة الذكريات وانساب نهر الحروف..

- يا بني رأيتم الكثير أنت ووالدتك وأخواتك، ليتنا كنا نعلم بوجودكم، لم نكن لنترككم وحدكم.

هكذا رد علي بعدما سمع قصتي.

ثم أردف قائلًا:

- انقطعت أخبار والدك بعد هجرتنا من قريتنا ثم عرفنا من بعض القادمين من مصر أنه ذهب مع الجيش للحرب ولم نعرف عنه شيئًا بعدها فظنناه إستشهد.

سكت لحظة ثم التقط أطراف الذاكرة فأكمل:

- كنتُ أكبر من والدك بعامين ولكن لإصابةٍ في ساقي حدثت لي بسبب سقوطي من أعلى نخلةٍ في الصغر منعتني من دخول الجيش.

لاحظتُ حينها عصاه التي كانت تحتضنها يده وكنتُ أظنها رافقته بعد الهِرَم.

وبعد زفير أخرج معه كل غبار السنين المتراكم على صدره أكمل:

- في رحلة النقل من قريتنا إلى كوم إمبو لم تتحمل جدتك رقية مشقّة السفر؛ فتوفيت وتلاها عمك الشيخ صالح.. الله يرحمهم جميعًا.

الحمد لله أني عشت حتى رأيتك يا بني وعرفت أخبار أخي حامد رحمه الله كم تمنيت أن نجتمع ثانيةً، نجتمع في الآخرة إن شاء الله.

قالها عمي الشيخ حمدون بحروفٍ واهية تمتلئ بالشجن وتخنقها العبرة لولا شموخ وكبرياء الرجال.

- أطال الله في عمرك.

نطقتها أنا وابنته في وقتٍ واحد.

إيزيس هذا الأيل الشارد لتوّه من الصحراء بعينين تبحثان عن الأمان تختزنان جوع السنوات الصعبة للصحبة والأهل..

تحمل على صدرها مفتاح الحياة طوقت به عنقها وعاهدت نفسها أن تبحث عن بقايا عائلتها لتجمعها كما جمعت إيزيس أشلاء أوزوريس وحمت حورس من غدر الأعداء والزمن.

قليلٌ من الأمل، وكثيرٌ من العِناد؛ أن أهزم الطرقات وأخترقها.. ألا تتباعد الخطوات فتذوب ويضيع أثرها..

قليلٌ من راحة البال، وكثيرٌ كثيرٌ من الصبر؛ أن تتلاشى بين أنامل الوهم أحلامك، ولا تنكسر، بل تُصِّرُ على الانتقام من أشباح الفشل وظلالها التي تطاردك..

قليلٌ من الحب، وكثيرٌ من الاحترام يدفعك للأمام، لا يهدأ إلا بعبورك لشاطئ الأمان..

طريـــــق جـــــديد

وتعود لتنظر في بئر أفكارك.. لعلّك إلى قاعه تصل..

تُبدد أفكارًا حاصرت روحك، أو تلتقط شعاع نورٍ يهديك، يأويك بعد شتات العيون في الدروب..

نصفك الغارق في عتمته يحاور نصفًا بالضياء اتّشح..

لم تنل منك الليالي، لم تسلبك ما تبقى من رماد الأمل..

خذ من حنينك الباقي رشفةً واروِ بها شوقًا ضاق بقلبك وكلّ..

نبضٌ مازال في أروقة الروح يحتضر، يختصر مسافات العشق، يجيب عن أسئلة في روحك تختمر..

لأي ترابٍ أنتمي؟

وهل بقي في العمر عمر؟

انطلقنا أنا وإيزيس في جولةٍ بالقرية لنصل إلى مشروعها الصغير.. ما تبقى لهما ليعينها ووالدها على مواجهة تقلبات الدهر كما قالت إيزيس عنه ونحن في الطريق إليه، وكم كنتُ أتمنى أن تطول المسافة حتى نصل..

تتهادى خطواتنا تحت مظلة الفيروز التي نُثرت وتزينت بقطع القطن الناصعة، وقد انعكست على الأرض فاتشحت كل الجدران والبيوت بهذا الوشاح الأبيض واختارت الفيروز نوافذها..

وهذا النسيم الذي يلفّك ويحيطك بغلافٍ رقيق محمّلا بالتحايا من النيل العظيم..

هذا النهر الذي قال عنه هيرودوت:

"مصر هبة النيل."

وإلى الآن لا أحد يدري هل هي هبته أم هو سر خلودها.. علاقةٌ أبديةٌ تربطهما معًا كما ارتبطت إيزيس بأوزوريس حتى آخر الزمان.

تطوف القوارب بأشرعتها البيضاء رابضةً على صفحة النيل لا ريح تخيفها تتهادى وتتدلل كدُميةٍ بين يدي طفلة تحيطها بحبها..

كل من في القرية يعرفونها..

تمرُّ كالنسمة في ثيابها البيضاء المطرزة بعناية..

حاولتُ قطع السكون فسألتها :

- ماذا درستِ يا إيزيس؟

فابتسمت بلطفٍ وقالت:

- أنا مهندسة.. تخرجت من كلية الهندسة قسم العمارة من جامعة أسوان.

تعجبتُ دون أن أنطق فأكملت حديثها:

- بعد تخرجي جهزت ورشة صغيرة للمشغولات اليدوية وسوف نذهب إليها الآن.

وصلنا.. كنتُ طوال الطريق أحاول أن أتخيل بأي مشروعٍ فكرت هذه الفتاة النوبية؟ ولكنني وقفتُ مندهشًا ما إن وصلنا..

فدعتني إيزيس لأتقدم..

بوابةٌ كبيرةٌ أراحت يدها عليها ففتحت بسهولة ليبدو خلفها المشهد..

ممرٌ على جانبيه قدورٌ من الفخار حديثةُ الصُنع، ثم بهو ليس بكبير توجد به طاولات دائرية أسفلها عجلات والعاملات النساء يجلسن وما إن تلمس قدم إحداهن العجلة يدور قرص الطاولة بالأعلى ومعه تتهادى حركة يداها في رفقٍ وحنو على قطعة الطمي فتحيلها إلى قطعةٍ فنية..

وفي الداخل فرنٌ كبير يجمع العمال فيه القدور بعد جفافها فتنضج كوجبةٍ شهية وتبدو في أتم استعداد وأبهى حُلةٍ للعرض..

وفي الجانب الآخر توجد مجموعة نساء يجلسن وبجوارهن شرائط ملونة مع اقترابي منها تبينتُ أنها شرائط من سعف النخيل يصنعن منها أواني ومشغولاتٍ أخرى كثيرة تبدو في غاية الأناقة والجمال.

- ليس بعد.

قطعت دهشتي بكلماتها.. ودعتني للدخول لمرسمٍ صغير تُلطخ الألوان جوانبه كروضةٍ في أوج ربيعها..

- هنا أقوم بالرسم على بعض قطع الفخار من المزهريات والأواني فتبدو قطعًا فنية جاهزة للبيع..
هذا هو مشروعي الصغير.

ثم أكملت:

- هذا كل ما تبقى لنا، كانت هناك قطعة أرض مجاورة باعها والدي لأجل إخوتي حتى يتمكنوا من السفر.

فسألتها:

- هل لديكِ إخوة يا إيزيس؟

فأجابت بعدما حبست أنفاسها لحظات ثم أطلقت سراحها في تنهيدة بدت وكأنها حفرت أخدودًا في صدرها قبل أن تخرج:

- نعم، أخي الأكبر عبدالرحمن والثاني سليمان.

فسألتها أين هم؟ كنت أتمنى لقاءهم.. فأجابتني سريعًا أنهم هاجروا إلى كندا.

كانت زيارتي جرعة مكثفة أكبر من استيعابي، ومن كل ما توقعت.

تركتها وعدتُ إلى القاهرة على وعدٍ بالعودة في وقتٍ لاحق.. وأنا مازلتُ لا أصدق ما حدث..

رويتُ لأمي وأخواتي وشذى القصة ففرحن كلهن عدا شذى وكأنها ندمت على حثي على القيام بهذه الرحلة حين أخبرتهن عن إيزيس..

علّقت أختي منى قائلة:

- كنتُ أظن أن البنات هناك لا يكملن تعليمهن.

فردّت عليها رقية:

- كان ذلك قديمًا أما الآن فكل شيء تغير..

أخبرتُ أختي رقية أنني شاهدت صورة جدتنا التي حملت اسمها عند إيزيس مع مجموعة صور لجدي وأعمامي وبقية العائلة..

على طـــــاولة المقهى

وبينما أنت غارقٌ في تفاصيل أيامك.. تستجدي الأيام أن تُلقي في بئر الركود حجرًا يُنسيك رتابة الساعات، فتجد نفسك قد غرقتَ حتى أخمص القدم في دوامة الحكايات.. تفاصيل لا أول لها ولا آخر..

وتكتشف فجأةً أنك لم تكن تعرف حتى ذاتك!

عُدتُ لعملي وتهتُ في الزحام مرةً أخرى بين قضايا المظلومين وحكاياهم وبين شركة السياحة التي أقمناها بالرغم من كل المشكلات التي واجهتنا في هذه الفترة الحرجة التي تعرضت فيها السياحة لعدة أزمات بسبب الحوادث الإرهابية التي تخللتها.

كان المتنفس الوحيد لي من هذا الاختناق هو بعض الأمسيات التي أقضيها على طاولة والدي في المقهى..

حيث أقترب من الناس أكثر وأستمع لهم..

أستجدي الطاولات أن تقرضني بعض كلمات والدي التي كانت تملأ المكان في أحاديثه ونقاشاته مع الصحفيين، والكتاب.

ثم جلوسه مع البسطاء أمثال عم سعيد وعم يسري جيراننا وعم عثمان يشرح لهم ويبسط بطريقته الأحداث وما يدور في أروقة الطبقة المثقفة التي لا يستطيعون مجاراتها، ولا يقدرون على فهمها.

مرّ من أمامي عم عثمان..

آه معقول!

كيف نسيت عم عثمان؟ لم ألتقِ به منذ زمن بعيد..

- **كيف حالك يا عم عثمان؟ هل تذكرني؟**

سألته وأنا أصافحه، فرد علي:

- **سامحني يا بني الذاكرة لا تسعفني.. من أنت؟**

فدعوته للجلوس:

- **تفضل أولًا.. ارتاح.. أنا أنس الوجود ابن الحاج حامد الأسواني..**

فصاح متذكرًا:

- **حامد أبو حمدون.. الله يرحمه.**

يا ولدي؛ والدك رحمه الله كان من أنقي وأطيب الرجال.. نوبي على حق لم تغيره المدينة.

فسألته إن كان يعرفه قبل أن يأتي للقاهرة؛ فقال وقد بدا وكأنه يقلب في صفحات كتاب تاريخ طويل أمامه:

- والدي كان حارسًا للبناية المواجهة للمقهى على الناصية الأخرى للشارع، وكنت أساعده وكان والدك يسكن هو وأصدقاؤه في غرفتين فوق سطوح البناية، كان يكبرني بعدة سنوات وكان يعاملني بكل احترام بخلاف باقي السكان.

فسالته عمّا إذا كان والده كان من نفس منطقة والدي؛ فارتشف رشفةً من كوب الشاي الذي دعوته عليه ثم قال:

- كانوا جميعًا يعيشون في منطقة النوبة جنوب أسوان على ضفاف النيل، كانت الحياة هناك جميلة نقية وهادئة ليست كصخب القاهرة وزحامها..

تنهد بعدها تنهيدةً طويلة، ثم أكمل وأنا أسمعه وكلي شغف:

- كان لكل أسرة بيت مساحته حوالي ألف متر يعيشون فيه معًا وخلف البيت مساحة كبيرة خاوية يزرعونها أو يبنونها كما يشاؤون..

كان والدي يحكي أنهم لم يكونوا يتعاملون بالنقود، بل بالمقايضة أنا أزرع النخيل أعطيك تمرًا وأنت تزرع القمح أو الشعير فتعطيني حاجتي مما تزرع وهكذا..

ولكن بعد بناء سد أسوان غرقت بلادنا ورحلونا لمناطق أخرى في الهجرة الأولى فتفرقنا في مناطق كثيرة البعض جاء للقاهرة والبعض في محافظات أخرى وتركنا كل شيء خلفنا..

تنهد وكأنه يلتقط أطراف الذاكرة واعتدل في جلسته ثم أكمل:

- أنا ولدتُ هنا لم أرَ النوبة ولكن والدك كان أسعد مني حظًا فهو ولد هناك وعاش طفولته فيها..

كان يحكي لي حكايات كثيرة عنها حينما علم بشوقي لهذه البلاد.. كم أتمنى أن أراها ولو مرةً قبل قدوم الأجل.

تركته وعدتُ لشقتنا ورأسي ساحة سجال تتصارع فيها الأفكار..

ماذا أفعل؟

وهل كانت زيارتي لغرب أسوان مجرد زيارةٍ عابرة؟

هل هذا ما كنتُ أريده؛ مجرد الذهاب لمصلحة ولأنها لم تتم أعود أدراجي وأتناسى ما حدث؟

كانت ليلةً طويلة بطول سنوات الغربة والشتات..

غربة والدي عن أرضه وغربة أجدادي عن موطنهم وأرضهم، وغربتي أنا التي لا تنتهي فصولها أبدا..

دون تخطيـــــــطٍ مُسبق

فجأةً تتذكر وجهك الثاني الذي ألفوه، تنثر عليه مساحيق الصبر والقوة، ومسحةً من الفتور تخفف صدع القلب وترمم شروخ الروح..

تكتمل تفاصيل قناعك المفطور، وبعد محاولاتك المعتادة كل يوم تنادي على غائبك المقهور المنزوي في ذاك الكهف، تخبره أنك بسره لن تبوح ليطمئن..لا فرق عنده لم يعد يهتم؛ عرفوه أم مازالوا يجهلوه..

هذا الأسير دون حارسٍ أو سجّان، لم يجرؤ يومًا أن يتجاوز الحد.. عيناه أبدًا لم تمتد وقلبه الساكن معقودٌ على بابه ألف قفلٍ صلد..

تراكَمَ صدأُ الأحزان حتى استعصت كل المفاتيح على فض قساوته، وكأنه صار والقفل توأمين.

قضيتُ ليلتي مؤرقًا لم يعرف النوم لجفني طريقًا وحين أجهد السهر الجفن غفا والعقل مازال في حيرته..

وعاد إليّ حُلمي من جديد بعد طول غياب حتى ظننته فارقني للأبد، واقتربتُ من نسيانه..

أجلس على شاطئ النهر أحكي أشعاري للقاصي والداني، للسماء والشجر.. للأرض والماء، حتى رقّ قلب الجميع لحالي..

وفزعتُ حين اقترب منّي أحدهم، ظننته سيبتلعني كما ابتلع يونسَ الحوتُ ولكنه سيقضي عليّ في قضمتين هذا التمساح الكبير..

نظر في عينيّ وأومأ إليّ لأمتطي ظهره ونقلني من الشاطئ إلى جزيرتها البعيدة..

يا إلهي كيف إليها وصلت؟؟

بدت بعض ملامحها في نهاية الحلم ولكنني فجأة استيقظت..

في الصباح لملمتُ بعض أغراضي التي تلزمني في رحلة لعدة أيام وصافحتُ أمي مغادرًا؛ فسألتني:

- إلى أين يا أنس؟

- إلى جذوري يا أمي..

لا تقلقي سوف أكون على اتصالٍ دائم بكم ولن أتأخر.. بلّغي شذى أن تتصرف بمعرفتها في أمور الشركة، وإذا احتاجت أن تبلغني بشيئ فلتتصل بباسم هو يعرف مكاني وكيف يصل إلي.

لا أدري لماذا أقحمتُ باسم في الموضوع وألقيته ثانية في طريق شذى.. ربما تذكرتُ لحظتها شغفه بها الذي ظهر لي يوم سفرنا معًا في المرة الماضية ولم أعره اهتمامًا وقتها.

شذى تستحق أن تجد من يهتم بها أفضل مني فأنا لا أصلح لها أبدًا.. يكفيها ما عانته طوال سنوات عمرها..

اتصلتُ بباسم في الطريق إلى المطار وأخبرته بسفري، يمكنه بتليفون صغير أن يدبر لي مقعدًا على أول رحلة مغادرة لأسوان..

هذه المرة انطلقتُ من المطار مباشرة إلى غرب أسوان..

إلى ورشة الفخار مباشرةً أخذني التاكسي..

دخلتُ هذه المرة وأنا أعرف طريقي..

إلى مرسم إيزيس ومكتبها المتواضع المنمق بلمساتها الساحرة ودقّتها المتناهية في ترتيب كل شيء في مكانه بزاوية تماثل منحوتة صغيرة في تاج عامود من أعمدة معبد إيزيس..

على زاوية من المكتب كانت توجد عدة أوراق تحمل رسومًا فرعونية ونقوشًا باللغة الهيروغليفية، فأبهرتني دقتها وأمسكتُ بها لأتصفحها وسقطت من تحتها بعض الأوراق الأخرى..

كانت أشبه بيوميات كتبتها إيزيس أو ربما مذكرات..

ودون أن أدري وجدتني أقرؤها:

* بين الأمواج تصارع وحدك الطوفان.. لا أرض تحتك لتحتضن قدميك الصغيرتين وتمنحهما الأمان، لا أحد بجوارك وعلى كاهلك يجثم القهر ووجع السنوات العجاف..

* اليوم فقط آمنتُ بسحر المفتاح.. لملمتُ بعض الأشلاء بعدما انفرطت حبات العقد.. سامحوني كم تنميتُ أن أمنحكم تعويذة العودة

بأمان.. لكن من قال أن الساحر يمكنه الاختيار؟ إنها مشيئة الأقدار رغمًا عن الكل.. لو كنتُ أملك سحرها ما تأخرت..

* مرت شهور ولم يعد.. خاب ظني في المفتاح ثانيةً.. ربما كنتُ أنا اللعنة التي تبعدهم! ألف ظنٍ وشك.. ولا شيئ مؤكد غير وحدتي على هذه الأرض.. جئتها غريبةً وهكذا سأرحل..

تسربت دمعة من بين جفنيّ لتحرقني لسعة مرورها على أخدود وجنتي.. آه يا إيزيس تمزق قلبي وأنا أقرأ سطورك الدامية.. ليتني كنتُ أعرف أنكِ تحملين كل هذا الهم؛ لما تركتك منذها..

ولكن من هم الذين رحلوا ولم تستطع إنقاذهم؟

كان هذا حديثي مع نفسي بعدما قرأتُ سطورها، وقطعه دخولها فجأةً فلم تكن تعلم بوجودي هنا.

دخلت لترى أوراقها في يدي وحروفها على صدري جاثمةً وبداخل عينيّ شكّلت غيومًا احتقنت بها أوردتي فصارت كؤوس شجن.. وبسرعة محوتُ هذه الدمعة التي تسربت قبل أن تلمحها.

- أنس! متى جئت؟

قالتها بحروفٍ تكسرت على شهقة خوفٍ واضطراب..

- منذ قليل يا إيزيس.

كم هي جميلة رسوماتك!

حاولتُ بسرعة أن أخفي كتاباتها لكي أبدو وكأنني لم أرها، وأنني فقط كنت أشاهد الرسومات، كما حاولتُ جاهدًا أن أفك طلاسم هذه النظرة الحائرة في عينيها، ولكنني كعادتي في فهم لغة العيون أُخفق..

فابتسمت ابتسامتها الهادئة وقطعت حديثي مع روحي قائلة:

- لابد أنك منهك من الرحلة، هيا لنذهب للمنزل لتقابل والدي وترتاح..

الترجمـــــان

الخطوة التي تفصلك عن حلمك، وتعزلك عن واقعك..

لن تتنازل عنها مادمت في أحضان مخاوفك تأوي وفيها تكمن..

الدروب التي ترفعت عن عبورها، واخترت بقاءك منزويًا، ظننت أنها الحل الأسلم..

الميتة التي خشيتها في انطلاقك تكاثرت في صمتك وصارت ألفًا..

قم من مرقدك، ولخوفك لا تستسلم.. ليست كل الأحلام منفى ولا كل الآمال مآلها العدم..

لم نخلق للصمت، وفي الجوف حروف تلتهب..

اسكب على أحزانك همس الأمل، وانفض غبار يأسك وانطلق.. كفانا ما عانينا من ألم..

انطلقنا لمنزل عمي الشيخ حمدون الترجمان، وأثناء سيرنا سألتها:

- لماذا يطلق الناس هنا على عمي لقب الترجمان؟ كنتُ أخشى وأنا قادم في المرة السابقة ألا يكون هو عمّي.

فافرجت شفتيها وأطلقت ابتسامتها التي تأسرني بها في كل مرة وقالت:

- كان والدي يتعامل مع السياح منذ صغره منذ كانوا هناك على أرضنا في الجزيرة وتعلّم منهم لغات عديدة كالإيطالية والأسبانية والفرنسية والروسية بالإضافة إلى اللغة الإنجليزية.

فاندهشت وربما بدت على وجهي ملامح الدهشة فأكملت كلامها:

- طبعًا هو يعرف فقط هذه اللغات بالمخاطبة ولكنه بالكاد يستطيع الكتابة والقراءة باللغة العربية، ليس وحده ولكن الكثير من رجال هذه المنطقة من الأجيال السابقة مثله، فهم لم يلتحقوا بالمدارس وكانوا فقط يتعلمون اللغة العربية وحفظ القرآن في الكتاتيب وأما اللغات الأخرى عن طريق معاملتهم للسياح.
- آه فهمت الآن، لهذا أطلقوا عليه اسم ترجمان؟

سألتها كطفلٍ صغير يستكشف ما حوله فردّت:

- نعم معظمهم يطلق عليه هذا اللقب.

وصلنا لبيت عمي..

فتحت إيزيس الباب وانحدرنا في ممر ضيق من خلف الباب فوصلنا لبابٍ آخر ما إن فتحته حتى انطلق نسيمٌ هادر غمرنا، وهزم هذا الوشاح الشفاف الذي تسجن تحته خصلات شعرها فهبت وانطلقت بعدما عانت في الأسر..

انشغلت إيزيس بجمع الخصلات الهاربة كحصانٍ أسود يعدو برشاقةٍ بعدما فُتحت له أبواب الأسر، وانشغلتُ أنا بمتابعتها دون أن أنتبه للمنظر خلفها، وتذكرت حينها حلمي المتكرر وصورة الفتاة القابعة خلف نافذتها في الجزيرة، نعم هي..

كيف لم أنتبه لهذا الشبه حين قابلتها في المرة السابقة؟ كان عمي يتوسط هذا المكان: مقصورة من الخشب المقبب مفتوحةً من كل الجهات إلا من بعض الأعمدة من جذوع النخيل التي تمتد أياديها في الأعلى لتشكّل مهدًا لسعف النخيل فيصير مظلة تتلقف لسعات ألسنة الشمس، وأما في الداخل تحتضن جلسةً وثيرةً لم أنعم بمثلها من قبل تزينت بمشغولات النساء المزركشة بالنقوش الهندسية المتقنة الصنع..

تذكرتُ حينها العرزالة مكان الشيخ حمد المفضل بالمزرعة..

- أهلًا يا بني..

صاح عمي الشيخ حمدون، فذهبتُ إليه وقبّلت يده فانحنى على رأسى وفرّت دمعةً من عينه ثم احتضنني بعدها وبكي..

لم أفهم ماذا حدث حينها ولازلت لا أستوعب هذه اللحظة ولم أحكها لأحد سواء أمي أو أخواتي أو حتى شذى.

اختلط سكب دموعنا في ذات الكأس.. كأس الفقد للراحلين.. ربما، أو كأس الغربة والحنين للوطن..

مرت دقائق ولم أشعر بها، وكأنها وقتٌ خارج حسابات الزمن، أو أننا ذهبنا في رحلة إلى ذاك البرزخ الذي زرته من قبل يوم العاصفة وقبل أن يلتقطني الشيخ حمد.

لولا مجيئ إيزيس لتخبرنا أنها أنهت إعداد غذائنا ودعتنا لتناوله.

- تفضل.

قطعت إيزيس صمتي بعدما تناولت الطعام ولم أنطق بأي حرف حينما تقدمت نحوي وفي يدها ثوب أبيض.

سألتها باستغراب: ما هذا؟

فردت: حين يأتي السياح إلى هنا يفضلون إرتداء الجلباب الأبيض ليخفف عنهم حرارة الجو.

- وهل أنا سائح؟

- حتى الآن نعم..

وابتسمت هذه المرة إبتسامة خُبثٍ لذيذة أحببتها.

ارتديتُ الجلباب وانطلقنا في جولة في القرية وقبل الغروب وصلنا لمكان على شاطئ النيل من خلفنا أشجار النخيل الشاهقة على امتداد الأفق ومن أمامنا يمتد النيل فتعجز مهما تخيلت أن تدرك من أين بدأ أو أين ينتهي..

لوحةٌ لم أكن لأتخيلها مهما أطلقتُ العنان للنظر أو للعقل، وها هو آخر شعاعٍ للشمس يودّع عيني إيزيس ويرخي ظلاله على صفحة النيل فيرسم ظلها ويتركها على وعدٍ بعودته باكرًا..

أفقتُ من سكرتي وغرامي بالمشهد وسألتها:

- هل من الممكن أن تحكي لي كل شيئ بالتفصيل؟

لم أقصد أن أقرأ مذكراتك ولكنني..

قاطعتني قائلة:

- لا عليك، هي ليست أسرارًا على كل حال.

ثم بدأت تحكي ولم أحب أن أقاطعها وتركتُ لها دفّة الحوار:

- عند بدء بناء السد العالي غمرت مياه البحيرة قرى النوبيين وتم نقلهم إلى مناطق أخرى مثل كوم امبو والبر الغربي..

تم نقلهم عبر صنادل صغيرة تتسع لأسرة أو أسرتين ثم ينقلونهم إلى هذه الهضبة في الصحراء بعيدًا عن النهر..

كان الجو سيئًا جدًا، لا ماء كافٍ ولا بيوت كاملة التجهيز.. لا شيئ كما أوهموهم قبل المجيئ..

ثم أطلقت زفيرًا عميقًا كأنه شق صدرها بعبوره لضفتين بينهما نهر الحنين والشجن يسري عابرًا، ثم أكملت:

مات الكثير من كبار السن والأطفال في هذا العام وتوفيت جدتنا وعمي الشيخ صالح بعدها، وبعد استقرارهم لم يستطع والدي فراق النيل ولا الآثار فهو لم يعتد مثل إخوانه على الزراعة والعمل بالأرض..

حاول إقناع إخوانه بالانتقال لمكان آخر بالقرب من النيل، لكنهم صدّقوا وعود الحكومة بإعادتهم لقُراهم بعد الانتهاء من بناء السد، وبعد عدة سنوات دبّر والدي أموره بعد زواجه من بنت عمه وتركهم وجاءا واستقرا هنا..

إخوتي عبدالرحمن وسليمان ولدوا هنا..

ثم اغرورقت عيناها بالدموع فلم أفهم سر هذه الغصة التي انتابتها..

حاولتُ تخفيف الأمر عليها ربما كان حديث الذكريات مؤلمًا، فسألتها:

- عندي سؤال يحيرني.. تبدو بشرتك أفتح من النوبيات الأخريات هنا اللاتي قابلتهن، وابتسمتُ.

فابتسمتْ وقالت:

- أنت كذلك بشرتك أفتح.. يمكن وراثة بالعائلة وضحكت.

فأخبرتها أن والدتي من القاهرة ووالدتها من أصولٍ تركية.

فأكملت حديثها:

- توفيت والدة إخواني عبد الرحمن وسليمان وهما مازالا صغيرين فتزوج والدي من أخت صديقه المقرب الذي أعانه على الانتقال من كوم امبو إلى هنا..

كان يعمل ترجمانًا أيضًا وكان من الفيوم يتنقل مع السياح من منطقةٍ إلى أخرى.. والدتي جاءت من الفيوم وعاشت مع والدي هنا وربت إخواني فلم نشعر يومًا بالفرق ولم يشعر أحد أبدًا أنها زوجة والدهم رحمها الله.

مرت عدة أيام وأنا أستكشف عالمي الجديد وبداخلي مشاعر قوية تربطني بهذا المكان وبأهله..

عدنا مرةً أخرى لحديث الذكريات في نفس المكان فسألتها عن إخوانها ولماذا هاجروا إلى كندا وتركوها هي وأباهم..

فأجابت:

- ضاقت بهم الحياة هنا ولم يجدوا عملًا.. تخرّج عبدالرحمن من كلية الهندسة قسم كهرباء وكان يتمنى الحصول على فرصة عمل في محطة السد العالي ولكن كان هذا حلمًا صعب المنال، وتخرج سليمان من كلية الآثار ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن..

ضُربت السياحة في مقتل بعد حوادث الإرهاب في المنطقة ففكروا في السفر مثل الكثير من الشباب مثلهم.

سكتت قليلًا وكأنها رحلت بروحها معهم إلى حيث ذهبوا ثم عادت وأكملت:

- **صديقٌ لخالي في الفيوم وشريكه من الإسكندرية يحضر إليه مرتين في العام ويأخذ الشباب الذين يعتزمون الهجرة ومبلغًا كبيرًا من المال يكفي نفقات الرحلة على حد زعمهم، ويرحلوا.**

- **إلى أين يا إيزيس؟**

سألتها وأنا أدعو الله ألا تنطقها..

فأجابت ومزقت أوصالي بسكينٍ بارد..

- **إلى ليبيا ومنها إلى إيطاليا.**

ثم غابت في غيمةٍ من النشيج لفتها وأخفت ملامحها..

- **مراكب الموت!**

هكذا انطلقتْ صرختي في أعماقي ولم تجد لها صدى..

حاولتُ أن أهدّئ من روعها وفشلت.. فما معنى كلماتي وحروفي أمام هذا الجرح الذي فاض نزفه شجنًا!؟

وما كان مني سوى أنني أحطتها بذراعيّ لأنتشلها من هذا الطوفان قبل أن تغرق..

ولا أدري من منا أنقذ الآخر..

هل أنا الذي أنقذتها من غرقها أم هي التي انتشلتني من صحراء روحي القاحلة وروت ظمأها الذي تملكني طوال سنوات العمر.

غرق كلٌّ منا في حزنه وربما لم يكن أحدنا يدري حتى هذه اللحظة بأحزان الآخر، فاندمجت أوجاعنا، واكتشفنا حينها أننا نمتلك نفس الجرح وربما كان عناقنا علاجه والسبيل إلى التئامه.

وما أن أفقتُ من هذياني؛ تسللت أناملي لتقيم سدًّا أمام نهر دمعها المنهمر، فأدركتْ حينها قربها من قلبي وهالها خفقه المضطرب ففزعت وابتعدت..

حاول كلّ منا جمع شتاته وتجاوز الموقف..

- أنا آسف..

لا أدري لماذا إعتذرتُ.. هل كان من الممكن أن أتركها في هذه الحالة وأكتفي بالصمت؟

ردت بصوت متهدج يمزقه الخجل:

- آسفة لم أستطع السيطرة على انفعالاتي.. هذه هي المرة الأولى التي أتحدث فيها مع أحد عن هذه الفاجعة، ألقيتُ بالصدمة في بئر روحي وقلبي ولم أجرؤ على البوح بها لسنواتٍ مضت والألم يمزقني وحدي دون أن يدري بأمري أحد..

ثم فزعت وكأنها تذكرت أمرًا جللا وقالت بحدّة:

- **أنس انتبه أبي لا يعرف شيئًا مما حدث، لو عرف بما حدث لإخواني سيلحق بهم.. أن يعيش على أمل عودتهم يومًا من كندا خيرٌ من أن أفقده هو الآخر وأبقى وحيدةً في هذا الكون.**

فقلتُ لها بصوتٍ يملأه الإصرار:

- **اطمئني يا إيزيس لن أتركك وحدك ثانيةً.**

الآن فقط عرفتُ قضيتي الكبرى ورسالتي التي يجب أن أهتم بها..

قد تعيش عمرك كلّه ولا تدرك لماذا خُلقت وربما أيقنت أن العالم بك أو بدونك سيستمر.. تترك نفسك للريح تأخذك أينما شاءت، وتخدع نفسك بمقولة مشيئة القدر..

إذا كنا خُيّرنا في العبادة وكان الله قادرًا على خلقنا جميعًا لطاعته، فلماذا نقف عند أقدارنا ونجزم أنها مصيرٌ لا يتغير؟

أقدارنا نحن من نبحث عنها ونصنعها بأيدينا وغير ذلك تراخي وكسل.

قضـــــاءٌ وقدر

الفكرة التي تشغل كل تكوينك، تستحوذ على فراغات الروح وتلابيبها..

تشحذ أحلامك وتُوجهها على اتجاه موجها..

تصنع من خيالك عالمًا خاصًا بها..

وتنسى ماضيك وحاضرك، ولا ترى مستقبلًا في غيرها..

في اليوم التالي دعتني إيزيس للخروج معها وقالت أنها أعدّت لي مفاجأة..

- ماهي المفاجأة؟ هيّا أخبريني..

هكذا سألتها فضحكت قائلة:

- وإن أخبرتك كيف تكون مفاجأة؟

انطلقنا حتى وصلنا لشاطئ النيل ولكن هذه المرة عند مرسى للمراكب الشراعية، وعندها ركبنا أحد هذه المراكب وانطلقنا على صفحة النيل العظيم تعكس على وجوهنا أسراب الأشعة القادمة من الشمس لتُباركنا وتحمينا من غدر الموج..

وبعد فترة من الوقت لم أكن أريدها أن تنتهي بل كنت أود أن نبقى هكذا حتى نصل لمنابع النيل في الحبشة فنسأله عن أجدادنا..

وصلنا إلى شاطئ جزيرة..

- **هذه جزيرة أجيليكا التي نُقلت إليها معابد جزيرة فيلة بعد غرقها بين سد أسوان والسد العالي..**

لأول مرة أشاهد معبد إيزيس..

هذه الشخصية الأسطورية التي ظلت تبحث عن جسد زوجها بعدما خانه أعداؤه ومزقوا جسده وبعثروه في كل أرجاء مصر ويُقال أنها وجدت القلب في جزيرة فيلة ولذلك أقامت له قبرًا هناك وكانت تزوره في كل يوم..

حاولت إيزيس أن تمارس مهنة المُرشد السياحي وتعرّفني على تاريخ المعبد وقصّة إيزيس وكيف كانت تلقي تعاويذها لتساعد المرضى على الشفاء من أسقامهم.

تذكرتُ للتو حديث العرّافة التي قابلتها عند الأهرامات، يا إلهي كيف نسيتها وكيف نسيت حديثها؟

سامحني يارب، سامحيني يا أمي..

لقد قالت لي سوف تأسرك بسحرها وتُعيدك إليها حتى ولو كنت على آخر حدود الأرض، وحين سألتها من هي قالت:

من اختلطت حروف اسمك باسمها..

إيزيس وأنس..

يا إلهي!

ومازالت إيزيس تتجول بي في أرجاء المعابد نتنقل من بهوٍ لآخر، ولكنها كانت تتلعثم كلما التقت أعيننا ويفتح لي شعاع الضوء الغارق في عينيها مساحاتٍ لأسبح فيهما دون أن أصل لشاطئ أو مرسى..

- **هنا أو بالأحرى على جزيرة فيلة عاشت أشهر قصص الحب والإخلاص والتضحية، فها هي إيزيس تُخلص لأوزوريس حتى بعد مقتله على يد أخيه وأعداؤه وتحافظ على ابنهما حورس وتحميه وتعيد جمع أشلاء أوزوريس مُحاولةً إعادته للحياة كما في الأسطورة..**

وابتسمت ابتسامة يختمرها الخجل، ثم أكملت:

وها هو أنس الوجود يهيم عِشقًا في محبوبته ورد التي سجنها والدها في الجزيرة كي لا يصل إليها فيظل باقيًا على الشاطئ يحكي حكاية عشقه حتى ترّق له قلوب التماسيح في النيل ويمتطي ظهر كبيرهم ويصل إليها في الجزيرة ويفك أسرها.

قاطعتُ إيزيس قائلًا:

- أتدرين أنني منذ كنت صغيرًا وأنا أحلم بهذه القصة في أحلامي؟

حلمٌ واحد يتكرر كل ليلة، أراني فيه جالسًا على الشاطئ أتطلع للفتاة الجالسة خلف نافذتها في قصر وحيد على جزيرة بعيدة تفصلني عنها مياهٌ عميقة، ثم يظهر لي وحشٌ كبير يشبه التمساح ويدعوني للركوب على ظهره ويصلني للجزيرة..

- معقول يا أنس؟

قالتها متعجبة، فأكملتُ كلماتي قبل أن يلجمني الصمت:

- نعم، وهل تدرين من هذه الفتاة؟

إنها أنتِ يا إيزيس، نعم أنتِ التي كنتُ أراها في حلمي كل ليلة، لم تكن صورتك واضحة، ولكن بعد مجيئي لهنا وزيارتي لكم بدأت تفاصيل وجهها تظهر في الحلم شيئًا فشيئًا، حتى جئت هذه المرة وتأكدت أنها أنتِ..

قضينا يومًا لم أكن لأتخيله ولو بعد مئة سنة..

امتزج فيه سحر إيزيس أوزوريس ببهاء وسحر وردة أنس الوجود، وعرفت حينها من هي التي كنتُ أنتظرها..

ولكن الأوقات الرائعة لا تدوم كثيرًا ولكي نفوز ببعضها علينا أن نجتهد في الترتيب لها قبلا..

ودّعتُ عمي وإيزيس هذه المرة وكلي إصرارٌ على العودة من جديد..

- **هل ستغيب طويلًا كما غبت المرة الماضية؟**

قالتها إيزيس وعيناها تهربان من لقاء عيني.

- **لن أغيب ثانيةً، سوف أقوم ببعض الأمور الهامة وأعود فور انتهائها.**

كانت عودتي هذه المرة مختلفة فقد تركتُ قلبي وروحي معهم.

ومازالت في ذاكرتي عيون عمي التي اغرورقت بالدموع حين صافحته قبل المغادرة، وكلماته التي لم ينطقها: عُد يا بني ولا تغب مثل عبدالرحمن وسليمان.

كانت أيامي التالية محمومة بالحركة والكثير من التخطيط للفترة القادمة..

اتفقتُ مع باسم أن يعينني على تأجير مكان مناسب في مدينة أسوان أستطيع منه متابعة العمل هنا وهناك، وبفضل معارفه الكُثر هناك كان الأمر سهلًا..

في كل مرة أطلب فيها مساعدة باسم يثبت لي رجولته وأمانته وأنه يستحق شذى ولن أقلق عليها بصحبته.

اتفقتُ مع بعض الشباب من خريجي كلية الحقوق الذين كانوا يتدربون في مكتبي أنني سأترك لهم إدراة المكتب ويلجأون إليّ حين يحتاجون للمشورة أو للمساعدة.

وشركة السياحة يديرها الشباب ومعهم شذى، لن أقلق عليهم فهم أقدر مني على إدارتها.

جلستُ مع أمي في إحدى الليالي نتبادل الأحاديث وتذكرنا كل ما حدث لنا منذ رحيل والدي.. كانت أيامًا صعبة ولكنها غيّرت فينا الكثير..

قالت أمي بصوت يملؤه الفخر:

- المِحَن هي من تصنع الرجال وأنا أنجبتُ رجلًا.. كنتُ على ثقةٍ بأنك ستجتاز كل الصعوبات، لم أفقد إيماني يومًا.

فقبّلتُ يديها وقلتُ لها:

- أيّ نجاحٍ حققته في حياتي أنتِ سببه ودعواتك هي التي حفظتني وأخرجتني من كل ضائقةٍ حاصرتني وظننتها ستكون القاضية.. حفظكِ الله لنا يا أمي.

ثم استأذنتها في السفر لأسوان مرةً أخرى ولكن هذه المرة ربما تطول أكثر..

كانت ترى في عينيّ هذا البريق كلما تحدثتُ عن عمي وعن إيزيس وكنتُ أرى في عينيها نظرات الرضا..

فهذه الوصلة السحرية التي طالما كانت بيننا؛ نكمل بها أحاديثًا لم تنطقها ألسنتنا، ونتبادل بها الأفكار دون الحاجة للإفصاح بكلماتنا..

كانت مكالماتي اليومية لإيزيس تخفف من وطأة المسافات، وتعبُر أشواقنا آلاف الكيلومترات وكأنها خطوات فيصلني همسها وكأنها تطلقه من مكانها في داخل تجاويف قلبي.

وانطلقتُ في اليوم المحدد إلى المطار وبصحبتي هذه المرة عم عثمان؛ فقد وعدته أن آخذه ليزور بلاده التي لم يزرها من قبل..

قابلتنا إيزيس في المطار فقد أخبرتها بموعد الرحلة، ولم أندهش من وجودها بالمطار ولكن دهشتي كان لها سببٌ آخر فقد وجدتُ بصحبتها ثلاثة شباب نوبيون لا أعرفهم..

وما إن اقتربتُ منهم حتى عرفتني عليهم..

- **محمد حفيد عمي صالح.. منير حفيد عمي سليمان وأخوه يحيى.**

تعجبتُ كثيرًا وسألتها كيف وصلتِ إليهم؟

فابتسمت وقالت: هذا سر.

كانت المفاجأة أكبر من كل توقعاتي، فقد كنت أنوي السفر و البحث عن العائلة في كوم امبو وكنت أظن أن مجرد لقائي بأحد أفراد العائلة حلم بعيد المنال، فكيف أجده أمامي بهذه السهولة واليسر؟

كان عناقًا طويلًا بطول سنوات الغربة، مددتُ ذراعيّ حولهم الثلاثة وكأنني أريد ان أذيب كل الفواصل فتخترق أرواحنا جلودنا وتمتزج دماؤنا في الأوردة..

قطعت إيزيس خلوتنا بصوتها الرقيق فنبهتنا بوجودنا وأننا مازلنا في المطار، ودعتنا للذهاب.

وبالفعل انطلقنا إلى بيت عمي حمدون بعدما عرّفتهم على ضيفي عم عثمان.

لم تكن هناك أية مشكلة في اصطحابي لضيفٍ أو قدوم ضيوف آخرين فالحياة هناك بسيطة وأبواب البيوت مفتوحة كما القلوب للجميع.

تبادلنا الحكايات والذكريات ثم غادروا على وعدٍ بالعودة وأصروا على اصطحاب ضيفي ليذهب معهم في زيارةٍ قصيرة إلى كوم امبو ليقابل الأهل هناك ووعدتهم بالذهاب بعد أن أرتاح من السفر.

بمجرد مغادرتهم انطلقنا أنا وإيزيس إلى مكاننا قبل أن يسبقنا الغروب ويسرق منا اللحظة التي انتظرناها طوال فترة غيابي..

لمُّ الشـــــمل

وها أنا أعود، لا أملك من الكون سوى أشواقي وبضعة حروف.. أمحو عن وجه أيامك الوجع، وأنثر الزهر على جبينك المعقود، فلا تترك للشجن دربًا بيننا، والذكرى لتكن ملاذنا في كل ضيق، نلتمس منها بعض الأمل..

تعالَ معي لنحلم، لننعم بيومٍ ليس فيه من قيظ الأحقاد شيئ، ولا بظلمات الشك مفعم..

تعالِ معي نرسم على صفحة السماء بيتًا بلبنة نورٍ وأخرى بالأمل تلتئم..

شمسُ نهارنا بين الغيوم تسكن، حين نناديها بشعاعٍ دافئ تتهادى وتبتسم..

تعالَ نبني لأحفادنا عالمًا بالودّ والسلام يُحكَم..

كانت أشواقي تسبقني فلم تترك المجال لحروفي أن تخرج، وكانت عيناي تبوح بما يعجز عن وصفه اللسان..

جلسنا في مكاننا والنيل شاهدٌ على ميلاد قصّة عشقنا التي سبقت حتى ميلادنا، وأشعة الشمس تلقي محبتها على قلوبنا وتهمس لنا بتعويذة تحفظنا قبل المغيب.

كل شيء في المكان يهمس بدعواته لنا، بينما أناملنا المتشابكة ترجونا ألا تبتعد ثانية.

وفي طريق عودتنا سألتها كيف وصلت لأحفاد أعمامنا، فقالت:

- صديقة لي بدأت في العمل في إدراة جامعة أسوان منذ عام وكنتُ قد أعطيتها أسماء أعمامي ربما صادفها إسمٌ من أسماء الطلبة يشبههم، وبالفعل قابلها يحيى وهو طالب في الفرقة الأولى بكلية الآداب وكانت عنده مشكلة في التسجيل فلجأ إليها لحلها وحين سألته عن الاسم وعن عائلته عرفت أنه من عائلتي واسمه والده نفس اسم عمي وأخبرتني بذلك فطلبتُ منها أن تقابلني به وهو عرّفني بالباقين.

أخبرتها بخططي للأيام التالية..

- سوف نذهب معًا في زيارة إلى كوم امبو للقاء الأهل هناك، أنتِ وفرتِ علي الكثير من البحث.

وبعدها عندي لكِ مفاجأة..

فسألتني بترقب:

- ماهي يا أنس؟

فابتسمتُ بنفس ابتسامتها الماكرة وأجبتها بنفس ردها السابق يوم أخذتني للمعبد:

- إذا أخبرتك كيفِ ستكون مفاجأة؟

توالت الأيام وأنا أتنقل من كوم امبو إلى أسوان ومنها إلى القرى المجاورة بمساعدة أولاد عمومتي الذين قابلتهم فيما بعد وأحفادهم.

قابلت الكثير من أهل النوبة القدامى ممن مازالوا على قيد الحياة وكانوا صِغارًا وقت الهجرة والنساء اللاتي مازلن يحتفظن بالمفاتيح الخشبية لأبواب بيوتهن القديمة ظنًا منهن أن البيوت مازالت موجودة وسوف يعدن إليها.

سمعت الكثير من القصص والحكايات أثناء التهجير وبعده..

نقل الأسر والحيوانات في مراكب صغيرة ولدى وصولهم إلى القرى الجديدة وجدوا البيوت التي وعدوهم بها لم تكتمل وآوت كل أسرة في غرفة أو غرفتين ثم أكملوا بجهودهم بيوتهم.

مياه النيل التي كانت حولهم من كل اتجاه شريانهم النابض بالحياة وكأن النيل حبلهم السريّ وقد قطعوه عنهم للتو..

أصبحوا بمعزلٍ عنها في وسط صحراء لا يوجد بها ماء للشرب سوى صنبور واحد يمد القرية كلها بالماء العذب، التعويضات البسيطة المجحفة التي أعطوها للنوبيين عوضًا عن نخيلهم وزراعاتهم التي تركوها..

كل ذلك كان غصّةً في حلوقهم..

في عام 1964 عام التهجير مات الكثير من كبار السن والأطفال حتى أنه لم يوجد أي مواليد باقية على قيد الحياة في هذا العام بسبب قسوة الحياة حينها.

تركنا بيوتنا وأرضنا عن طيب خاطر لكي ننقذ كل الوطن، فمياه النيل كانت تفيض أربعة شهور ثم يأتي من بعدها القحط والجدب وكان المُنقذ الوحيد هو السد العالي الذي يخزن مياه الفيضان في البحيرة خلفه ليحافظ عليها وتروي الأرض في شهور الجدب.

كانت هذه شهادات الكثير من النوبيين المشتتين الذين مازالوا ينتظرون عودتهم وقد وُعدوا سابقًا بتسليمهم أراضي في منطقة توشكى ولكن لم يتم تنفيذ أي وعود وبقي شبابهم عاطلين يبحثون عن أي فرصة عمل أو يلجؤون للهجرة لبلاد أخرى أو الانتقال إلى مدن الشمال والعاصمة ربما وجدوا فيها عملًا.

قرر أنس جمع كل هذه الشكاوى وجمع توقيعات النوبيين لرفع قضية باسم كل النوبيين لتعويضهم عن ممتلكاتهم التي فقدوها.

وكان هذا هدفه للمرحلة القادمة وهو ما أسس لأجله مكتبه في أسوان.

وأما المكتب الثاني فكان فرعًا لشركة السياحة في القاهرة ليستقبل السياح وينظم برنامجًا لهم لقضاء رحلةٍ ممتعةٍ في منطقة الأقصر وأسوان وزيارة معابد فيلة والسد العالي.

مرت أسابيع نظم فيها أنس أولوياته وجهز احتفالًا خاصًا بافتتاح المكتبين، دعا إليه والدته وأخته رقية وزوجها الدكتور أحمد وأخته منى وشذى وباسم خطيبها وشريكهم الجديد بالإضافة لأول فوج سياحي للشركة أيضًا وكان قد دعا فيه الشيخ حمد وزوجته وبناته وأزواجهن وكذلك صديقه بدر.

حضرالجميع الإفتتاح في حضور عمه الشيخ حمدون وابنته إيزيس وأبناء عمومته وأقاربه من كوم امبو الذين استعان بشبابهم لمساعدته في أعماله في أسوان.

وأعدّ أنس برنامجًا سياحيًا مميزًا لأول فوجٍ للشركة تنوعت زياراته بين المعابد المنتشرة في المنطقة بالإضافة لزيارةٍ خاصة لورشة إيزيس لمشاهدة إبداعات المرأة الأسوانية..

وكان لهذه الزيارات أثرٌ طيب في فتح أسواقٍ جديدة لبيع منتجاتهم وتشاركا فيما بعد في إنشاء مصنع كبير لإنتاج الفخار..

كيف حال الأماكن؟

حين نرحل عنها ونهجرها؟

هل تحتفظ بأطيافنا وتأبى رحيلها؟ أم تبادر بإطلاق تنهيدة تحمل بين طيّاتها نداءاتٍ مخفية تطرق قلوبنا دون لطف.. تصرع أبوابًا جاهدنا في إحكامها موصدة خلف الخوف..

لو كان للذكرى سجن؛ لأسرعنا بحبسها دون سجّان، وآثرنا البقاء بعيدًا خارج حدود الزمان..

رفقًا بأرواحنا؛ فأطياف الأمس ليست هي الحاضرة اليوم، وإن بقينا في نفس المكان.

نهايــة أم بدايــة؟

الآن فقط قد عرفتُ أنها كانت مجرد خدعة، فالأسماء لن تصبغ أرواحنا بحروفها ما لم نكن نحن على استعداد، فأنت إذا آمنتَ بفكرةٍ فحتمًا ستصل إليها بالعمل والتوكل على الله.

هكذا بدأ أنس كتابة مذكراته وتوثيق كل ما مرّ به منذ فراقه لوالدته وأخواته.

كانت كل الأمور طيبة.. لا شيء يعكرها سوى بعض المُنغصات الفردية التي يمكن تجاوزها من بيروقراطية الموظفين ووعود النواب الذين من المفترض أنهم وصلوا بأصوات الشعب للمجالس النيابية ليخدموا ناخبيهم ويعملوا لمصالحهم ولكنهم على العكس ما إن يصل أحدهم لكرسيه حتى ينسى الجميع ولا يفكر في شيئ إلا لنفسه وكيف يستفيد من هذا الكرسي ويستميت في الدفاع عن موقعه وكيفية الحفاظ عليه لأطول مدة ممكنة..

تذكّر حينها خالد صديق الشيخ حمد، وأدرك أن الكل متشابهون لا فرق بينهم، يسعون لمصالحهم الشخصية وينسون مهامهم التي اختيروا لأجلها..

اقترح بعض المقربين من أنس أن يتقدم بنفسه للترشح لعضوية أحد هذه المجالس ليقينهم بأنه الأصلح لمثل هذا المكان ولكنه كان يرفض

المناصب ولا ينتظرها حتى يخدم كل من يلجأ إليه، بل وكان يبحث بنفسه عمن يحتاج للمساعدة والعون وكانت هذه من أحب الأعمال لقلبه.

ولكن كانت أسعد أوقاته حين يرتدي جلبابه النوبي الأبيض وينطلق بصحبة أدهم "حصانه الأشهب" الذي اشتراه بعد استقراره بأسوان وكان نواةً لمزرعة صغيرة أنشأها في القرية وكانت إيزيس تشاركه حب الخيول وكانا يقضيان معًا أمتع الأوقات في المزرعة حيث علّمها ركوب الخيل وكيف تكون صديقةً لهم..

لم يكن فقط حب الخيول هو الأمر المشترك بين أنس وإيزيس فقد كانت هناك رابطة غامضة كذلك الرابط السحري الذي يصل روحا أنس ووالدته فكانا يكملان لبعضهما سيل الأفكار وكأنها نبعت من نفس المنهل.

لم يعلم أنس حين جاء أول مرةٍ لأسوان أنه سيقع في غرام هذه البلدة ومن فيها، وأن حياته السابقة كانت مجرد محطات ليصل إلى وجهته الأخيرة..

على الأقل حتى الآن..

علّمونا قديمًا أن لكلّ شيءٍ نهاية، إما سعيدة كنهايات القصص والأفلام، تنحلّ فيها كل العُقد فجأةً، بعد خوض الكثير من المعارك، وقد يبدو فيها البطل خاسرًا، ولكنه يظفر بنهايةٍ سعيدة ربما يقطفها في غير أوانها.

وربما جاءت النهاية حزينةً، للمزيد من التعاطف وإيجاد الفرص للإيمان بمقولة أن الحياة ليست عادلة، فلا تمنحها الأمان..

ولكن في الحقيقة الأمر يختلف عن كل ذلك، فهي معركة متشابكة الأطراف بين ذاتك وشخصياتك المختلفة، التي أردتها والتي رسمتها لك الظروف، وفرضتها عليك الحياة، فهل تستسلم وتعيش مهزومًا وتقول إرادة القدر؟

أم تحارب لتنتصر؟

الإجابة تختلف من شخصٍ لآخر، وعليك وحدك أن تختار..

ولكن تأكد أن إيمانك بأحلامك هو أهم قرار، وبعدها كل العقبات تنهار.

الوطن ليس مجرد كلمة مكتوبة في شهادة ميلاد.

الوطن حُلمٌ يسكنك وبيديك تُحيله لواقعٍ ملموسٍ وحقيقة..

محتوى الكتاب

الجزء الأول

الجزء الثانى

تمت بحمد الله

د. أمل درويش